

وزارة المعارف العمومية

ناتج مَصَّ السِّيَّاسِيَّ

في الأزمنة الحديثة

تأليف

محمد رفعت

مراقب تعليم البنات المساعد

(والحائز لدرجة أستاذ في الآداب ودرجة الشرف من الطبقة الأولى
في التاريخ الحديث وعلى منحة البحث العلمي من جامعة ليثربول)

الجزء الأول - للدارس العالية

(من سنة ١٧٩٨ إلى سنة ١٨٤٩ م)

حق هذه الطبعة محفوظة للوزارة

القاهرة

طبع بالطبعة الأميرية ببولاق

١٩٣٤

OKA

اهداءات ٢٠٠٠

مكتبة

ا.د. محمد حسين ميكل

رئيس مجلس الشيوخ السابق

وزارة المعارف العمومية

تاريخ مصر السياسي

في الأزمنة الحديثة

تأليف

محمد رفعت

مراقب تعليم البنات المساعد

(والحائز لدرجة أستاذ في الآداب ودرجة الشرف من الطبقة الأولى
في التاريخ الحديث وعلى منحة البحث العلمي من جامعة ليقربول)

الجزء الأول - للدارس العالية

(من سنة ١٧٩٨ إلى سنة ١٨٤٩ م)

حق هذه الطبعة محفوظ للوزارة



General Organization of the Alexandria Library (GOAL)

Bibliothèque Alexandrine

القاهرة

طبع بالمطبعة الأميرية ببولاق

١٩٣٤

٢١٠ ٤١ - ٥





محمد علي الأكبر

(ج)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

أقدم كتابي إلى قراء التاريخ وأنا شاعر بأني بعيد عن الغرض الذي كنت أرمى إليه . ولكنني وجدت الاحجام عن نشر ما تهيأ لدي لفائدة أبناء وطني ، لمجرد الاعتقاد بأن ذلك دون ما أبني من الكمال ، ضربا من الجحود العلمي لا يتفق مع سنة النشوء والترقي في العلوم الحديثة ، التي يتوارثها العلماء ناقصة فلا يلبثون أن يورثوها غيرهم وافية بقدر المستطاع ، إذ العصمة والكمال لله وحده .

لذلك أقدمت على نشر أبحاثي التي يرجع البدء فيها إلى سنة ١٩١٤ أيام أن كنت أواصل الدراسة في إنجلترا في مكتبة "المتحف البريطاني" ودار "سجلات الحكومة" بلندره . ولقد قصدت إلى أن يكون بحثي مستمدا من أصوله الرسمية ومن المصادر الموثوق بها حتى يحوز الصفة العلمية التي تحتمها الجامعات الأوربية أولا وحتى يتسنى لمصرى مثلي يفهم الروح المصرية أن يضع كتابا مستقلا في الموضوع بحيث لا يكون جل اعتماده فيه على ما يكتبه العلماء الأوربيون بل على المصادر التي يأخذ عنها هؤلاء العلماء رأسا .

وما أكثر وأعظم ما يعثر عليه الباحث المنتقب من أصول ومادة في تاريخ مصر الحديث ، فسجلات وزارة الخارجية بلندره ، ناهيك بما في العواصم الأخرى ، حافلة بمجلدات مكدسة بعضها فوق بعض حاوية لجميع أنواع الرسائل الرسمية والخاصة والسرية والتقارير والجرائد وغير ذلك مما يتطلب عدة سنوات للفحص عنه فحفا دقيقا . وقد انتهزت فرصة تعييني طالبا

(د)

للبحث العلمى فى لندره باتفاق جامعة ليقربول مع وزارة المعارف المصرية
فقضيت عام ١٩١٦ فى درس الوثائق الهامة الخاصة بحالة مصر فى عهد
محمد على . ثم حضرت مصر وواصلت بحثى فى المكتبة السلطانية واستوفيت
ما كان ناقصا وخاصة فى الجزء الأول من الكتاب .

وسيرى القارئ أننى توخيت فى كتابى أسلوبا سهلا ، وطريقة علمية
غايتها الوحدة التاريخية ، واتجاه السياسة العامة ، وربط الأسباب
بالمسببات ، وإغفال التفاصيل المملة ، وإبداء النقد على حسب الحقائق
المقررة لا على حسب ما تملسه العواطف ؛ وهنا الفرق كل الفرق بين
المؤلف الذى يجب أن يكتب ويبحث لأجل الحقيقة وبين السياسى الذى
يكتب ويجادل لإرضاء لعواطفه الخاصة .

وغاية رجائى أن يفى الكتاب بحاجة المتعلمين إلى كتاب فى التاريخ على
الطرق العلمية الحديثة ، وأن يتقدم العاملون للبحث والكتابة العلمية
فى موضوعاتهم التاريخية وأن يتكرم أولو الفضل بموافاتى بما يعنّ لهم من
الآراء ووجوه الاصلاح التاريخية فى الكتاب .

والله أسأل أن يوفقنى الى إتمام الجزءين الباقيين من الكتاب وأن يوفقنا
جميعا الى خدمة بلادنا العزيزة بالصدق والاخلاص م

محمد رفعت

القاهرة فى أول رمضان سنة ١٣٣٩ (الموافق ٩ مايو سنة ١٩٢٠)

(٥)

تعليقات بعض الجرائد على تاريخ مصر السياسى فى الأزمنة الجباصرة

جاء فى جريدة الأخبار بتاريخ ٢٤ مايو سنة ١٩٢١ :

”بين أيدينا كتب ألقت فى التاريخ المصرى وهذه الكتب على تعددها
تكاد تكون كتابا واحدا كثير الطباعات ...

ولما اليوم فى المرة الأولى فى عهد هذه النهضة نرى من كتاب ”تاريخ مصر
السياسى“ الذى أخرجه المؤرخ المصرى الفاضل محمد رفعت ... أرقى أنموذج
عملى ممكن للتأليف فى هذه المادة فإن هذا المؤلف فى التاريخ لم يكن
فى شىء من أولئك المقلدين الذين حذا بعضهم حذو بعض حتى تشابهوا
وحتى كان آخرهم صورة لأولهم . بل هو قبل أن يؤلف كتابه هذا ألف
طريقة مثلى لوضعه بحيث يكون فى نفسه مادة علمية صافية من كل شائبة
ويكون كذلك حجة قاطعة لكل لبس أو إبهام يحيط بأية مسألة من مسائل
التاريخ .

ونحن نشكر لحضرتة كل الشكر هذه الخدمة العلمية التى لا ينقضى برها
ولا ينقطع شكرها ، نشكر له تلك اليد البيضاء ونرجو أن يوفق الى إتمام
ما بدأ فيه بمثل تلك العناية الجميلة“ .

(و)

وجاء في جريدة الأهرام بتاريخ ٢٠ مايو سنة ١٩٢١ :

”بين أيدينا الآن كتاب ”تاريخ مصر السياسي“ لمؤلفه الأستاذ رفعت وقد بذل المؤلف عناية كبرى في البحث والاستقصاء فرجع إلى مصادر تاريخية عديدة ومحررات رسمية كثيرة للامام بموضوعه من جميع أطرافه لأنه لم يقتصر على إيراد الوقائع على سبيل الرواية بل تخطى الرواية إلى بحث العلل والمعلولات وما ترتب على ذلك من النتائج السياسية ... الخ“ .

وجاء في مجلة المقتطف عدد يونيه سنة ١٩٢١ :

”كتاب ”تاريخ مصر السياسي“ تأليف الأستاذ محمد رفعت ... وقد قال في مقدمته إنه اعتمد في جمعه وتأليفه على المصادر الموثوق بها ... وأنه توخى أسلوباً سهلاً وطريقة علمية غايتها الوحدة التاريخية وربط الأسباب بالمسببات واغفال التفاصيل المملة وإبداء النقد على حسب الحقائق المقررة لا على حسب ما تمليه العواطف .

لا يكاد القارئ يتصفح أربع صفحات من الفصل الأول من هذا الكتاب حتى تبدو له الأدلة على ما قاله المؤلف ... الخ الخ“ .

(ز)

فهرس الكتاب

صفحة	
١	الفصل الأول — مصر قبل الحملة الفرنسية...
٢١	الفصل الثاني — مشروع الحملة الفرنسية على مصر
٢٩	الفصل الثالث — نابليون في مصر
٤٩	الفصل الرابع — الحملة الفرنسية بعد نابليون
٦١	الفصل الخامس — نتائج الحملة الفرنسية
٦٧	الفصل السادس — تنازع البقاء في مصر بعد الحملة
٨٦	الفصل السابع — نهضة مجد على
١٠٩	الفصل الثامن — اصلاحات مجد على الداخلية
١٢٦	الفصل التاسع — ظهور المسألة الشرقية واستقلال اليونان
١٤٨	الفصل العاشر — بين الباشا والسلطان
١٦٩	الفصل الحادى عشر — اتفاق الدول ضد مجد على
١٨٦	الفصل الثانى عشر — عند مفترق الطرق
١٩٩	الفصل الثالث عشر — الأزمة السياسية فى سنة ١٨٤٠
٢١٩	الفصل الرابع عشر — خاتمة المرحلة الأولى
٢٢٧	ملحق (٢) — منشور بوناپرت الى المصريين
٢٢٩	ملحق (ب) — مجد على والخلافة...
٢٣٣	ملحق (ج) — مشروع لجمعية الأمم فى سنة ١٨٤٠
٢٣٧	ملحق (د) — أهم مصادر الكتاب
٢٣٩	ملحق (هـ) — أسماء أهم الأعلام الأوربية الواردة فى الكتاب

(b)

فهرس الصور

٢٢٢	القلعة عند دخول الفرنسيين بمصر
٢٢٢	القلعة من ناحية المقطم
٢٠٤	لوى فيليب
١٧٠	بالمستون
١٤٧	ابراهيم باشا
١١٥	بوغوص بك يوسف
١٠١	سليمان باشا
٢٩	نابليون بونابرت
٨	نافورة
٧	قاعة استقبال
(ج)	محمد على الكبير



(ك)

فهرس الخرائط

أمام صفحة

- ١ — خريطة الحملة الفرنسية في مصر وسوريا... ٣٤
- ٢ — « موقعة أبي قير البحرية ... ٣٦
- ٣ — « اتساع نفوذ محمد علي وبلاد العرب ... ٩٦
- ٤ — « فتح السودان ... ١٠٦
- ٥ — « شبه جزيرة البلقان والمورة ... ١٣٧
- ٦ — « حروب الشام ... ١٥٦

الفصل الأول

مصر قبل الحملة الفرنسية

الحالة السياسية

تمهيد :

تعاقت على مصر منذ الفتح العربى حكومات أجنبية عدة فمن الطولونيين والأخشيديين الى الفاطميين ثم الأيوبيين^(١) وجميعهم من عناصر غير مصرية ، ولكنهم سرعان ما كانوا يتأثرون بالبيئة المصرية ويندمجون فى مدنيتهما فيعلنون استقلالهم ويطمعون بحكومتهم بالطابع المصرى ، وهكذا احتفظت البلاد بمميزات الاستقلالية طول العصور الوسطى ووصلت فيها الى درجة عظيمة من الرقى ، ثم اغتصب "المماليك" الحكم مع الأيوبيين سنة ١٢٥٠ فحكموا البلاد مستقلين أيضا حكما مستتبيا لا بأس به ولقبوا أنفسهم سلاطين واستطاعوا الاحتفاظ بأملاك مصر فى الشام ، حتى ظهرت قوة الأتراك العثمانيين واتجهت أنظار السلطان "سليم الأول" نحو الشرق فجهد قوة للقضاء على خصومه : الشاه اسماعيل فى فارس والسلطان "الغورى" فى مصر ، فانتصر سليم على الفرس أولا ، وعلى أثر هذا الانتصار توترت العلاقات بين سليم والغورى حليف الشاه اسماعيل ، فأعد الغورى حملة كبيرة فى سنة ١٥١٦ وخرج قاصدا حدود آسيا الصغرى ، والتقى الفريقان قرب حلب فى موقعة "مرج دابق" فانهمزم المصريون

(١) الطولونيون (٨٧٠ - ٩٠٥ م) ، والأخشيديون (٩٣٢ - ٩٦٨ م) ،
والفاطميون (٩٦٩ - ١١٧١ م) ، والأيوبيون (١١٧١ - ١٢٥٠ م) .

— ٢ —

لقلة عددهم وسوء أسلحتهم ونظامهم ولظهور الشجاء بين صفوف المماليك وقتل الغورى فى هذه المعركة واستولى العثمانيون على مدن الشام وحصونها ثم دخلوا مصر وحاول "طومان باى" ابن أخى الغورى الذى خلفه حاكما على مصر مقاومة العثمانيين فانهم فى عدة مواقع آخرها قرب "وردان" سنة ١٥١٧ م وقبض السلطان على طومان باى وشنقه عند باب زويلة ، وهكذا فقدت مصر استقلالها وصارت أمانة عثمانية .

نظام الحكم العثماني فى مصر :

بعد أن فرغ سليم من جمع ومصادرة التحف والنقائس والجواهر التى كانت تملأ قصور سلاطين المماليك وخزائنها وضع نظاما يسير عليه الحكم فى مصر بعد مغادرته البلاد ، وقد قصد السلطان سليم من النظام الذى وضعه إلى غرض أساسى واحد هو ضمان بقاء تبعية مصر للدولة فعمل لهذا القصد وحده دون الاهتمام بمصالح البلاد وترقية مواردها ، ولما لم يكن للعثمانيين مدنية أو آداب خاصة يمكن ادخالها وترويحها فى البلاد التى فتحوها لم يترك نظام حكمهم فى البلاد أثرا ظاهرا باقيا على الرغم من طول بقائهم بالبلاد التى فتحوها .

الباشا :

رأى السلطان أن مصر بمعزل عن أملاك الدولة وأن بعدها عن مقر الحكم فى الاستانة قد يساعد حكامها على الاستقلال عن الباب العالى فوضع نظاما يقضى بتوزيع السلطة على ثلاث هيئات يكون له من تشاؤها ودوام تنافسها ما يضمن استمرار ضعف هذه الهيئات والتجائها الى الملاذ الأعلى بالقسطنطينية ، بفعل السلطة الرئيسية فى يد وال أو حاكم بلقب "باشا" يعينه السلطان لمدة قصيرة تتراوح عادة بين سنة وثلاث ومقره القلعة ووظيفته تمثيل الباب العالى وتبليغ وتنفيذ أوامره وإرسال الجزية وقيادة الجند فى الحرب .

الديوان :

ويعاون الباشا فى الحكم ديوان مكون من ضباط جيش الاحتلال الذى كان يتألف من سبع فرق أو "أوجقه" واحدها "وجاق" وتتكون هذه الفرق من جنود مختلفة الأجناس أهمها فرقة الانكشارية اذ كان لأغا الانكشارية شأن ومركز ليس لغيره من ضباط الفرق. وللديوان حق الموافقة على قرارات الباشا ومراجعتة فيما لم يوافق عليه من القرارات ، وله عند الاقتضاء حق عزل الباشا والاتصال رأسا بالباب العالى ، وعند البحث فى المسائل الهامة يجتمع الديوان ويضاف اليه كبار العلماء والمشايخ والأعيان ولا ينعقد الديوان الكبير بهذه الهيئة الا نادرا .

أمرء الممالك :

أما السلطة الادارية المحلية فرأى السلطان أن يبقيا فى يد أمرء الممالك أو "البكوات" وكان فى مقدوره أن يقضى عليهم بعد انتصاره على "طومان باى" ولكنه تركهم ليحفظوا التوازن بين والى والديوان ، فعين منهم مديرين أو سناجق وكشاف فى الأقاليم .

وأنشأ السلطان ديوانا خاصا للحاسبة وتسجيل الأملاك ونقلها وجمع الضرائب ، وعرف هذا الديوان "بديوان الأفندية" .

استمر هذا النظام نافذا نحو قرن كانت فيه الدولة العثمانية حافظة لمركزها وسمعتها الحربية بين دول أوروبا . فلما ظهر ضعف تركيا الحربى وانتشر الفساد والاضطراب داخل الدولة لم يعد النظام الذى وضعه السلاطين العظام سليم وابنه سليمان نافذا بل سطت عليه يد المسخ والتغيير وتدهورت الحال تدريجا حتى نمت سلطة الممالك رغم أنف ممثلى السلطان ، وجمعوا النقود فى أيديهم وقصروا سلطة الباب العالى على الاسم والخطبة والحزية .

ضعف الوالى :

أما الوالى فصار مقامه بمصر تحت رحمة الممالك ، يقضى أيامه شبه سجين فى القلعة لا هم له سوى جمع المال بكل الطرق الممكنة قبل أن يستدعيه السلطان من البلاد . فإذا أساء التصرف أو ساءت علاقته مع الممالك أرسلوا اليه رسولا يقرأ عليه كلمة " انزل يا باشا " ويطوى البساط أمامه فإذا هو وال معزول لامندوحة له عن مغادرة البلاد .

ضعف الديوان :

أما ضباط الجيش وفرقه وهم أعضاء الديوان فقد تدهورت حالتهم الأدبية وانحطت أخلاقهم على أثر ضعف الباب العالى وانهمزوماته ، وأفقدتهم عيشة الخمول والكسل صفاتهم الحربية الأولى فتقربوا من بكوات الممالك وهم إذ ذاك أصحاب الأمر داخل البلاد وقبلوا منهم الوظائف وصاروا من أنصار الممالك وأعوانهم ولم يمض وقت طويل حتى أصبح الديوان كله من صنائع الممالك وأتباعهم ، وهم الذين يجمعون ويسرون أعضاءه متى وكيف شاءوا .

أصل الممالك :

أما البكوات الممالك الذين سادوا البلاد وعاثوا فيها فسادا فى أثناء العهد العثمانى المظلم فكانوا من بقايا الممالك الجراكسة الذين حكموا البلاد قبل الفتح العثمانى . وأول من استخدم الممالك الأتراك فى مصر خلفاء الفاطميين الذين أرادوا التشبه بالعباسيين فى بغداد ثم جاء الأيوبيون فاشتري الملك " الصالح بن أيوب " عددا يزيد على الألف من رقيق شمالى وغربى آسيا . وكان " المغول " فى ذلك الوقت قد جعلوا يخربون تلك الجهات ويدمرون قراها ويغيرون عليها بين آن وآخر ، فهاجر أهل البلاد ومعهم أولادهم وبناتهم واتهنز تجار الرقيق الفرصة فملئوا الأسواق بالفتيان والفتيات من أهل قفقاسيا وجورجيا والجرس .

الممالك البحرية :

ويعرف الممالك الأول الذين حكموا بعد الأيوبيين من سنة ١٢٥٠ الى سنة ١٣٨٢ بالممالك البحرية لأنهم أقاموا أولا في جزيرة الروضة حيث بنى لهم الملك الصالح قصورا قرب المقياس . وأكثر هؤلاء الممالك من الأتراك وسكان شمالي آسيا وكانوا في حكمهم يتبعون النظام الوراثي عادة واشتهر من سلاطينهم الظاهر بيبرس (١٢٩٣ - ١٣٤١ م) والناصر بن قلاوون (١٣٤١ م) .

الممالك الجراكسة :

أما الممالك الجراكسة فأصلهم من جورجيا والقفقاز وبلاد الجركس وقد حكموا من سنة ١٣٨٢ الى سنة ١٥١٧ ، وكانوا لا يتقيدون بنظام خاص في الحكم بل كان الأمر للغالب المتصّر من الأمراء . ومن أشهر سلاطينهم الظاهر برقوق (١٣٨٢ - ١٣٩٨) والغوري (١٥٠١ - ١٥١٦ م) .

نشأة الممالك :

ولما كان الممالك مترفعين عن الاختلاط بأهل البلاد اعتمدوا في زواجهم وحروبهم على ما كانوا يشترونه من الرقيق الجركسي فتينا فتيات . وكان الغلمان يدرّبون منذ نعومة أظفارهم على أعمال الفروسية والحرب والصيد ويعلمون القراءة والكتابة والقرآن وشيئا من الدين . فاذا كبر الغلمان وبلغوا الثامنة عشرة وظهرت لحاهم حرّهم ساداتهم ومنحّوهم مالا وأرضا وجواري ورفقهم الى رتبة البكوية فيتزوجون ويؤسسون بيوتاً يملئونها بالرقيق كسادتهم^(١) ولم تكن الروابط بين السادة والأتباع شديدة بالروابط الاقطاعية التي سادت في أوربا في العصور الوسطى ، فهذه كانت مبنية

(١) من الممالك من كان يملك من ٢٠٠ الى ٣٠٠ مملوك . أما رؤسائهم كبراهيم بك فكانوا يملكون من ٦٠٠ الى ٨٠٠ مملوك .

على أسس اقتصادية أهمها ملكية الأرض والولاء بين السيد وتابعه ، وأما العلاقات بين الممالك وأسائنتهم فلم تكن مؤسسة على أية قاعدة سوى مجرد الرغبة والشهوة الوقتية .

شيخ البلد :

ولما كان الوصول الى الزعامة والحكم لا يبيىء الا عن طريق التغلب والقوة كان الممالك فى أثناء قيام دولتهم وفى العهد العثمانى فى حروب ومنازعات حزبية مستمرة غايتها الوصول الى الرياسة . ويعرف رئيس الممالك "بشيخ البلد" ومقره القاهرة ومتى ظفر بأعدائه استولى على أموالهم وجواريهم وأملأهم .

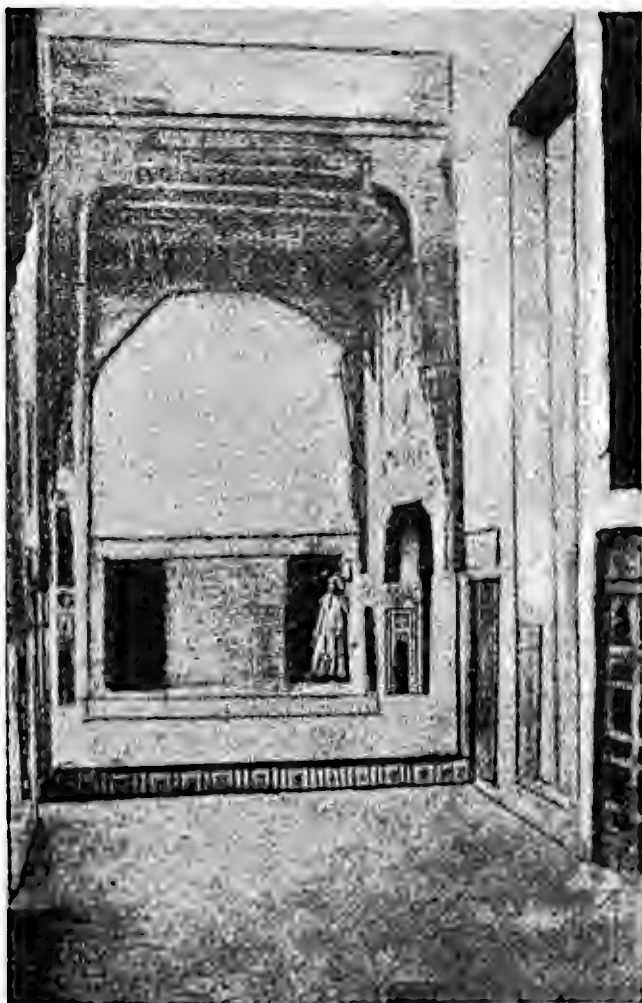
زى الممالك :

وكان الممالك يعيشون عيشة البذخ والنعم فيرتدون المنسوجات الهندية الرفيعة ، وفوقها القفاطين الحريرية ذات الأنكام التى تتدلى الى أطراف أصابع اليد ثم الجلب ذات الفراء الغالية والسراويل الواسعة من الجوخ الذى كان يرد من فرنسا ثم يتمنطقون بأحزمة حريرية مثبتة فيها الأسلحة المختلفة ويضعون على رؤوسهم عمامات من النسيج الرفيع (الشاش) وكانوا يمتطون الخيول العربية الكريمة المطهمة والمزركشة بالفضة والذهب والأحجار الكريمة .

نظامهم الحربى :

ولم يكن للممالك نظام عسكرى بل كانوا يعتمدون على أنفسهم وأتباعهم للدفاع عن البلاد وكانوا جميعا من الفرسان. أما نظام المشاة فلم يعرفه الممالك وكان محتفرا فى نظرهم غير أنهم كانوا يأخذون معهم الى الحرب عددا كبيرا من الخدم المصريين يقومون بحاجاتهم وحاجات خيولهم . وإذا خرجوا للحرب لم يتبعوا قوانين خاصة بل اعتمدوا على الكر والفر السريع وعلى النزاع





قاعة استقبال داخل بيت أحد كبراء المسالك

الفردى . وكانوا كفـرسان أوربا فى العصور الوسطى اذا أعوزتهم الحروب الحقيقىة فى الداخـل أو فى الخارج لـجئوا الى حفلات يقيمونها فى المواسـم والمواسـم للسابقات الرياضىة والتزال الفردى مستعملين العصى الطويلة بدلا من الأسلحة والمزاريق .

مساكنهم :

وكان الممالك يسكنون قصورا نفمة منسقة تنسيقا بديعا تتجلى فيه آثار الصناعة العربىة الدقيقـة، يراها الناظر من الخارج فلا يـأبه لها حتى اذا دخلها وجد لها فناء واسعا تحيط به أشجار الفاكهة ومختلف الأزهار والعطور وتجـرى فى عرصاته جداول الماء فيهب من فوقها النسيم رطبا حتى فى أشد ساعات القيظ ، أما الأثاث والرياش والمأكل والمشرب وموائد الطعام والجوارى الحسان ، فكانت مضرب الأمثال من حيث الوفرة وحسن التنسيق والجمال .

حال الفلاح :

مثل هذه العيشة عيشة البذخ والترف والنعيم التى كانت تكلف الواحد من بكوات الممالك ٢٥٠٠ جنيه كل سنة على المتوسط جعلتهم يبالغون فى ظلم واضطهاد الفلاحين من أهل البلاد الذين صاروا كرقيق الأرض ليس لهم حقوق أمام ساداتهم الممالك بل جل عملهم أن يدبروا الثروة اللازمة لتهيئة أسباب النعيم والرفاهية للمالك وكانوا كلما ساءت الحال الاقتصادية فى البلد وزاد فقر الفلاح زادوه ظلما وقسوة وعدوانا ، وكلما اشتبهوا فى ثروة واحد منهم عذبوه حتى يبتروا منه آخر قرش ادخره . ومعنى ذلك أن ثمانية آلاف من الممالك (وعددهم كان يتراوح بين ٨٠٠٠ و ١٢٠٠٠) كانوا يتحكمون فى رقاب مليونين ونصف مليون من السكان ويستغلون ثروتهم ويستعبدونهم لأجل مصالحهم الخاصة ، وبدلا من العمل على انماء ثروة البلاد ومواردها عمل الممالك على نقصها وافسادها ولا غرابة

في ذلك فالممالك جماعة لم تربطهم بالبلاد روابط وطنية أو أسرية لأنهم اعتمدوا على ما كانوا يتاعونه من الرقيق ولم يصاهروا الأهالي . زد على ذلك أن شغفهم بالحروب وأعمال القروسية وعدم ملائمة الجولاء أكثرهم قد ساعد على تقصير أعمارهم وعدم بقاء أسراتهم طويلا في البلاد . لذلك لم يرحموا أهل البلاد ولم ينظروا في مصلحة أحد سوى ارضاء ملاذهم وشهواتهم .

لذلك ساءت حال الفلاح وتناوبت المجاعات والأوبئة إذ كان قوام طعامه الذرة وقليل من البصل ، ولا يلبس سوى قميص من القطن أو الكتان ويسكن في أكواخ حقيرة قليلة المنافذ يعيش فيها هو وأسرته ومواشيه أضنك عيشة . ولولا جوع البلاد الصمعي وانتظام فيضان النيل الطبيعي وما عرف عن أمراء الممالك من الكرم لكان مصاب الفلاحين ونصيبهم من الحياة أدهى وأمر .

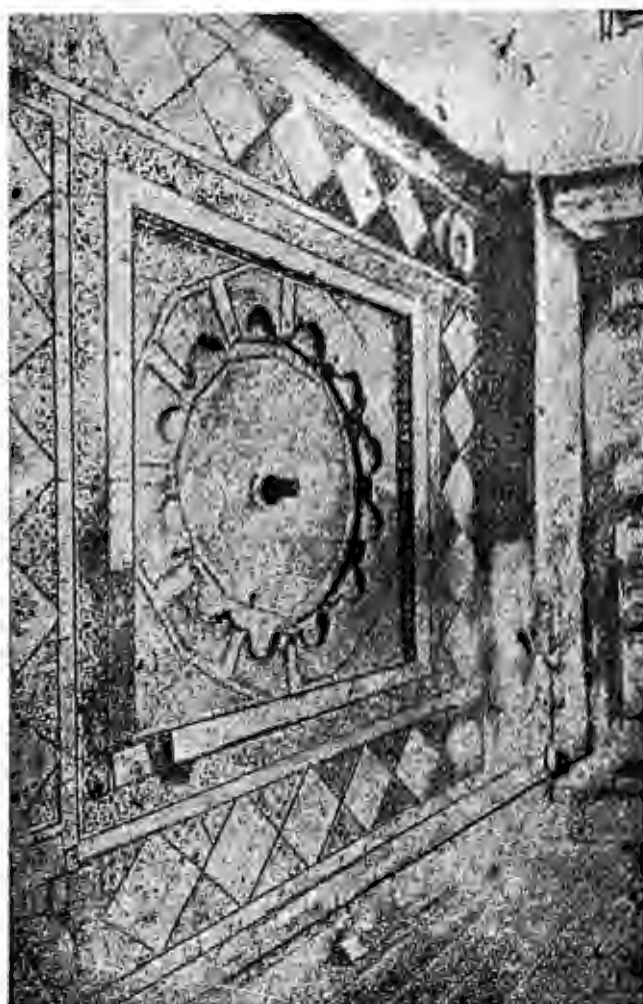
ومع ذلك وعلى الرغم من سوء حالة البلاد الاقتصادية استطاع الممالك أن يحتفظوا براكرهم وبقوتهم أكثر من قرنين بعد الفتح العثماني . ويرجع تفوق الممالك وبقاؤهم في مراكر قوتهم الى الأسباب الآتية :

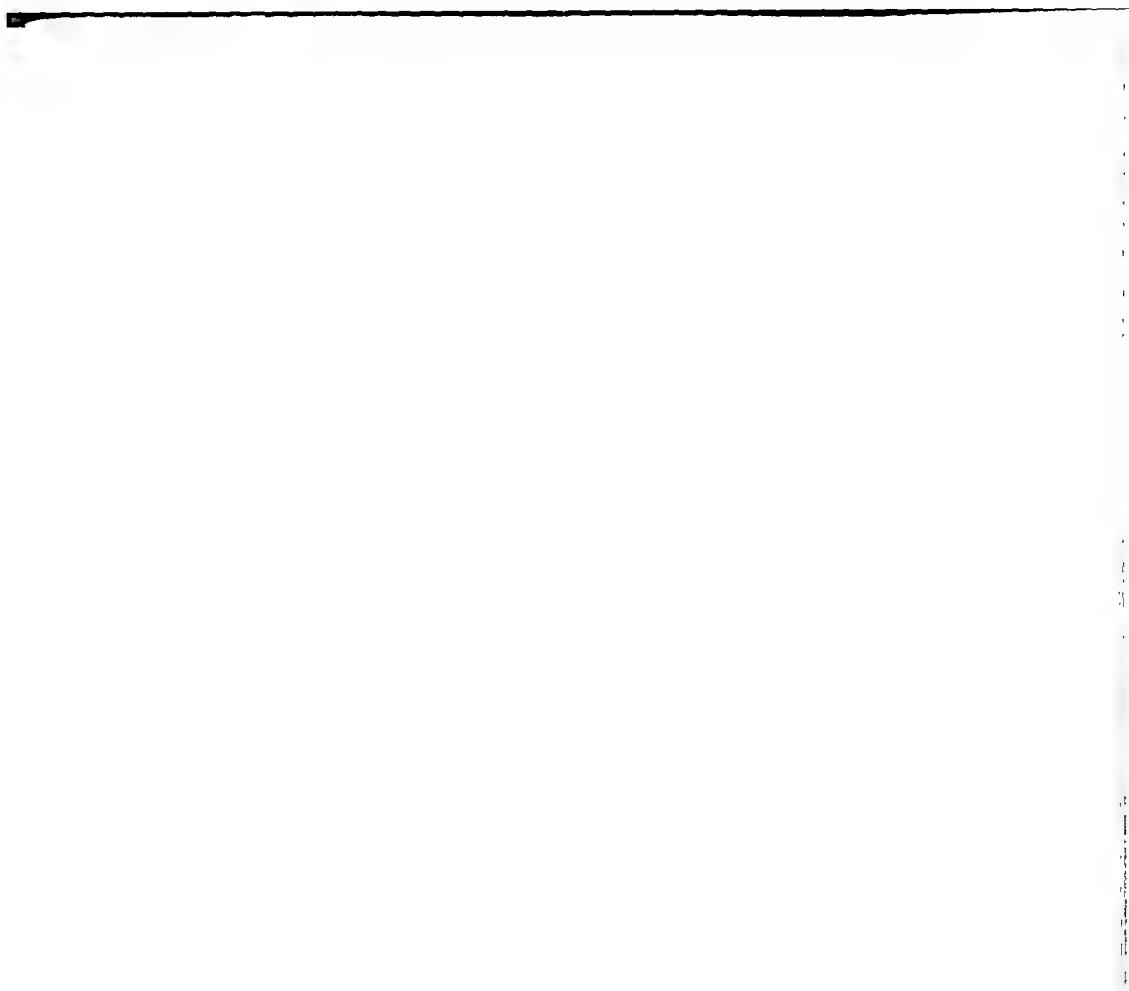
أسباب تفوق الممالك

١ - حيوييتهم :

إن الممالك كانوا العنصر الحي القوي في البلاد دون العناصر والهيئات الأخرى ، فقد رأينا أن سلطة الوالي والجيش قد تدهورت وانحطت وأن الأهالي لم يكونوا سوى آلات مسخرة لجمع الثروة في خزائن الممالك ، ويظهر أن الممالك بسبب شغفهم بالحرب والنزال قد حافظوا على حيوييتهم ونشاطهم وبذلك برهنوا على صدق نظرية القائلين بأن الحرب أعظم مساعد على بقاء واستمرار أصلح العناصر وأقواها .

نافذة وسط بيت من بيوت أمراء الماليك





٢ — عصبيتهم :

ولا ننسى قوة عصبية الممالك فانهم لم يندمجوا في المصريين كغيرهم من الشعوب ، بل ظلوا محتفظين باستقلالهم الجنسي دائبين على ملء صفوفهم بشراء الرقيق وتدريبه . ثم انهم وحدوا قواتهم برياسة زعيمهم شيخ البلد أو حاكم القاهرة ، وكانوا على الرغم من منازعاتهم وحروبهم الحزبية قوة واحدة في وجه العدو المشترك كالأتراك وغيرهم من الأجانب .

٣ — اتصالحهم بالأهالى :

أضف الى ذلك أن الممالك كانوا أكثر الهيئات اتصالا بأهل البلاد وعاداتهم وعلماء بلغتهم وحيلهم ، وانهم لذلك كانوا أعرف الناس بحكم داخلية البلاد ، وكان كثير من الممالك على درجة عظيمة من التفقه في اللغة والشريعة والدين .

٤ — ضعف تركيها :

ثم ان هناك سببا لولاه ما استطاع الممالك أن يجمعوا السلطة في أيديهم وذلك أن حالة الدولة في الداخل والخارج قد حالت دون ارسال الحملات الكفيلة باسترجاع نفوذ الباب العالي .

ظهور على بك الكبير وإعلان الاستقلال :

وليس أدل على عظم قوة البكوات الممالك في ذلك العهد من ظهور "على بك الكبير" الذى صار في سنة ١٧٥٧ شيخا للبلد ثم مالبث أن أدرك الحقيقة الواقعة ، وهى أنه ليس للعثمانيين ما يبرر وجودهم في البلاد وأن الممالك هم أصحاب السلطة الحقيقية ، فعمل على اخراج الفكرة الى عالم الوجود ، بفعل يزيد في اتباعه ويستميل البكوات اليه حتى استطاع

في سنة ١٧٦٦ أن يعان استقلاله فأرسل الباشا أو والى الى القسطنطينية وامتنع عن دفع الجزية وسك النقود باسمه واتخذ لنفسه لقب "سلطان مصر" مجدداً بذلك عهد المماليك الأول . ورأى على بك أن يقوى جانبه وخاصة من الناحية المعرضة لهجوم الأتراك فاتخذ مع "شيخ ضاهر" أمير عكا وبفضل هذا التحالف أمكنه أن يصد القوات العثمانية التي كان يجمعها ولاية سوريا بأمر السلطان ضد على بك ، ولما أمن جانب العثمانيين انتهز فرصة اشتغال تركيا بحروبها في أوروبا فوجه عنايته الى اصلاح حال حكومته ، فعنى بالتجارة الخارجية وسهل مواصلاتها ، وأزل الرعب في قلوب عربان الصحراء فانتشر الأمن وحصل على المال اللازم لاعداد جيوشه وحملاته .

فتوحاته :

وكان على بك يعلم ما ينتاب الدولة العلية حينئذ من الحن والبلوى في الداخل والخارج . وانها لذلك لا تقوى على ارسال حملة الى مصر في وقت انخبط فيه سمعة تركيا الحربية أمام قوات النمسا وروسيا وبولونيا ، فجهز على بك حملة احتلت "العين" وأخرى احتلت "جده" و"مكة" ولم تمض ستة شهور حتى خضعت شسبه جزيرة العرب وامتدت سلطة "على بك" على سواحل البحر الأحمر وتجارته وصارت جدة مركزاً تجارياً هاماً . واستحق على بك لقب "سلطان مصر وخاقان البحرين" .

وفي سنة ١٧٦٩ أعد لفتح سوريا قوة تبلغ ٤٠٠٠٠ رجل من هؤلاء ٥٠٠٠ من فرسان المماليك و ١٥٠٠٠ من البدو وعين لقيادتها أحب أتباعه اليه محمد بك المعروف "بابي الذهب" . وكان غرضه من هذه الحملة ضمان سلامة ملكه وتأمين حليفه "الشيخ ضاهر" ضد تعدى قوات السلطان ومهد على بك الطريق لفتوحه في سوريا بتوثيق العلاقات وإحكام الروابط بينه وبين أعداء تركيا مثل الروس والبنادقة .

حملته في سوريا :

ولما دخلت جنود على بك في سوريا انضمت اليه قوات الشيخ ضاهر، وسرعان ما استولت على غزة ونابلس والقدس ويافا وصيدا، ثم حوصرت "دمشق" بضعة أيام وأخيرا سلمت ، وكان هذا النصر منتهى ما وصلت اليه قوة على بك اذ استطاع الأتراك أن يعوضوا من خسارتهم في الحرب تفوقهم في السياسة والدسيسة فاستمالوا الى جانبهم محمد بك أكبر قواد على بك ومنوه بتوليته حكومة القاهرة ، فعمل على كسب ثقة بعض المماليك وغادر الجميع سوريا بخفاة ودخلوا مصر قاصدين الصعيد وهناك استعدوا لملاقاة على بك ، ولما كان أكثر اتباع على بك قد انضم الى محمد بك لم يجد بدا من مغادرة البلاد الى "عكا" ثانية ، وهناك بدأ يجهز جيشا لاسترداد أملاكه فنجح في سوريا ثم قصد مصر .

وفاته :

وكان محمد بك قد أرصد له من يداهم في الطريق فوقع أسيرا وكانت صحته قد تأثرت كثيرا لشدة حنقه وغيظه فمات بعد أيام سنة ١٧٧٣ . وبعد على بك أكبر الشخصيات التي ظهرت في ذلك الجزء المظلم من تاريخ مصر، وأعماله تعد سابقة لأعمال محمد على العظيم ، فلا غرابة اذن أن عرف اسمه في التاريخ "بالكبير" ، ولم يخلفه في مواصلة مشروعاته أحد من المماليك.

خلفاء على بك الكبير :

ولما مات على بك صار "أبو الذهب" شيخا للبلد وعادت سلطة الباب العالي الى ما كانت عليه فعادت الفوضى والأوبئة والمجاعات ولم يطل عهد أبي الذهب بل مات بعد عامين ، وتنازع ثلاثة من زعماء المماليك على مركز الرياسة بعده وهم البكوات "اسماعيل" و "ابراهيم" و "مراد" فاتحد الأخيران على الأول وأخذوا السلطة بيدهما وصارا يتناوبان مشيخة البلد وامارة الحج أى السلطين الادارية والحربية ، فكان ابراهيم بك عادة شيخ البلد ومراد بك أمير الحج وقائد الجند ، وجعلا يتنازعان ويسبئان حكومة البلاد حتى جاء الفرنسيون مصر سنة ١٧٩٨

الحالة الاقتصادية

أثر تحول طريق التجارة :

إن أهم حادث أثر في مصير البلاد السياسي والاقتصادي معا في مب العصور الحديثة هو تحول طريق التجارة بين أوربا والشرق الى طرف رأس الرجاء الصالح الذي كشفه " فاسكوديه جاما " البرتغالي سنة ١٤٨٠ . بعد أن كشف " كولمب " طريق الدنيا الجديدة ، فأحدث هذا الاستكشافان انقلابا ذا شأن في عالم التجارة اذ انتقل المركز التجارى العالم من حوض البحر الأبيض المتوسط الى المحيط الأطلسى وكان لهذا الانتق أسوأ أثر في تجارة الدول التى تمس سواحلها البحر الأبيض المتوسط كالهند ومصر .

وكانت مصر قد وصلت في العصور الوسطى وهى التى تنتهى باتهم القرن الخامس عشر الى درجة عظيمة من الثروة والرق في جميع شؤونها . كانت أوربا في ذلك الوقت في حالة جهل وجمود عظيمين ، فقد خلف أصحاب الأمر في مصر حينذاك آثارا بديعة من نماذج الصناعة العربية تد على ما كان لهم من وفرة المال وعظيم الجاه ، وما ذلك الا لأن مواد ثروتهم لم تكن مقصورة على ما كانت تنتجه أرض مصر من المحصولات الزراعية بل كانت خزائهم تفيض بأموال الأجانب من تجار " البندقية و " جنوه " الذين كانوا ينقلون متاجرهم من الشرق الى أوربا ويدفعو عنها ضرائب ونفقات مختلفة كانت سببا في إثراء الحكومة والأهالى معا وكانت مصر حينذاك قابضة على طريق التجارة بين الشرق وأوربا : طريق نهر الفرات وحلب واسكندرونه ومنها الى أوربا ، وطريق البحر الأحمر والسويس ومنها بطريق القوافل الى القاهرة ثم على السفن في فرع رشيد الى قرب الرحمانية على النيل ومنها الى الاسكندرية إما بطريق التربة التى

كانت توصل بين النيل والاسكندرية ثم انسدت وبطل عملها واما على ظهور الدواب . ومن الاسكندرية تنقل الى موانى ايطاليا ومنها الى ممالك أوربا المختلفة .

فلما تحول طريق التجارة من مصر الى رأس الرجا الصالح حرمت مصر من مرور تجارة الشرق ونضبت منابع الثروة التى كانت تفيض عليها وتملا خزائنها ذهباً وفضة ، تلك الثروة التى ظهرت آثارها فيما خلفته دولة المماليك فى مصر من مختلف الآثار البديعة مما دعا الناس الى القول بأن مصر يومئذ كانت مهد حكاية ألف ليلة وليلة .

وأراد البرتغاليون فى ذلك الوقت أن يحولوا دون استعادة مصر مركزها التجارى ففكر المستكشف البرتغالى الشهير "البوكرك" Albuquerque فى مشروع شيطانى يقضى بتحويل مجرى النيل حتى يصب فى البحر الأحمر لا الأبيض المتوسط وحاول الغورى سلطان المماليك فى مصر فى ذلك الوقت بالاتفاق مع البنادقة القضاء على قوة البرتغال الاستعمارية فى الشرق بجمعوا أسطولا حاربوا به فى البحر الأحمر فانتصروا فى أول الأمر ثم دارت عليهم الدائرة وانهمزموا انهزاما حاسما فى موقعة "ديو" أمام ممباى سنة ١٥٠٩ ، وبهذه الموقعة تقوى مركز البرتغال فى الشرق ، وبدأت الدول الغربية التى تمس سواحلها المحيط الأطلسى تبني نفوذها التجارى والاستعمارى فى الشرق . أما مصر فأخذت تضعف تدريجا حتى أصبحت اىالة عثمانية سنة ١٥١٧ وظلت بعد ذلك نحو ثلاثة قرون فى تأخر وعوز اقتصادى عام مما جعل عهد العثمانيين من أنكد عصور التاريخ فى مصر .

ولما ضعفت صلات مصر بالخارج ولم يعد لمصر ذلك المركز التجارى الهام ، ولم تعد البلاد تنتج للأسواق الخارجية كثيرا بل اقتصرت فى إنتاجها على قدر حاجات أهلها وساداتها المماليك وقف دولاب العمل وقلت موارد البلاد وصارت الحكومة فى حاجة زائدة الى المال تجنيه أو تصادره من الملاك والتجار الوطنيين والأجانب الذين يجرون على احرار الثروة ، وكثيرا ما كان يشتد العوز فى البلاد وتهدهدها المجاعات والأمراض من حين الى

أنحر لعدم عناية الممالك بشؤون الزراعة ، وهى المورد الوحيد لثروة البلاد وبالمنافع العامة كتطهير الترعى وإقامة القناطر وتحسين طرق الري وتوزيع مياهه .

انحطاط الاسكندرية :

ولما كسدت التجارة انحط شأن الاسكندرية وصار سكانها لا يزيدون على ٨٠٠٠ نفس وقل عدد الأجانب فيها ، ومن بقى بها صار مهددا بتعدى الحكومة واضطهادها ، وساعد على اضمحلال الاسكندرية انسداد الترع التى كانت توصلها بفرع رشيد ، ووجود قرصان البحر بكثرة فى البحر الأبيض والبحر الأحمر ، وتعرض السفن فى ميناء الاسكندرية للرياح دون وجود أى موئل لها .

علاقات مصر التجارية :

وعلى الرغم من ذلك لم تبقى مصر دون تجارة خارجية ، فقد كانت بينها وبين تركيا وفرنسا والحبشة واليمن وبلاد العرب علاقات تجارية ، وقد قدر السائح الفرنسى "Volney" الذى سافر فى مصر وطبع سياحته سنة ١٧٨٧ قيمة تجارتها الخارجية أى قيمة صادراتها و وارداتها بمبلغ خمسة عشر مليوناً من الجنيهات وهو مبلغ عظيم لا يخلو من المبالغة ، أما أهم صادرات البلاد فكانت الغلال والأرز والصمغ والبن والشمع مما كان يرد إليها من السودان والحبشة الخ ، وأهم الواردات المنسوجات الصوفية والحريية والمعادن .

حالة الصناعة :

أما الصناعة فإنها تأخرت لنفس الأسباب التى أثرت فى الحالة الاقتصادية العامة ، وأصبحت مقصورة على عدد قليل من الصناعات الرائجة أهمها المنسوجات وصناعة السكر والزجاج ودبغ الجلود . وكانت القاهرة أهم مركز

صناعى فى القطر؁ وكان للصناعات نقابات تجمع بين أفراد الطوائف المختلفة ولكل حرفة شيخ مسئول أمام الحكام عن كل ما يطلب من أفراد طائفته فعليه جمع العوائد والأعطية التى تفرض على الصناع؁ وله أن يقضى بين المتنازعين من أفراد الطائفة وأن يراقب حالة السوق .

نظام الأرض :

أما نظام الأرض فى مصر فقد بقى كما كان منذ عصور الفراعنة اذ كانت الأرض ملكا للملك؁ والملوك هم الذين كانوا يولونها الأتباع؁ واستمر الحال كذلك الى أن جاء الفتح العثمانى فقرر السلطان سليم بعد أن مسح أراضي القطر أن الأرض ملك للسلطان بمعنى أن مالكيها له "حق المنفعة" أو الانتفاع بثمرها دون الأرض؁ أما الملاك فأصبحوا كأنهم مستأجرون تعود أملاكهم الى بيت المال بعد موتهم الا اذا اشترى ورثتهم الأرض من جديد بدفع مبلغ معين؁ لذلك عين السلطان موظفا خاصا بلقب الدفتردار لتسجيل جميع أراضي القطر وفرض على كل فدان من الأرض مساحة ٤٠٠ قصبة مربعة ضريبة معلومة .

الالتزام :

ولما كان الأتراك مسيطرين فى البلاد كانت الضرائب تصل الى الديوان من غير صعوبة؁ فلما لم يصبح لموظفى السلطان أقل نفوذ داخل البلاد وعجزت الحكومة عن تحصيل المال المطلوب لجأت الى طريقة "الالتزام" وقد انتشرت هذه الطريقة فى منتصف القرن السابع عشر ولو أنها لم تكن مجهولة قبل ذلك .

"والالتزام" أن يتكفل من يشاء من أكابر البلاد سواء أكانوا من المالك أم الأتراك أم التجار بتحصيل الخراج للحكومة فى قرية واحدة أو فى عدة قرى بالاتفاق أو بالمزايدة؁ فيدفع الملتزم للخزانة مال سنة واحدة

معجلاً ثم تترك له حرية التصرف في دائرة التزامه ، وللملتزم أن يحصل على صك الالتزام من "شيخ البلد" أو كبير أمراء المالك . وكان الالتزام في بداية الأمر يعطى لمدة محدودة ولكن آل الأمر إلى إعطائه لآخر العمر وللملتزم أن يبيع التزامه إذا شاء بشرط إخطار "الرزنامة" أو بيت المال وشيخ البلد . وإذا مات الملتزم ورثه في دائرة التزامه أبنائه أو من يوصى لهم فإذا لم يكن له وارث رجعت أراضيه إلى بيت المال ، وعلى كل حال كان على الوارث أو الموصى له أن يطلب ترخيصاً بالالتزام بعد دفع مبلغ معين وبذلك صار للالتزام صفة شبه وراثية قانونية لمعظم أراضى القطر التى صار كل جزء منها مربوطاً باسم أحد الملتزمين على الرغم من أن أصحاب الأرض من الفلاحين كان لهم حق الانتفاع بأرضهم وحق التصرف فيها نظرياً .

وبفضل صك الالتزام أو "النميقة" التى كانت تحول للملتزم حق التصرف فى القرى التى بمقتضاها صار على الأعيان والمشايخ أن يساعدوا الملتزم فى تحصيل الضرائب حل الملتزم محل الحكومة فى دائرة التزامه وصار مطلق التصرف فى معاملته للفلاحين وخاصة فى القرن الثامن عشر حين حلت الفوضى محل الحكومة فى إدارة البلاد فكان الملتزم يعين مشايخ القرى والمباشرين من الأقباط لأجراء الحساب اللازم . وكان للملتزم فوق التزامه من الأرض أراض خاصة له تعرف بأرض "الوسية" وكانت معفاة من الضرائب مقابل ما يقوم به الملتزم من التكاليف وتقوم بفلاحتها القرية بطريق السخرة .

أرض الوقف :

على أن جزءاً عظيماً من الأرض كان موقوفاً على المساجد والأعمال الخيرية ويعرف بأراضى الوقف وهى التى لا يجوز فيها التصرف بالبيع ، وكانت معفاة من الضرائب ، وبسبب اضطراب الأمن وخوف أصحاب الأملاك من عبث العابثين بها بعد وفاتهم زادت هذه الأراضى زيادة عظيمة ووصل

الحال الى أن خيف أن تصبح أرض مصر كلها موقوفة ، فاشتطت الحكومة أن لا يتم وقف الا باقرارها ، وكان معظم هذه الأراضى الواسعة في يد كبار العلماء يستغلونها كما لو كانت أملاكهم الخاصة .

الضرائب :

وكانت ضريبة الخراج أو "الميرى" التى يجمعها الملتزمون إما نقدا وإما من نفس المحصول وتقسم ثلاثة أقسام : قسم لبيت المال ويعرف "بالميرى" وقسم للسجن أو للكاشف ويعرف "بالكشوفية" ، وقسم يبقى للملتم باسم "الفائض" وكانت "الجزية" ترسل من مال الميرى وتقدر باثنى عشر ألف كيس فى كل كيس خمسة جنيهاً مجدية (أربعة مصرية) ولم يكن المالك حريصين على ارسال الجزية بانتظام فى الجزء الأخير من الحكم العثمانى بل كانوا أحيانا يوقفون ارسالها وكثيرا ما كانوا يتحلون الأعذار لاتقاصها كتطهير الترع وبناء القناطر وهى أعمال كان المالك يمولونها تماما وكان الملتزمون يتعسفون فى جمع الضرائب ويهقون الفلاح الذى كان عليه دفع الجزء الأكبر من الضرائب ارهاقا دعا الفلاحين الى هجرة أراضيهم .

الحالة الفنية والعلمية

إذا أردنا أن نعرف مبلغ التأثير الذى نشأ عن تحول طريق تجارة الشرق من مصر فى الحالة الفنية فما علينا الا أن نوازن بين الآثار التى خلفها سلاطين الممالك وبين الآثار المخلفة من عهد العثمانيين ، فالأولى تنم عن ثروة وقوة وذوق ومهارة ، وأما الثانية فتدل على مالحق البلاد من نقص فى الثروة وانحطاط فى الصناعة . وأكثر ما نشاهده فى القاهرة من الآثار العربية التى تزدان بها القاهرة هو من آثار دولة الممالك البحرية والشراكسة ، ومن أبدع نماذج ذلك العصر مساجد السلطان حسن والمؤيد وبرقوق وقلاوون وكلها تنبئ عن عظمة داخل البناء وخارجه ودقة فى الصناعة وجمال فى الزخرفة والبناء .

المباني :

أما المباني في العصر العثماني فكان الغالب فيها النمط البوزنطى وقد نقله الأتراك عن الأغريق، وأهم مظاهره القباب التي صارت أهم مميزات المساجد في ذلك العصر بعد أن كانت القباب رمزا للأضرحة من قبل ومن مظاهره أيضا استعمال "القاشاني" وهو نوع من الفخار مكسو بطلاء أبيض أو ملون عليه رسوم هندسية أو نباتية . ومن مظاهره المنائر الأسطوانية والسبل التي كانت تبني عادة منفصلة وفوقها المكاتب وأحيانا تابعة للمساجد .

وعلى العموم فلت مساحة المساجد عما كانت عليه وذلك مراعاة للاقتصاد بسبب سوء الحالة كما قلت الدقة في الصناعة أيضا . على أن هناك آثارا عثمانية جميلة بنيت في العهد العثماني كسبيل خسرو باشا بالنحاسين والمباني التي جددتها أو بناها الأمير "عبد الرحمن كتخدا" ومنها تجديد بناء الأزهر والسبل والمكاتب الواقعة قرب مسجد السيدة زينب وفي درب الجمايز .

الحالة العلمية :

أما الحالة العلمية والأدبية فقد تأثرت أيضا كغيرها وصار العلم مقصورا على ما كان يعلم بالأزهر من الموضوعات وأهمها القرآن الكريم والعلوم العربية والشرعية ، والمنطق والجدل وعلم الكلام وقد ينبغ من بين المشايخ أحيانا من يكتب النثر ويقول الشعر وأكثره كلام مقفى لا أثر فيه للعاني المبتكرة أو العواطف النفسية والانسانية . وإن الانسان لتتولاه الدهشة حين يقرأ شيئا لمشايخ الأزهر أو علمائه في ذلك الوقت اذ ترى فيه نقصا ظاهرا وغلطا فاحشا في التعبير والتفكير .

منزلة العلماء :

أما الأبحاث والتجارب العلمية فلم تكن معروفة بالمرة بل ساد الاعتقاد بين الناس في التعاويذ والخرافات والخزعبلات والبدع مما لا يزال يملأ أذهان

العامة للآن، لذلك عظمت منزلة العلماء اذ لا بد أن يظهر للعالم قيمة مهما قل علمه مادامت البيئة تسود فيها الجهالة والسذاجة، فصار للمشايخ منزلة تشبه ما كان لرجال الدين في أوروبا في العصور الوسطى، أما مصادر تلك القوة، فأولها اعتقاد الناس في صلاح العلماء وتقواهم ومعرفتهم، ثم تظاهر العلماء وادعاءاتهم، وأخيرا ما كانوا فيه من الثروة الطائلة بسبب أراضى الوقف التي كانوا يقيمون نظارا عليها ويستغلونها كما لو كانت أملاكهم الخاصة، وهذا هو أهم أسباب قوتهم في ذلك العصر الذي كان فيه العلماء أهم عنصر يمثل البلاد ويتولى الكلام باسمها ويذود عن حقوق أهلها ويخطب وده الحكام سواء أكانوا عثمانيين أم مماليك، وسنرى شأن العلماء وما قاموا به من الأعمال في عهد الحملة الفرنسية وعهد محمد علي.



أسباب انصراف أوروبا عن مصر :

بعد أن عرفنا مبلغ درجة الضعف العام الذي كانت عليه البلاد لم يبق سوى مسألة واحدة وهي بحث الأسباب التي منعت أوروبا من توجيه سياستها الاستعمارية نحو مصر رغم ضعفها طول ذلك الوقت الى أن جاءت الحملة الفرنسية في نهاية القرن الثامن عشر.

أولا — ان دول أوروبا كانت مشغولة بتكوين مستعمرات في آسيا وأمريكا وهي الجهات التي كان يحصل منها الأوروبيون على كنوز عظيمة من الثروة من معادن نفيسة وأحجار كريمة وحرير وعطور وجواهر وبسط، فانصرف الأوروبيون عن الاهتمام بأمر أفريقية. وقد دب التنافس بين الدول عامة وخاصة بين فرنسا وإنجلترا بشأن امتلاك المستعمرات في آسيا وأمريكا فقامت حرب السنوات السبع ١٧٥٦ — ١٧٦٣ واشتركت فيها معظم دول أوروبا. ولما حاولت فرنسا في هذه الحرب أن تحتفظ بتفوقها في أوروبا علاوة على ما كان لها من المستعمرات مما دعا الى توزيع جهودها بين قوتها

البرية والبحرية أخفقت في الغرضين ، في حين أن إنجلترا وجهت اهتمامها إلى مستعمراتها وقوتها البحرية وساعدها مركزها الطبيعي على عدم الاهتمام بقوتها البرية فانتصرت في النهاية على فرنسا التي فقدت كل مستعمراتها وراء البحار ولم يبق لها سوى بضع جزائر وعدد من المحطات التجارية . أما دولة فرنسا الاستعمارية التي تملكها الآن فقد تكونت في القرن التاسع عشر وأكثرها تكون في النصف الأخير منه .

ثانياً — أن دول أوروبا كانت تخشى فتح باب المسألة الشرقية لاختلافها فيما بينها على توزيع أملاك "الرجل الضعيف" وخاصة فيما يتعلق بالبوغازات والبلقان فكانت الدول تعلن بين حين وآخر رغبتها في حفظ كيان الدولة وعدم مس أجزاءها حتى لا يتسبب عن ذلك ضعف تركيا ضعفا يغري بها روسيا فتنفذ إلى البحر الأسود ومنه إلى البحر الأبيض وتعرقل مصالح الدول ذات الشأن كأنجلترا أو فرنسا والنمسا فلا يبعد أن تنشب حرب أوربية عامة على أثر ذلك .

لذلك لم يكن من السهل من الوجهة الدولية أن تمتد يد فرنسا مثلاً إلى مصر دون أن تكون موطنه النفس على إثارة حرب ضروس بينها وبين الدول . على أن الدول ما كانت تحجم عن الانتفاع بالفرص السانحة فتزدرى بتصرّياتها النظرية وتنقص الدولة من أطرافها ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً .



الفصل الثانى

مشروع الحملة الفرنسية على مصر

حملة سان لوى :

العلاقات بين فرنسا ومصر قديمة ترجع الى أيام الحروب الصليبية حين خرج ملك فرنسا المحبوب "سان لوى" أو لويس التاسع فى حملته الصليبية على مصر ١٢٤٨ - ١٢٥٢ وهى التى انتهت بهزيمة لويس ومن معه من الفرنسيين عند "المنصورة" و"دمياط" وأخذ لويس أسيرا ولم يفك أسره إلا بعد دفع دية عظيمة من المال وذلك فى عهد الملك "الصالح أيوب" وابنه توران شاه ، وعلى الرغم من انهزام الفرنسيين واندحار نحو ثلاثين ألفا منهم فإن الحملة وارتباطها باسم الملك "القديس لويس" قد تركت أثرا نفسيا دينيا لا يمحو من أذهان الشعب الفرنسى .

معاهدات الامتيازات :

ثم تقوت مصالح فرنسا فى مصر وغيرها من أملاك الدولة العثمانية عند ما تعاقد الملك "فرنسوا" الأول مع السلطان "سليمان القانونى" فى سنة ١٥٣٥ ضد الامبراطور شارل الخامس وكانت هذه أول معاهدة بين تركيا واحدى الدول الأوروبية فنال الفرنسيون منذ ذلك الوقت فى أملاك الدولة مركزا خاصا ممتازا دعا غيرهم من الأجانب الى التشبه بهم ، فعقدوا مع تركيا معاهدات مشابهة للمعاهدة الفرنسية . وتعتبر التسهيلات والاعفاءات التى نالها الفرنسيون وغيرهم بفضل هذه المعاهدة أساسا للامتيازات الأجنبية التى كان المقصود منها أولا حماية الدولة لرعايا الدول صاحبة الامتيازات لا حقوقا مكتسبة يتمتع بها الأجانب على حساب الدولة صاحبة الحق كما صارت الحال عند ما بدا ضعف الباب العالى وحكومته .

وكما أن معاهدة سنة ١٥٣٥ قد كدرت أوروبا من فرنسا لاتفاقها مع السلطان ضد الامبراطور فانها أ كسبت فرنسا في أنحاء الدولة امتيازات أدبية وسياسية ودينية لا يزال أثرها باقيا للآن فقد كانت فرنسا الى زمن قريب تعتبر حامية للشعوب الكاثوليكية في الشرق الأدنى .

مشروع ليبنتز :

وفي سنة ١٦٧٢ حينما كان لويس الرابع عشر يحارب هولندا الصغيرة ويعاقبها جزاء معارضتها لمشروعاته جاء "ليبنتز Leibnitz" أحد الفلاسفة الألمان ، وكانت له شهرة ذائعة في أوروبا بمشروع يقترح فيه على لويس إعداد حملة للاستيلاء على مصر بدلا من محاربة هولندا في ديارها مبينا أن هذا هو السبيل الوحيد للنيل من هولندا التي كانت أولى الدول استعمارا في الشرق. غير أنه لما كان غرض لويس من محاربة هولندا هو تفوق فرنسا في أوروبا أهمل مشروع "ليبنتز" وزج بنفسه في حروب أوربية طاحنة . على أن الحكومة الفرنسية ما فتئت تذكر مشروع أخذ مصر طول القرن الثامن عشر وخاصة كلما ظهرت مطامع روسيا في عهد "كترين الثانية" وضمت لنفسها جزءا من أملاك الدولة ، فكانت فرنسا تريد أن تحصل على مصر حتى يتم التوازن بينها وبين روسيا ، وقد عثر "تاليرند" و "نابليون بونابرت" عند ما فكرا في مشروع الحملة أثناء أبحاثهم في سجلات الحكومة على مشروعات ونخراط عدة خاصة بالاستيلاء على مصر .

وفي سنة ١٧٧٧ زار مصر "البارون ده توت Baron de Tott" وغرضه الظاهري القيام بأبحاث علمية وفلكية للجمع العلمى ولكنه في الحقيقة كان مكلفا أن يقوم باستطلاعات حربية ، وباختبار حالة السواحل والقلاع الواقعة على البحر الأبيض المتوسط ومعرفة أعماق الماء في الموانئ ، كما أن الحكومة الفرنسية أرسلت ضابطا آخر لمثل هذه الأبحاث في البحر الأحمر ، ثم وقفت المسألة ولم تتقدم كثيرا بسبب تدخل فرنسا في حرب الاستقلال الأمريكي وأخيرا بسبب الانقلاب العظيم الذي أحدثته الثورة الفرنسية .

رحلة قلنى :

على أن فكرة الاستيلاء على مصر ظلت قائمة بسبب ما كان يكتبه بعض الرحالة الفرنسيين الذين زاروا مصر في ذلك الوقت ، ومن هؤلاء " قلنى Volney " الذى نشر رحلته سنة ١٧٨٧ فذكر سهولة فتح مصر وضعف مركز المماليك فيها وجهلهم بطرق الحرب الحديثة بحيث لا تتطلب الحملة سوى عدد قليل من الرجال . وقال يصف الاسكندرية :

"انه ليس في المدينة سوى أربعة مدافع في حالة صالحة وليس بين الحامية الذى يبلغ عددها خمسمائة من يمكنه إصابة المرمى بل جميعهم من العمال العاديين الذين لا يحسنون سوى التدخين " ومما قاله أيضا : " ان الاستيلاء على مصر يجب أن يكون محور السياسة الفرنسية " .

مكتابات مجالون :

على أن " مجالون Magallon " قنصل فرنسا في الاسكندرية ما فتئ يكتب حكومته في هذا الشأن ويكرر الشكوى من مراد بك و ابراهيم بك صاحبي الأمر في مصر ويحجذ للحكومة فكرة إرسال حملة الى مصر ، ويذكر ما يمكن أن تعود به على فرنسا من وافر الخير وعظيم القوة حتى أن "مجالون" رأى من واجبه أن يحضر بنفسه الى فرنسا سنة ١٧٩٦ حتى يعرض الحالة أمام "حكومة الادارة" وكانت العلاقات التجارية بين فرنسا ومصر لا بأس بها وقد قدر " قلنى " مجموع الصادرات والواردات بنحو خمسة ملايين من الجنيهات ، وهذا مبلغ لا يستهان به بالنسبة الى قيمة النقود في ذلك الوقت .

نابليون وصالح كمبوفورميو :

ولما بدأت الحالة تستقر نوعا في فرنسا في عهد حكومة الادارة وانتصرت على أعدائها وعقدت صالح " بال " مع بروسيا وأسبانيا سنة ١٧٩٥ ولم يبق

من الحلفاء ضد فرنسا سوى النمسا وانجلترا عهدت حكومة الادارة الى نابليون في مهمة محاربة النمسا في ايطاليا فعبر نابليون جبال الألب ودخل ايطاليا منتصرا في عدة وقائع واضطرت النمسا الى الجلاء عن شمالي ايطاليا. فكثرت نابليون جمهوريات الألب وليغوريا على نسق جمهورية فرنسا وسقطت جمهورية البندقية ولما بدأ نابليون يطارد النمسا في ألمانيا عقدت صلح "كوبنهورميو" سنة ١٧٩٧ أول صلح مشرف للثورة ورجالها. ومن بعض شروط هذا الصلح التي أصر عليها بوناپرت يتجلى الغرض الذي كان يرمى اليه هو وحكومة الادارة معا بشأن تقوية النفوذ الفرنسي في البحر الأبيض المتوسط.

فانه لما أراد تقسيم أملاك جمهورية البندقية بين فرنسا والنمسا ثما لتزول الأخيرة عن الأراضي المنخفضة لفرنسا أصر نابليون على أن تحتفظ فرنسا بجزائر الايونيان "كورفو" و"زنطة" و"كفالونيا" حتى تتخذ فرنسا من هذه الجزر قواعد تجارية بحرية تبني عليها تفوقها في البحر الأبيض المتوسط وتكون لها بمثابة محطات ذات شأن في طريق فرنسا الى الشرق.

وكتب "تاليرند Talleyrand" أحد أعضاء حكومة الادارة ومدير الشؤون الخارجية الى نابليون بتاريخ ٢٦ أغسطس سنة ١٧٩٧ يؤيد خطته في الشرق ويزيد عليها بقوله: "يجب أن تكون علاقاتنا ودية مع ألبانيا واليونان ومقدونيا وجميع ولايات الدولة العثمانية في الشرق بل مع جميع الشعوب التي تلمس سواحل البحر الأبيض المتوسط وخاصة مثل مصر التي قد تصير يوما ما ذات منفعة عظيمة لفرنسا".

ومن ذلك الوقت أخذ نابليون يدرس ويبحث في أمر الحملة على مصر وجعل ينقب في سجلات وزارة الخارجية بمعاودة "تاليرند" باحثا عن التقارير والخرائط والمشروعات التي قدمت للحكومة في القرنين الماضيين بخصوص الاستيلاء على مصر.

أسباب الحملة :

تتلخص أهم الأسباب التي أدت الى قيام الحملة فيما يأتى :

(١) مهاجمة إنجلترا في الشرق وقطع طريق الاتصال بينها وبين مستعمراتها .

(٢) تكوين مستعمرة فرنسية في مصر تعوض على فرنسا ما فقدته في القرن الثامن عشر وفتح ميادين جديدة لتجارة فرنسا .

(٣) كشف مصر علميا وادخال مبادئ المدنية الحديثة .

أما عن السبب الأول : فان أكبر معضلة واجهت حكومة فرنسا و نابليون في كفاحها مع إنجلترا التي بقيت بمفردها في حالة حرب مع فرنسا بعد أن خرجت النمسا بمقتضى صلح كمبرفورميو ، هي تعذر الوصول الى تلك البلاد لعدم وجود أسطول قوى يمكن فرنسا من التفوق في "بحر المانش" ولو لمدة وجيزة تستطيع فيها انزال حملة برية على سواحل إنجلترا . فلما رأى بوناپرت أن توجيه الاصابة الى قلب إنجلترا غير ميسور فكر في قطع أوصالها وذلك بضررها في مستعمراتها إما بالاستيلاء على المستعمرات نفسها أو بقطع طريق التجارة بين إنجلترا وبين هذه المستعمرات أو بتأسيس مستعمرات فرنسية جديدة تعادل من حيث شأنها ومواردها المستعمرات الانجليزية وخاصة الهند .

على ذلك رأت الحكومة الفرنسية أن استيلاء فرنسا على مصر يجعل أقصر طريق بين الشرق والغرب في قبضة فرنسا وأن بوناپرت في مصر يستطيع أن يتصل بقباثل "المهراتنا" بالهند أو "تبو صاحب" حاكم "ميسور" وغيرهما من العناصر الثائرة ضد الانجليز في الهند فلا يلبث النفوذ الانجليزي أن يتضعضع في الشرق ، زد على ذلك أنه اذا أضيفت مصر الى دائرة نفوذ فرنسا في ايطاليا وجزر الايونيان لا يلبث أن يصبح البحر الأبيض المتوسط بحيرة فرنسية .

قال "تاليرند" في خطابه الى نابليون في ١٣ سبتمبر سنة ١٧٩٧ :

"ان مصر كطريق تجارى ستعطينا تجارة الهند لأن المعول في التجارة على الوقت ، وبلاستيلاء على مصر نستطيع أن نقوم بخمس رحلات مقابل ثلاث بالطريق المعتاد حول "الرأس".

أما عن السبب الثانى : فان فرنسا قد فقدت كل مستعمراتها في القرن الثامن عشر لمحاولتها الاحتفاظ بتفوقها في أوروبا زيادة على مستعمراتها وعلى ذلك أخفقت في الغرضين ، فلما جاء عام ١٧٩٧ وخرجت فرنسا متصرة من حروبها في أوروبا وظفرت بصلح "كبوفورميو" الذى ضمن لها تفوقها على "الرين" وعلى "الدانوب" بدأت تتطلع الى الاستعمار وأخذت تتحين الفرص لتعوض ما فقدته من مستعمراتها . ومما يدل على أن فرنسا كانت تريد تأسيس مستعمرة فرنسية بمصر ما أرسلته مع الحملة من علماء وصناع وعدد وآلات ومطابع ومترجمين . ولا تنس أن استيلاء فرنسا على مصر يفتح أسواقا جديدة للصنوعات الفرنسية ، فمن مصر تستطيع فرنسا أن تتصل بسوريا وبسواحل أفريقية الشمالية وبلاد العرب .

أما عن السبب الثالث : وهو تمددين مصر وكشفها علميا فان فرنسا ما فتئت تعلن في ذلك الوقت أنها مرشدة العالم والآخذة بيد الشعوب الى المدنية والحرية وانها حاملة لواء العدل والمساواة والاخاء ومنقذة الشعوب الضعيفة من ذل الجهل والاستعباد . فلا غرابة أن يكون هذا ضمن الأغراض الأساسية للحملة . ومن أجل هذا حضر أكثر من مائة عالم واختصاصى من كبار علماء فرنسا ليساعدوا "بونابرت" في أعمال البحث والتنقيب والانشاءات اللازمة لتكوين المستعمرة الجديدة ومما قاله "تاليرند" في ذلك : "انى أرى في الحملة موارد عظيمة لتجارتنا وكثرا وذخيرة للعلوم" . ومن الغريب أن الحملة قد أخفقت نهائيا في جميع أغراضها الا في هذه الوجهة فانها نجحت تماما مما دعا المؤرخين الى القول بأن الحملة الفرنسية على مصر كانت علمية أكثر منها حربية .

اسباب ثانوية :

وهناك أسباب نعتها في الدرجة الثانية من الأهمية، فمن هذه الأسباب أن همّة نابليون قد أبت عليه البقاء في فرنسا بعد "صلح كيبوفورميو" من غير عمل ، وخشى أن الشعب لا يلبث أن ينساه إذا لم يظهر أمامه بعمل عظيم. لذلك أخذ ينقب عن مشروع تتجلى فيه عبقريته ومواهبه فلم ير أمامه سوى الشرف مهذا لعطاء الرجال وميدانا لكبار الأبطال من قديم الزمان وكان نابليون يطمح أن يقلد الأسكندر فينشئ في الشرق دولة كدولته .

ثم ان نابليون رأى أن الفرصة غير سانحة للوصول الى قلب الحكومة في فرنسا وأخذ مقاليد الأمور بيده ، ورأى من الحكمة الابتعاد عن البلاد حتى تنهأ له الفرصة اذ لا يبعد أن تتألب دول أوروبا ضد فرنسا من جديد منتبهة غيابه ثم لا تلبث حكومة الادارة أن تنهزم أمام تلك الدول فيضج الرأي العام الفرنسي وحينئذ يعود نابليون الى فرنسا فيستقبله الشعب استقبال المنقذ للوطن ويسلمه زمام الأمور .

أما ما يقوله بعض المؤرخين من أن حكومة الادارة أرادت التخلص من بطش نابليون ونفوذه ففكرت في إبعاده عن فرنسا فردود لأنه لا يعقل أن تستغنى حكومة فرنسا بسهولة عن أمهر قوادها وخيرة جنودها وحالتها الدولية لم تستقر بعد لأن نابليون بونابرت لم يخرج لتلك الحملة بمفرده بل صحبه أقدر جنود فرنسا وأكبر علمائها ، وليس من الجائز أن توافق حكومة الادارة على كل هذا ارضاء لشهواتها الخاصة فتعرض بعملها ٣٠,٠٠٠ جندي لخطر الضياع في موقعة بحرية أمام انجلترا وتكسب لنفسها عداوة تركيا وانضمامها الى جانب الحلفاء ضدها . والحقيقة أن حكومة الادارة ترددت طويلا قبل صدور أمرها لنابليون بتجهيز الحملة بل انها بقيت مترددة للساعة الأخيرة قبل قيام الحملة ، ولولا همّة نابليون نفسه ومعاودة تاليرند ورغبة الجميع في خلق فرصة تمكن فرنسا من طعن انجلترا لوقف مشروع الحملة .

أسباب صورية :

وفضلا عن هذه الأسباب الثانوية فهناك أسباب صورية من نوع الأسباب التي تتذرع بها الحكومات عادة لتبرير موقفها ازاء القانون العام وأمام غيرها من الدول وخاصة أمام الدولة صاحبة الحق .

تظاهرت فرنسا أنها انما أرسلت الحملة لتأديب المماليك والاقتصاص منهم بسبب ما وقع على التجار والرعايا الفرنسيين في مصر من الظلم والمصادرة والاضطهاد في عهد ابراهيم بك ومراد بك بما دعا "مجالون" الى ارسال الشكوى الى حكومته .

كذلك ادعت الحكومة الفرنسية عقب قيام الحملة ووصولها مصر أن المماليك قد عصوا الباب العالي واستقلوا بالبلاد وعانوا فيها فسادا غير مراعىين في ذلك حقوق السلطان . ولما كانت فرنسا أقدم حليف لتركيا رأت حكومة الجمهورية مساعدة الباب العالي بالقضاء على فئة المماليك وتوطيد نفوذ السلطان بمصر وقد سعت حكومة الادارة في اقناع الباب العالي بهذا الغرض بكل الطرق فلم تفلح وسرعان ما أدرك السلطان أغراض فرنسا فاتحد مع أعدائها .



.



ناپليون بوناپرت

الفصل الثالث

نابليون في مصر

سرية مشروع الحملة :

اعتبرت الحكومة الفرنسية أمر هذه الحملة سرا مكتوما لم يعلم به أحد غير أعضاء حكومة الإدارة وبوناپرت ، حتى أن الرؤساء والمستغلين بتجهيز معدات الحملة لم يعلموا عن وجهتها شيئا نهائيا ، ولضمان المحافظة على سرية المشروع لم يستخدم الموظفون والكتاب في تحرير رسائل الحملة حتى أن رئيس الحكومة كتب أمر تعيين بوناپرت لرياسة الحملة بيده .

وفي جميع هذه المحررات الأولى لم تعين وجهة الحملة بالضبط بل كانوا يكتفون بذكر " حملة البحر الأبيض المتوسط " أو " الحملة الموجهة ضد إنجلترا " ، وبالفعل ظل هذا التكتم سائدا جميع الدوائر حتى أقفلت الحملة من فرنسا ولم يكن لأحد من رجالها علم بغرض الحملة الى أن اقتربت الحملة من المياه المصرية ، وماذا كان يهيم الضباط أو الجنود من غرض الحملة مادام نابليون على رأسهم وما داموا يعرفون تماما أن الحملة موجهة ضد إنجلترا .

والحقيقة أنه لو لم تراعى الحكومة هذا التكتم الشديد لتسرب أمر الحملة الى البحرية الانجليزية ولتعرضت الحملة في بدء سيرها لضربة قاضية من جانب الأسطول الانجليزي الذي كان شديد الرقابة في البحر الأبيض ولم تكتف الحكومة الفرنسية باحتفاظها بسر الحملة بل انها تظاهرت بعمل استطلاعات ومناورات في سواحل فرنسا الشمالية لتوهم الحكومة الانجليزية أن غرضها من الحملة إنما هو انزال جيوشها على سواحل إنجلترا الجنوبية أو على سواحل إيرلندة فينصرف نظر البحرية الانجليزية ولو قليلا عن البحر الأبيض .

خطة الأسطول الانجليزي :

وفعلا لما نشطت حركة الموانى الفرنسية وقف أمير البحر الانجليزي لورد سنت "فنسنت St Vincent" عند ميناء "قادس" ليحسن رقابة الأسطول الفرنسي عند خروجه من بوغاز "جبل طارق" قاصدا ايرلنده أو إنجلترا أو البرتغال أو جزائر الهند الغربية كما توهم الانجليز ، وليحول دون خروج الأسطول الاسباني واتفاقه مع الأسطول الفرنسي . ثم أنه أرسل أمير البحر "نلسن Nelson" ومعه ثلاث سفن لرقابة سواحل فرنسا وإيطاليا وجمع المعلومات عن الحملة ، فوصل الى "طولون" أول يونيه وكانت الحملة قد خرجت في ١٩ مايو سنة ١٧٩٨ ولم يعلم الأسطول الانجليزي عن أمرها شيئا فأرسل "سنت فنسنت" عشر سفن أخرى "لنلسون" لما تبين له خطأ انتظار الحملة عند "قادس" فأخذ نلسون يبحث عند السواحل الإيطالية حتى علم في ٢٠ يونيه من حكومة "نابلي" حليفة الانجليز أن الفرنسيين وصلوا جزيرة "مالطه" في ٩ يونيه ، فلما وصل اليها كان بونايرت قد غادرها مع حملته قاصدا الشرق متخذاً كل الطرق للهروب من رقابة نلسون ، كأن يسيّر محاذيا سواحل أفريقيا . أما نلسن فانه وصل الى الاسكندرية قبل وصول الحملة الفرنسية بثلاثة أيام ولما أبى "السيد محمد كريم" حاكم الاسكندرية أن يسمح لنلسون وسفنه الثلاث عشرة بالبقاء في الميناء انتظارا للفرنسيين سار شمالا قاصدا جزر الأرخبيل الأغريق .

سير الحملة :

أما الحملة فقامت بقيادة نابليون بونايرت في ١٩ مايو سنة ١٧٩٨ من ميناء "طولون" و"مرسيليا" ، بفرنسا ومن "جنوه" و"سقيثافيجا" و"أجاكسيو" من موانى إيطاليا وقورسقة تحمل أكثر من ثلاثين ألف نفس ويحرسها

عدد من السفن الحربية بقيادة أمير البحر "ده بروى De Brueys" (١) ومن أشهر القواد الذين صحبوا نابليون "ديزيه Desaix" و"كليبر Kléber" و"رينيه Reynier" و"كفارلى Caffarelli" و"موارات Murat" و"مينو Menon" ، وأشهر العلماء "منج Monge" و"برتليه Berthollet" و"ليبير Lepère" و"كنتيه Conté" .

احتلال مالطة :

ولم يشهد البحر الأبيض المتوسط مثل هذا العدد من السفن والرجال منذ الحروب الصليبية ، ولقد صادف هذه الحملة عند قيامها نجاح وتوفيق عظيمان إذ تمكنت من الإفلات من رقابة نلسون واستولت على جزيرة "مالطة" بدون كبير مشقة . وقد برر نابليون هجومه على الجزيرة بأن اتهم حاكمها وهو رئيس الرهبان فيها بأنه متفق مع قيصر روسيا وأنه كان يناوئ الثورة في فرنسا ، وأن السفن الفرنسية لم تكن تجرؤ على الدخول في ميناء مالطة الا اذا أخفت علمها الفرنسي ، ثم نزل في ميناء "لافاليت Lavalette" ومعه ثلاثة آلاف جندي في فجر ١١ يونيه ولم تمض ساعة من الزمن حتى احتل الفرنسيون جميع الأبراج وطاردوا الجنود في شوارع المدينة . وفي ١٢ يونيه اجتمع مفوضو رئيس الرهبان بيونابرت وسلموه المدينة والجزيرة وفي مقابل ذلك وعد نابليون أن يسعى في ايجاد امارة ألمانية لرئيس العهد تعوضه عما فقدته وأن يتسلم مؤقتا معاشا سنويا قدره ٣٠٠٠٠٠ فرنك الى أن توجد الامارة . وبعد أن نظم حكومة الجزيرة ترك فيها القائد "فو بوا Vowbois" حاكما على الجزيرة ومعه ثلاثة آلاف جندي وكان قد انضم الى الحملة ألفان من جنود مالطة .

(١) كان مجموع القطع الحربية في الحملة ١٣ سفينة حربية ، و ٩ من النوع المسمى فرقاطه (Frégates) ، و ١١ من النوع المسمى (Corvette) و ٢٣٢ سفينة نقالة . وأما عدد الرجال فكان ٣١٨٠٠ منهم ٢٤٣٠٠ من المشاة و ٤٠٠٠ من الفرسان و ٣٠٠٠ للدفعية . وأما عدد الخيول فكان ٦٨٠ فقط لاعتماد الحملة على ما يمكن الحصول عليه من مصر .

وفي ١٩ يونيه قامت الحملة بعد أن استولت على إحدى المحاط الهامة في طريقها من مصر الى فرنسا . ولما مرت الحملة بجزيرة " كريت " لم يعد غرض الحملة خافيا فأعلن الخبر للجند قبل الوصول الى الاسكندرية بلبلة .

وصول الحملة :

وفي أول يوليه ١٧٩٨ وصلت الحملة الى الاسكندرية وعلم نابليون لأول مرة أن نلسون ومعه ثلاث عشرة سفينة حربية قد زار الاسكندرية في ٢٨ يونيه فأصدر أمره بانزال الجند والذخيرة بأسرع ما يمكن وذلك لاحتمال وجود نلسون بمقرية من الاسكندرية .

وفي ٣ يوليه كان قد تم انزال جميع المعدات وكانت الجنود قد استولت على المدينة بعد مقاومة ضئيلة من حاكم الاسكندرية " السيد محمد كريم " وتم الاتفاق بينه وبين الفرنسيين على أن يحتفظ بمركزه كما اتفقوا مع بعض أعراب البحيرة للسير مع الحملة وتوريد الجمال والحيول اللازمة لحمل الأمتعة والمؤونة وبذلك تحقق قول " قلبي " عن الاسكندرية وصار الطريق الى مصر مفتوحا أمام الحملة .

سير الحملة ونظام المربعات المفرغة :

وفي ٩ يوليه قامت الحملة من الاسكندرية بعد أن تركت ثمانية آلاف جندي برياسة " كبير " ، وأخذت الحملة طريق الصحراء غربي فرع رشيد ، وسارت بعض السفن حاملة المؤنة والغذاء في فرع رشيد . وقد قاسى الجنود في أثناء اختراقهم الصحراء أهوالا شديدة بسبب شدة الحرارة وجفاف الأرض وقلة الماء وسطو الأعراب بين حين وآخر . ولما وصل الجند الى " الرحمانية " على النيل حيث لحقوا بالحملة النيلية ألقوا بأنفسهم في الماء فرحين مغتبطين . ثم سارت الحملة بمحاذاة فرع رشيد وفكر نابليون في طريقة يتق بها هجمات العربان والمماليك الذين اشتبهوا بالكر والفر السريع فوضع نظام المربعات المفرغة وقسم الحملة الى خمسة مربعات عظيمة كل

ضلع مكون من ستة صفوف . وسارت المدفعية بين المربعات أما العلماء والعناصر غير المحاربة فسارت وسط المربعات بعيدا عن هجمات الأعراب . ومن مزايا هذا النظام أنه اذا هجم العدو هجمة سريعة واخرقت جنوده أحد أضلاع المربع لانتلبث النيران أن تنصب عليه بخافة من أضلاع المربع الأخرى وبهذا النظام استطاع بونا برت أن يقضى على تفوق المماليك الظاهر من جهة الفرسان .

تدابير المماليك :

ولما علم المماليك بنزول الحملة في الاسكندرية في ٥ يولييه قابلوا الخبر بغير اهتمام أو اكتراث مزدريين شأن الافرنج عامة ومحتقرين كفايتهم الحربية وأقسموا أنهم سيحصدون رؤوسهم حصدا اذا قاتلوهم ثم اجتمع رؤساء المماليك مراد بك و ابراهيم بك ومعهم الباشا التركي سيد بكر ، وقر الرأي أولا على أن يرسلوا قوة تبلغ ٦٠٠٠ من فرسان المماليك ومن الجنود التركية بقيادة مراد بك لاستطلاع قوة الفرنسيين ، وكانت الأخبار قد وصلت بسقوط الاسكندرية ورشيد وزحف الفرنسيين على القاهرة عن طريق الصحراء ، والتقى الفريقان عند "شبراخيت" بعد أن استولت الحملة على الرحمانية في طريقها الى القاهرة ، وقد اشتبك في هذه الموقعة بعض السفن المسلحة التي أحضرها المماليك مع القوة الفرنسية التي كانت تسير في النيل ، وانهزم المماليك لأول مرة أمام نيران المدافع والبنادق الفرنسية وتقهقر المماليك جنوبا الى القاهرة حيث قر الرأي على أن يبقى مراد على الضفة اليسرى للنيل ومعه قوة تبلغ ١٠,٠٠٠ من فرسان المماليك و ١٠٠٠ من الجنود التركية ، وبني المماليك استحکامات عند "امبابه" ووضعوا بعض المدافع على قواعد ثابتة وأحضروا ٣٤,٠٠٠ من الفلاحين للدفاع عن المكان . أما ابراهيم بك فبقى عند بولاق على الضفة اليمنى للنيل ومعه عدد احتياطي من المماليك والفلاحين ومعه فوق ذلك ما أمكن حمله من الثروة والكنوز التي جمعها المماليك وحملوها ظهور الدواب أو السفن وقد خرج

مع ابراهيم بك ومن معه سكان القاهرة ينتظرون الموقعة ويضجون بالأدعية والصلوات والكل مترقب أول اشارة بالهزيمة لينجوا بنفسه من المهالك .

ويلاحظ هنا أن الممالك قد أخطئوا في تقسيم قواتهم ووضع الجزء المهم من هذه القوة على الضفة اليسرى ، إذ كان يجب أن يجمعوا قواتهم على الضفة اليمنى ويتركوا للفرنسيين مهمة عبور النيل وهى مهمة لا تخلو من خطر على الجيش المهاجم . ولكن يظهر أن الممالك قد أعدوا خطة التقهقر قبل أن ينظموا خطط الدفاع .

موقعة امبابه :

وفى ٢١ يوليه وصل الفرنسيون الى "امبابه" وعسكروا بينها وبين الحيزة بمراى من أهرام الحيزة الذى أشار اليه نابليون وقال مخاطبا جنوده قبل الموقعة "ان أربين قرنا تنظر اليكم" وقد وقف الفرنسيون فى مربعاتهم منتظرين هجوم الممالك حتى يحصروهم بين نيران مربعاتهم وقد وضعوا خططهم بحيث يحاولون دون وصول الممالك الى استحكاماتهم فى امبابه ثم يدفعونهم نحو النهر فاما أن يلقوا بأنفسهم فيه أو يفروا هاربين الى الصحراء وفى هذه الموقعة - موقعة "امبابه" أو "الأهرام" كما تعرف عند القرنجة - أظهر مراد بك ومن معه من الممالك منتهى الشهامة والبطولة غير مبالين بالنيران ولا مكترئين للموت فكانت هجماتهم على المربعات الفرنسية لا تلبث أن تنكسر أمام بنادق العدو وماذا كانت تجدى بطولة الممالك وفروسياتهم أمام جيوش حديثة منظمة يقودها نابليون ؟ لقد تهشمت قوة الممالك فى ساعات قليلة ولم يبق من الممالك سوى جماعات غير منظمة عددها أربعة آلاف فزت الى الصحراء أو الى الصعيد مع مراد بك الذى أخذ يحرق السفن التى كانت تحمل الذخيرة حتى لاتقع فى أيدي العدو .

أما ابراهيم بك ومن معه من الممالك والأهالى فظلوا على الضفة النيل عند بولاق يراقبون حركة الموقعة فلما رأوا ما حل بمراد بك استولى عليهم الفرع والرعب وضح الناس بالصراخ والعيويل وأحرق ابراهيم بك ما أمكن احراقه

من السفن المحملة حتى غطت النيران سطح الماء ، ثم فرو من معه من الممالك قاصدين الشرقية ثم سوريا ، وخرج مع ابراهيم بك سيد بكر الباشا التركي وعدد من زعماء المصريين . أما المدينة فظلت في حركة مستمرة اذ أخذ الناس يهاجرون من المدينة ومعهم أسراتهم وما خف من متاجرهم وثروتهم ، وانتهم اللصوص الفرصة فدخلوا البيوت والحوانيت ونهبوا ما فيها .

تسليم القاهرة :

وأخيرا قرر رأى بعض التجار الأجانب على أن ينصحوا وكيل الباشا بأن يسلم المدينة وذهبوا لمقابلة نابليون . وفي ٢٤ يولييه ذهب الى برج الحيزة جماعة من المشايخ يعرضون الصلح على الفرنسيين ويسلمون القاهرة ، وفي ٢٧ يولييه دخل نابليون مصر على رأس جنده وكان قد عين القائد "ديبوى Dupuy" حاكما على المدينة وأرسل "دينيه" على رأس قوة الى الصعيد لمطاردة مراد بك وأتباعه .

وفي ٧ أغسطس خرج "بونابرت" على رأس قوة لمطاردة ابراهيم بك فوصل "بليس" والتقى الفريقان عند "الصالحية" في ١٠ أغسطس وفر ابراهيم بك الى سوريا بعد أن ترك بعض أحماله في أيدي الفرنسيين ، وحاول نابليون أن يستميل الباشا التركي الى جانبه مرة ثانية ، فلم يفلح . وكان بونابرت يرمى من ابقاء الباشا بجانبه في مصر الى غرضين : (الأول) أن يبرهن للشعب على صدق دعواه في أنه حليف السلطان وأنه يعمل ضد الممالك بالاتفاق مع الباب العالي ، (الثاني) أنه كان يريد أن يحتفظ بالعلاقات الودية بينه وبين تركيا حتى لا ينضم الأتراك الى أعداء فرنسا . لذلك أرسل نابليون في غداة موقعة الصالحية خطابا الى ابراهيم بك يطالبه فيه بارسال الباشا اليه ليكون واسطة الصلح بين الفريقين . ولما لم يصله رد على خطابه أمر فخصن الصالحية ، وعين "رينيه Reynier" حاكما على الشرقية و"ديجوا Dugua" حاكما على المنصورة ثم عاد في ١٣ أغسطس الى القاهرة .

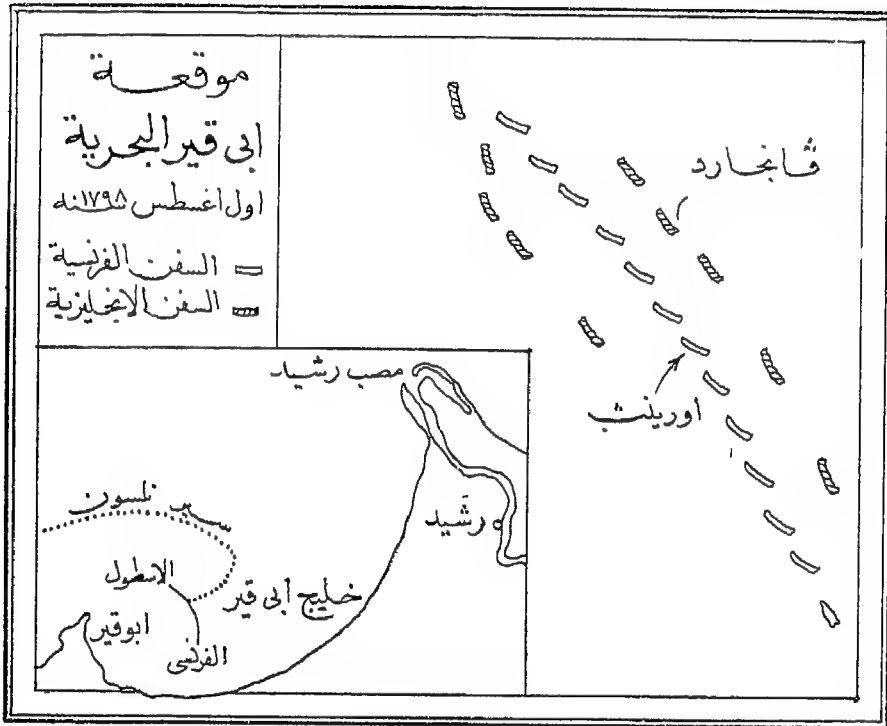
موقعة أبي قير البحرية :

وفي أثناء طريقه وصل اليه رسول من "كليب" يعلمه بالكارثة التي أصابت الحملة بتدمير الأسطول الفرنسي عند "أبي قير" في أول أغسطس وذلك أن "نلسن" لما علم بنزول الفرنسيين مصر أقلع من جزر الأرخبيل وباغت الأسطول الفرنسي ، وعلى الرغم من كثرة السفن الحربية الفرنسية فإن نلسن استطاع بمهارته وسرعته أن يشق الأسطول الفرنسي شقين ويحصر الجزء الأكبر منه بين نارين من أسطوله وهكذا دمر الجزء الأكبر من الأسطول الفرنسي وقتل وغرق عدد عظيم من الفرنسيين. ومن الذين قتلوا "دو بروي" قائد الأسطول الذي أظهر من الشجاعة والثبات وهو على ظهر سفينة "L'orient" ما خفف حملة النقد عليه فإن نابليون كان قد أوصاه بأن لا يعرض أسطوله عند أبي قير بل عليه أن يحتجى اما داخل ميناء الاسكندرية أو يخرج به الى جزيرة مالطة أو إحدى جزر الأيونيان . فلم ييأدر "دو بروي" بتنفيذ شيء من ذلك وظل عند أبي قير على غير استعداد حتى جاء نلسن ووجه هذه الاصابة القاتلة الى الحملة في بدء عهدها .

نتائج الموقعة :

وبتدمير الأسطول فقد بونا برت أسباب الاتصال بأوروبا عامة وبفرنسا خاصة وضاع كل أمل في امكان وصول المدد والذخيرة من فرنسا الى الحملة كما أن ضياع الأسطول قد حرم الفرنسيين من أكبر ضمان يعتمدون عليه ويلجئون اليه اذا ما اضطرتهم الظروف في مصر الى التقهقر أو العودة ، ولا شك أن الحملة الفرنسية بمصر بعد هذه الموقعة أصبحت مقضيا عليها الاحالة اذ صار الفرنسيون في مصر كأنهم محصورون في مدينة مضيق عليها ومصيورها الى التسليم آجلا أو عاجلا .

لذلك قابل نابليون الخبر باهتمام كبير وتأثر ظاهرا غير أنه سرعان ما تجلد وامتلأ قلبه ثقة وأملا في المستقبل فأبلغ الخبر الى من حوله من الضباط



ومنهم انتقل الى الجنود وسرت في نفوسهم روح الثقة والشجاعة التي استمدها الجميع من بونايرت . قال بونايرت مخاطبا ضباطه وجنوده أن عليهم أن يعتادوا جو مصر وأن يقوموا بأعمال عظيمة كتكوين دولة عظيمة في أفريقية وآسيا يكون مركزها مصر .

سياسة بونايرت في مصر :

لذلك عول نابليون على ادماج الفرنسيين بالمصريين محاولا بذلك تكوين عنصر قوى واحد يستند اليه في حكمه علما منه بأن قوة الشعب هي خير ما تتركز اليه الحكومة في البلاد ، فاستمال الشعب اليه بكافة الطرق ، فكان يشترك مع الشعب في حفلاته القومية العامة كفتح الخليج واحياء المولد النبوي ، وكان يعلن أنه مثلهم مؤمن وموحد بالله . وكان يستعمل اللغة العربية في منشوراته ويظهر الاحترام للدين والقرآن والرسول وخاصة سيدنا (محمد صلى الله عليه وسلم) ويكثر من الاستشهاد بالقرآن واعلان رغبته أمام العلماء في تحويل الفرنسيين الى الاسلام وبناء المساجد حتى يبرهن بذلك للمصريين على أنه لا يقل عن الأتراك أو المماليك غيره على خدمة الدين واحترام عادات البلاد وأهل العلم بها^(١) .

انشاء الديوان الوطنى :

وأهم من ذلك كله أنه عمل على اشراك العناصر الوطنية مع الفرنسيين في الحكم لأول مرة في تاريخ مصر الحديث . اذ أصدر مرسوما حال دخول الفرنسيين القاهرة يقضى بتأليف ديوان وطنى يساعد الحاكم العسكرى في الحكم ، ويتكون من تسعة أعضاء من المشايخ وعاشر ليكون سكرتيرا ، وانتخب "الشيخ عبد الله الشرقاوى" رئيسا للديوان "والشيخ المهدي" سكرتيرا ، ويجتمع الديوان كل يوم للنظر في مهام الأمور . وكان

(١) راجع ملحق حرف (١) صفحة ٢٢٧ "منشور بونايرت الى المصريين" .

نابليون يجيب بالموافقة على أكثر قرارات الديوان ويترك له الحرية في تعيين من يختارهم من غير الممالك للوظائف الداخلية الخاصة بالمدينة كوالى الشرطة والأغا والمحتسب ووكيل أو كتحدا لكل من هؤلاء ، وقد عين بونايرت حكاما عسكريين للقاهرة وللاقاليم وأمر بتكوين ديوان وطنى لكل اقليم على نسق ديوان القاهرة يتكوّن من سبعة أعضاء ويعاون الحكام الفرنسيين في حكومة الأقليم .

ولم يفرض نابليون ضرائب جديدة بل جمع المال المعروف بالميرى وعين "بوسليج Poussielegue" للشؤون المالية فجملت الضرائب بنظام من الجميع وحصرت أملاك المالك والمشايخ الذين هاجروا الى الشام وثبتوا كلا في ملكيته واحترموا أملاك الوقف وتركوا المعاملات المدنية والتجارية كما كانت ، كما أنهم لم يحدّثوا تغييرا ما في ادارة القضاء في البلاد .

وعلى ذلك سرعان ما آنس الناس بالفرنسيين واطمأنوا اليهم فنشطت حركة العمل في المدينة وأنشئت في القاهرة محال تجارية وقهاوى ومطاعم ومصانع وأذيع التنبيه بوجوب الانارة والنظافة أمام محالهم وبيوتهم في الشوارع والحارات .

تنظيم المجمع العلمى المصرى :

ثم نظر بونايرت في تنظيم "المجمع العلمى المصرى L'Institut Egyptien" فأصدر أمرا في ٢١ أغسطس بتكوين هيئة المجمع وفي ٢٤ منه اجتمع المجمع لأول مرة بمنزل "حسن كاشف" (١) وعين "منج Monge" أكبر الرياضيين رئيسا ووجد نابليون الشرف كله أن يكون وكيلا للمجمع ، ثم قسم المجمع الى أربعة أقسام مهمة : قسم للأبحاث الرياضية والطبيعية ، وقسم للأبحاث الاقتصادية ، وقسم للفنون ، وقسم للأدب . وأهم الأعمال التى قام بها المجمع فى أثناء وجود نابليون درس مشروع وصل البحر الأحمر بالأبيض وكشف القناة القديمة التى كانت توصل النيل بالبحر الأحمر .

(١) فى حارة منج خلف المدرسة السنية بالناصرية .

ديزيه فى الصعيد :

وفى أثناء ما كان نابليون يقوم بهذه التنظيمات فى القاهرة والدلتا كان "ديزيه" يعمل على اخضاع مراد بك فى الصعيد وكان قد انضم اليه عدد كبير من المماليك وعربان الوجه القبلى واتخذ مقره فى البهنسا بمديرية المنيا فسار اليه "ديزيه" واشتبكا فى موقعة عند مدينة الفيوم انهزم فيها مراد بك وأتباعه وبعدها عول مراد على اتباع طريقة الكروالفر التى يحدقها فرسان المماليك فصار الفرنسيون فى حركة مستمرة أثناء وجودهم بالصعيد الى أن استدعاهم نابليون قبيل موقعة أبى قير البرية فى أغسطس سنة ١٧٩٩

وبينما كان الفرنسيون يحاولون تثبيت حكمهم فى البلاد اعترضتهم حادثتان قضتا على آمالهم فى هذه البلاد نهائيا : (الأولى) داخلية وهى ثورة أكتوبر سنة ١٧٩٨ ، (الثانية) خارجية وهى تعرض الفرنسيين لهجوم الأتراك والحلفاء فى مصر وفى أوروبا فى آن واحد .

ثورة ٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨

السبب الاقتصادى :

إن أهم الأسباب التى أدت الى ثورة القاهرة ولم يمض على دخول الفرنسيين سوى ثلاثة شهور هى فى الحقيقة اقتصادية وذلك أن الفرنسيين قبل احتلالهم البلاد كانوا يعمنون أنفسهم بثروة طائلة يحصلون عليها بطريقة ما ، فلم يدخلوا البلاد لم يجدوا شيئا يذكر فالمماليك قد أفنوا أو أخفوا كنوز ثروتهم على أثر موقعة امبابه ثم حملوا ما تبقى منها الى سوريا .

ولا ننسى أن تدمير الأسطول الفرنسى عند "أبى قير" وعلان الحصر البحرى على سواحل البحر الأبيض المصرى بسبب تفوق الأسطول

الانجائزى قد أدى الى توقف دولاب الأعمال التجارية والصناعية فساءت الحال الاقتصادية بدرجة شعر بسوء وقعها الفرنسيون . لذلك شرع الفرنسيون يفكرون فى فتح أبواب جديدة يحصلون منها على المال اللازم ففرضوا عوائد على الأملاك وأنشئوا ديوانا لتسجيل الحجج والعقود الموجودة عند الأهالى والى التى تثبت امتلاكهم لما لهم من الأملاك فى مقابل رسم خاص . فاستاء الأهالى وعظم سخطهم وأيقنوا أن الفرنسيين لا يقولون عن غيرهم من حيث تعسفهم فى جمع المال بل ان الفرنسيين كانوا أشد وأدق فى جباية الأموال .

شدة الفرنسيين :

هذا هو السبب المباشر للثورة . على أن هناك أسبابا ثانوية أخرى أهمها تشدد الفرنسيين واضطهاد المماليك وسوء معاملة أسراتهم وتوقيع أشد العقوبات على من يشتبهون فى صلاته معهم . فكانوا يحكمون بالاعدام على من يتهم بمراسلة المماليك أو بقضاء حاجات لهم . وأكبر من أعدم بهذا السبب " السيد محمد كريم " أول من اتفق مع الفرنسيين بالاسكندرية .

انتشار البدع ونشر الدعوة :

ثم ان الفرنسيين على الرغم من تظاهرهم باحترام الدين الاسلامى كانوا فى الحقيقة قليلي الاكتراث للتعاليم والمبادئ الاسلامية اذ أطلقوا العنان لشهواتهم وكثر التبذل وظهور الفجور وانتشرت المسكرات والبدع وعمت المفاسد وارتفع شأن الأجنبي على حساب أهل البلاد .

وهناك سبب خارجى يرجع الى مجهودات ابراهيم بك والسيد عمر مكرم ومن معهما من المماليك والمصريين الذين تركوا مصر الى الشام فانهم ما فتئوا يرسلون الرسل الى مصر ويوزعون المنشورات سرا بين الناس يحضونهم فيها على الثورة ضد الفرنسيين ويشجعونهم بالقول والوعد بأن الباب العالى يعد

حملة كبيرة بالاتفاق مع الانجليز لطرد الفرنسيين من مصر وما على المصريين الا أن يقوموا بالثورة في الداخل تسهيلا لمهمة الجيش المهاجم من الخارج، ومما أكد للمصريين صدق هذه الوعود ما علموه من تدمير الأسطول الفرنسي عند أبي قير وخرج مركز الفرنسيين في مصر على أثر هذه الموقعة .

الثورة :

قال الجبرتي يصف الثورة : ” كثر اللغط وتجمع الكثير من الغوغاء من غير رئيس يسوسهم ولا قائد يقودهم وأصبحوا يوم الأحد متحزبين وعلى الجهاد عازمين وأبرزوا ما كانوا أخفوه من السلاح وآلات الحرب وحضر ” السيد بدر ” وصحبته حشرات الحسينية ولهم صياح عظيم وهول جسيم فذهبوا الى بيت القاضي وتجمعوا وتبعهم نحو الألف أو الأكثر وهدموا مساطب الخوانيت وجعلوا أحجارها مناريس للكرنكة لتعوق هجوم العدو في وقت المعركة ووقف دون كل متراس جمع عظيم من الناس “ .

وكان الفرنسيون قد أخذوا على غرة فلم يحتاطوا للأمر وقتل منهم ” ديبوى ” حاكم القاهرة و” سلكسكى Sulkowsky ” رئيس أركان حرب نابليون واثنان من العلماء كانوا يقومون بأبحاثهم عند جبل المقطم . ولما رأى نابليون خطورة الحال وأن مركز الثورة في الأزهر بعيد عن مناله بسبب ضيق الحارات الموصلة اليه ، وضع المدافع على إحدى ربي المقطم وصوبها على الأزهر ” ولما سقط عليهم القنبر ورأوه ولم يكونوا في عمرهم عاينوه نادوا ياسلام من هذه الآلام ياخفى الألفاظ نجنا مما نخاف !! “ وتتابع الرمي من القلعة حتى وقع الرعب في صدور الناس وفزع جعاب أهل الحسينية الذين ظلوا يقاتلون للنهائية فقام العلماء وركبوا الى بونابرت يطلبون الأمان والعفو فلامهم بونابرت وأنهم واتهمهم بمالأة الثوار على الرغم من اشتراكهم معه في المسئولية والحكم . وأخيرا قبل رجاءهم ونادوا بالأمان في جميع أنحاء المدينة . ولكن نابليون استعمل الشدة والصرامة

المتناهية وارتكب اثماً لا يزال أثره مقرونا باسمه الى اليوم في مصر ذلك أن جنوده وخيوله دخلت الأزهر واتهكوا حرمة وأسأوا استعماله . وبذلك أضاف وقوداً جديداً الى نار الثورة المتأججة في نفوس الشعب وقضى على كل أمل في تقريب العنصرين المصرى والفرنسى وتكوين قوة من الشعب يستند اليها بونا بريت في حكمه .

نتائج الثورة :

ولست أهمية هذه الثورة مقصورة على أنها قامت بغداة وبسرعة ومن غير تنظيم أو ترتيب سابق انما أهميتها في أنها قلبت سياسة الفرنسيين رأساً على عقب وقضت على جل آمالهم في مصر . فبعد أن كان الفرنسيون يؤملون تكوين مستعمرة فرنسية في مصر ويحاولون كسب مودة الشعب بكل الطرق أصبحوا بعد الثورة على حذر شديد من المصريين وقصروا جهودهم على حماية مركزهم الحربى في مصر خشية اعتداء الترك أو الانجليز .

ومن مظاهر الشدة التى بدت بعد الثورة أن نابليون أطلق العنان لأحد الأروام الذى عينه وكيلًا لحاكم القاهرة واسمه "Barhelemy" ويعرفه العامة باسم "فرط الرمان" فعامل المصريين بعنف شديد وأنزل العقوبات الصارمة على المصريين الذين اتهموا بالتعدى على الفرنسيين وطاف "برطلمان" على الأقاليم يقضى على بقايا الثورة فيها ويجمع الغرامات من القرى وكان الفلاحون في بعض الأقاليم قد انتهزوا فرصة فيضان النيل وتعذر وصول القوات الفرنسية لنجدة بعض الحاميات فقاموا بمناوشات بسيطة لم تلبث أن قعمت بشدة .

ومن مظاهر روح الكراهية وعدم الثقة التى ملأت جوانح الفرنسيين بعد الثورة أن بونا بريت ألغى الديوان الوطنى الأول وتركه معطلا مدة شهرين ثم عين ديواناً جديداً ليس مقصوداً على المشايخ بل كانت جميع الطوائف والجاليات القاطنة بمصر ممثلة فيه ، فكان بجانب المشايخ ممثلون للأقباط والسوريين والأروام والافرنج وكان مجموع هذا المجلس ستين عضواً اختير

منهم أربعة عشر ليكونوا المجلس المخصوص الذى يجتمع بانتظام لمعاونة الحكومة .

ومن الاحتياطات التى أخذها الفرنسيون بعد الثورة اهتمامهم بتحصين القاهرة وهدم بعض المباني والمساجد التى كانت تعترض طريقهم وخلق أبواب الحارات ، وكان الفرنسيون قد بدأوا بعض هذه الأعمال قبل الثورة فلما قامت الثورة ضاعفوا جهودهم فى إتمامها ، ومن أعمال نابليون أيضا تكوين فرق عسكرية من متطوعي الأروام وبعض العناصر الشرقية المسيحية تنضم للحملة عند الحاجة ، وأخذت المعامل تنتج ما تحتاج اليه الحملة من ذخيرة حربية وعدد وآلات وأدوات بقدر ما وصلت اليه مواهب "كتيه Conté" العالم الفرنسى المخترع .

كل هذه الأعمال ساعدت على توسيع هوة الخلاف بين الفرنسيين والمصريين وجعلت المصريين على الرغم من خضوعهم وتظاهرهم بالامتنال يضمرون الانتقام من الفرنسيين ويتحينون الفرص المناسبة للقيام بالثورة من جديد ماداموا يعلمون أن الأتراك والانجليز على الأبواب .

موقف تركيا وأوروبا ازاء الحملة :

ولقد كان من نتائج واقعة "أبي قير البحرية" وتدمير الأسطول الفرنسى أن سهل على انجلترا حمل تركيا على اعلان الحرب ضد فرنسا واعداد حملة لطرد الفرنسيين من مصر ، وكانت الحكومة الفرنسية قد أخذت حذرهما من أول الأمر فقررت مبدئيا ارسال "تليرنند" الى القسطنطينية عقب خروج الحملة ليؤكد للباب العالى حسن نيات فرنسا نحو السلطان وأن الغرض من ارسال الحملة ليس الا لتأديب الممالك وتخليص الباب العالى من حكمهم فى مصر . ولكن تاليرند لم يسافر وعين غيره .

كما أن بوناپرت من جهته لم يتوان فى تفهيم الباب العالى حسن نياته فاول أن يستميل اليه الباشا التركى كما ذكرنا ولما فشل كتب الى الصدر

الأعظم يطلب اليه أن يرسل من لدنه رسولا يتفاوض معه في مصر ويؤكد له فيه أن سيادة تركيا لم تزل باقية على البلاد وغاية ما في الأمر أن الفرنسيين حلوا محل الممالك في حكومة مصر^(١) . ولكن السلطان ارتاب في عمل فرنسا وبدأت الحكومة الانجليزية من جهة أخرى تحرك الباب العالي ضد فرنسا وتنصح لتركيا باعلان الحرب عليها فلما سمعت بواقعة "أبي قير" تسجعت وكانت الموقعة أبلغ حجة قدمها سفير إنجلترا للباب العالي ليدفعه الى الحرب ، فأعلنت تركيا الحرب على فرنسا في سبتمبر سنة ١٧٩٨ وتحالفت مع إنجلترا والروسيا ضد فرنسا . ولما كانت السيادة البحرية للأسطول الانجليزي تمكن الحلفاء من أخذ جزيرة "مالطه" وجزائر "الأيونيان" بمعاونة الأسطول الروسي ، وأعد الباب العالي جيشين أحدهما في جزيرة "رودس" لتحمله السفن الانجليزية الى ساحل أبي قير والثاني يزحف على مصر من جهة حدودها الشرقية .

وكانت الحكومة الفرنسية تريد ارسال المدد لنابليون بأية طريقة ولكن حال دون ذلك تألب الدول عليها مرة ثانية متشجعة بغياب بونايرت وبهزيمة أسطوله عند أبي قير وعداء السلطان له ، فنشبت نار الحرب في أوروبا وبذلك تعرضت حكومة الادارة في فرنسا لخطر عظيم من جانب الدول المتحالفة ضد فرنسا . وعلى ذلك يمكننا أن نقول أن تكوين المحالفة الثانية ضد فرنسا قد عرض الحملة الفرنسية لأشد الأخطار وذلك لسببين : (الأول) لأن تركيا قد دخلت الحرب ضد فرنسا ، (الثاني) لأن المحالفة الجديدة وتهديدها فرنسا جعل نابليون يفكر في العودة الى أوروبا لانقاذ الحالة . وليس من شك في أن خروج نابليون من مصر كان من أكبر دواعي فشل الحملة .

(١) من بونايرت الى الصدر الأعظم (٢٢ أغسطس ١٧٩٨)

نابليون في سوريا

(من فبراير الى مايو سنة ١٧٩٩)

لما علمت حكومة الادارة بتدمير الأسطول الفرنسى في موقعة أبى قير
كتبت الى بوناپرت أن يتبع إحدى ثلاث :

- (١) إما أن تبقى بمصر وتأخذ الاحتياطات الكفيلة برد هجوم الأتراك .
- (٢) أو تحاول الوصول الى الهند فاذا وصلت لا يصعب عليك أن تجد
أقواما مستعدين للانضمام معك بقصد تقويض النفوذ الانجليزى .
- (٣) أو تمضى في طريقك الى القسطنطينية فتسبق العدو الذى يهددك
هذه الاقتراحات من لدن حكومة الادارة تدلنا على أن نابليون لم يكن
في مشروع الحملة الى سوريا ساعيا وراء مطمع شخصى أو أمنية كانت تدور
في مخيلته بل كان نازلا على ارادة حكومته .

أغراض الحملة :

على أن هناك أغراضا مهمة دعت نابليون الى ارسال الحملة منها أنه
كان يؤمل اذا مات له النصر أن تضطر تركيا الى الانسلاخ عن الحلفاء
وعقد الصلح على انفراد مع فرنسا ، كذلك كان يريد أن يضع حدا لتكوين
السفن الانجليزية من سواحل البحر الأبيض الشرقية متى خضعت هذه
السواحل لحكم فرنسا ، ولا يبعد أن يكون نابليون قد فكر وقتئذ في تنفيذ
مشروعه الشرقى العظيم الذى لو تم لأمكنه أن يصل الى باريس برا عن
طريق القسطنطينية واثينا .

على أن نابليون لما علم باستعداد الأتراك فضل أن يتخذ خطة الهجوم
كعادته ، لأنه رأى أنه اذا بق في مصر أعطى الفرصة للأتراك فأرسلوا
جيشين في وقت واحد وعند ذلك يتعرض الفرنسيون لهجوم جيشين من
جهتين مختلفتين فيضطر نابليون الى تقسيم قواته ويضعف إمله في الانتصار ،

أضف الى ذلك أنه اذا بقي بونايرت بمصر ودخل الجيش المهاجم البلاد لا يبعد أن يتشجع الشعب فيقوم بالثورة ويتعرض الفرنسيون حينئذ لخطر داهمين : العدو من الأمام ، والثورة من الخلف .

قيام الحملة و نابليون أمام عكا :

لذلك قامت الحملة بقيادة نابليون وتبلغ ١٢٠٠٠ جندي قاصدة سوريا في فبراير سنة ١٧٩٩ بعد أن قبض على ناصية الأمور بمصر وترك عددا قليلا من الجنود في حاميات القاهرة والاسكندرية ورشيد ودمياط . ودخل الفرنسيون "العريش" ثم "غزة" و "يافا" وهنا سلمت حاميتها وعدها ٤٠٠ جندي للضابط الفرنسي فأمنهم على حياتهم ، ولكن نابليون ضاق بهم ذرعا ، ولما لم يكن لديه جند لحراستهم أو زاد يكفيهم أو سفن تحملهم الى مصر خاف أنه اذا تركهم وشأنهم لا يلبثون أن يحملوا السلاح ضده في "عكا" فلم يجد مناصا من قتلهم جملة واحدة ، وتحمل أمام التاريخ إثم هذا العمل الفظيع . وعلى أثر ذلك فشا الطاعون بين جنوده ، ثم سار نحو "عكا" فوقف أمامها وواجه صعوبات جديدة لم تصادفه في يافا ، ففضلا على أن عكا ميناء حصين فقد كان الرجل الذي يهيمن عليها جنديا شهما هو "أحمد باشا الجزائر" وكان أمام عكا سفيتان حريتان من الأسطول الانجليزي بقيادة "سدني سميث Sidney Smith" الذي قام بدور هام في تاريخ الحملة الفرنسية بمصر ومعه مهندس حربى من أشرف فرنسا الذين هاجروا بلادهم وانضموا الى الحلفاء ضد حكومة بلادهم واسمه "فليبو Phélippeaux" وكان زميلا لبونايرت في المدرسة الحربية ومن أشد منافسيه واليه يرجع الفضل في طول مقاومة عكا وقوة تحصينها .

أثر القوة البحرية :

وانك لترى أثر القوة البحرية ظاهرا في حصار عكا ظهورا تاما ، فقد ظل الحصن مفتوحا من جهة البحر تصل اليه المؤونة والذخيرة والرجال بسهولة وهذا مما جعل حصار نابليون للحصن قليل الجدوى .

وكان نابليون قد أرسل قوة المدفعية من مصر عن طريق البحر فلم تصل كاملة ووقع جزء منها في أيدي الإنجليز ، واضطر نابليون أن يحاصر الحصن وقوة مدفعيته ظاهرة الضعف . أما الشعب السورى وخاصة الدروز والطوائف المسيحية وبعض القبائل العربية فأحسنّت استقبال بوناپرت واتصلت معه سرا مرجئة اعلان انضمامها اليه حتى تسقط عكا .

هاجمت القوات الفرنسية حصن عكا مرات متتالية ، ولكنها كانت تعود في كل مرة بالفشل رغم جهود بوناپرت العظيمة ، ثم أرادت تركيا أن تحصر القوة الفرنسية بين نارين وتضطرهم الى رفع الحصار عن عكا فأرسلت قوة من دمشق تبلغ ٢٥,٠٠٠ جندي بقيادة والى دمشق فأرسل نابليون قوة قليلة العدد بقيادة "كليب" لملاقاتها ، ولما أوشك كليب على الانهزام سار اليه نابليون مسرعا وحاز النصر في موقعة "تل طابور" جنوب عكا في ١٦ أبريل سنة ١٧٩٩

رفع الحصار عن عكا وموقعة أبي قير البرية :

هذا الانتصار أحيأ الروح الأدبية بين الجنود ، وبينما كان نابليون يستعد لهجوم حاسم على عكا جاء المدد اليها عن طريق البحر في ٧ مايو ، اذ نزل جزء من الجيش الذى كانت تعدّه تركيا في "رودس" ومع ذلك قام نابليون بأنحر هجمة للمرة الرابعة عشرة ، وفعلا اخترقت الجنود الفرنسية حصن عكا ولكنهم وجدوا بيوتها قلعا وشوارعها محصنة بالحنادق والمتاريس ورأى نابليون انه إذا استمر في هجومه تعرضت قوته لخسارة جسيمة فاكتفى بتدمير وتخريب المدينة وقرر رفع الحصار والعودة بعد أن استمر حصارها أكثر من شهرين من مارس الى ١٤ مايو ١٧٩٩ وخسر من رجاله ما يقرب من ثلاثة آلاف رجل مات منهم كثير بالطاعون ، وقد لاقى الحملة أثناء رجوعها الى مصر عن طريق الصحراء مصاعب جمة بسبب تفشى الطاعون وشدة الحرارة ، ومع ذلك دخل نابليون القاهرة في ١٤ يونيو دخول الظافر المنتصر ، ولكن تظاهره بالانتصار لم يخف الحقيقة عن المالك الذين

تشجعوا ووصلوا الى قرب البحيرة عند الأهرام مهددين القاهرة . وبينما كان نابليون يأخذ العدة لمقابلة المماليك ومراد بك اذ وصل اليه خبر نزول العثمانيين عند أبي قير في ٢٤ يولييه . وقد كان احتمال نزول هذه الحملة من أهم الأسباب التي دعت الى رفع الحصار عن عكا والاسراع الى مصر لرد الهجوم المنتظر ، وكان نابليون يظن أن الانجليز سيشترون فعلا في هذه الحملة فأخذ احتياطات حاسمة أهمها اصدار الأمر ”لديزيه“ باخلاء الصعيد بعد أن أخضعه وأقام في أقسامه حكومة عادلة وصدر الأمر الى الحاميات الأخرى بضرورة السير والاجتماع عند الرحمانية لمنع تقدم المهاجمين ، ثم سار هو شمالا ، وكان الأتراك وعددهم ١٨ ألف جندي بقيادة مصطفى باشا قد احتلوا قلعة أبي قير وقتلوا من فيها من الفرنسيين بغاء الفرنسيون بسرعة ونشبت الموقعة واستمرت من ٢٥ يولييه الى ٢ أغسطس وقد تدخل الأسطول الانجليزي في المعركة ، فتقهقر الفرنسيون وتعقبهم العثمانيون تاركين قلاعهم واستحكاتهم التي احتلها الفرنسيون وقطعوا على العثمانيين خط الرجعة فانكسر الجيش العثماني ووقع مصطفى باشا أسيرا وقضى على معظم الجيش في واقعة أبي قير البرية في أغسطس سنة ١٧٩٩ وصار اسم ”أبي قير“ موضع نخر الفرنسيين بعد أن كان من أشأم الأسماء لديهم منذ تدمير الأسطول الفرنسي أول أغسطس سنة ١٧٩٨

خروج نابليون :

وبعد أن حسن نابليون سمعة الفرنسيين ومركزهم في مصر باحرازه هذا النصر الباهر فكر في العودة الى فرنسا واتفق سرا مع أمير البحر ”غانتموم Ganteaume“ لهيئة وسائل الافلات من رقابة الأسطول البريطاني وتدير السفن اللازمة لنقله هو وبعض أصدقائه المقربين ، وفي ٢٢ أغسطس قام نابليون ومعه من الضباط ”برتييه Berthier“ و”لان Lannes“ و”مورا Murat“ واثنان آخران ، ومن العلماء ”منج Monge“ و”برتوليه Berthollet“ وأما ”ديزيه Desaix“ فاحقه بعد قليل . وقبل أن يغادر البلاد عين ”كليبر Kléber“ قائدا للحملة ووصل فرنسا بعد شهرين .

الفصل الرابع

الحملة الفرنسية بعد نابليون

لم يسافر بوناپرت من مصر خلسة الا لسببين مهمين :

أولا — تأكد أنه مشروع الحملة في الشرق أخفق نهائيا وأنه لابد من العودة الى ميدان العمل في أوروبا وأن الفرنسيين الذين تركهم في مصر يمكنهم الاحتفاظ بهذه البلاد دون أية ضرورة لوجوده بنفسه .

ثانيا — علم نابليون بواسطة بعض الصحف التي أوصلها اليه سدني سميث وبواسطة الرسائل الخصوصية التي كانت تصله من أوروبا بين حين وآخر أن حكومة الادارة في فرنسا قد ضعفت وأن أعداء فرنسا قد تألبوا عليها وأن القواد الفرنسيين قد انهزموا في ايطاليا وفي ألمانيا، وأن فرنسا قد خسرت ما أنشأه نابليون وكسبه من الأملاك في شمال ايطاليا والأراضي المنخفضة عقب صلح " كمبوفورميو " .

كذلك علم نابليون أن الحالة الداخلية في فرنسا صارت تتطلب وجوده وأن الفرصة التي لم تسنح له عام سنة ١٧٩٧ قد آذنت بالسنوح عام سنة ١٧٩٩ وأنه اذا وصل فرنسا فلا تلبث حكومة الادارة أن تسقط أمام معارضته فيسلم زمام الحكومة بيده .

على أن حكومة الادارة نفسها كانت ترغب في حضور نابليون الى فرنسا وفعلا كتبت اليه بتاريخ ٢٦ مايو سنة ١٧٩٩ تصف له سوء الحالة في أوروبا وفي فرنسا وتظهر فيه رغبتها في عودة الجيش من مصر لحماية الوطن . ومما يدل على شدة اهتمام الحكومة بأمر انقاذ الحملة واعادة الجيش الى فرنسا اذا أمكن أنها كلفت أمير البحر " بروي Bruix " أن يخرج من ميناء " برست " ومعه ٢٥ سفينة ويشارك مع الاسطول الأسباني ويخترق

البحر الأبيض المتوسط ويصل الى الاسكندرية ليعود بنابليون وجنوده الى فرنسا . وفعلا قام " بروى Bruix " من برست ومعه الأسطول الاسباني وسار شرقا حتى وصل الى تونس ثم اضطر الى العودة خوفا من مباغطة الأسطول الانجليزي لهم ولأن الأسطول الاسباني لم يوافق على خطة يكون من ورائها مهاجمة الأسطول الانجليزي . وعلى ذلك عادت الحملة الى برست في أغسطس سنة ١٧٩٩ وتبدد كل أمل في انقاذ الفرنسيين بمصر .

حالة الحملة الفرنسية بعد مغادرة نابليون :

غادر نابليون البلاد وترك الحملة في أسوأ حال يمكن تصورها رغم انتصاره في موقعة أبي قير .

مركزها الأدبي :

فن الوجهة الأدبية : انحطت الحالة المعنوية بين الجنود كثيرا وخصوصا بعد سفر نابليون ، واعتقد أكثرهم أن البقاء بمصر أصبح أمرا لا يجدي ، وساعد على تأصل هذه الفكرة في أذهانهم عجز حكومة فرنسا عن ارسال المدد الى مصر حتى بعد وصول نابليون وتسلم مقاليد الأمور بيده لم تبد الحكومة اهتماما عظيما بشأن مصر^(١) وتأكد معظم الضباط والجنود أن فرنسا في خطر أو أنها صارت أحق بمجهودات أبنائها من مصر ، وكانوا يعتقدون أن خروج الحملة من مصر سيكسب فرنسا جيشا يبلغ عدده ٢٥,٠٠٠ وحليفا جديدا هو تركيا .

أضف الى هذا عدم ملاءمة جو البلاد الفرنسيين ، وقلة المال اللازم للحملة وكساد التجارة بسبب الحصر البحري واحتياج الحملة الى عدد وآلات وملابس وعمال فنيين لا سبيل للحصول عليها في الشرق .

(١) في سنة ١٨٠١ حاول أمير البحر " غلمنتور " بأمر بوناپارت عبور البحر الأبيض المتوسط لارسال المدد الى مصر فلم يفلح .

فلا غرابة حينئذ أن ينضم معظم جنود وضباط الحملة الى الرأى الذى يقول بضرورة جلاء الحملة عن مصر . وكان "كليب" زعيم الحزب الذى يقول بهذا الرأى . أما الحزب المعارض للجلاء فكان يمثل رأى أقلية ضئيلة وزعيمه القائد "مينو" ومن رأى هذا الحزب أن الاحتفاظ بمصر سيعود على فرنسا بفوائد تجارية ومادية تستحق من أجلها وجود ٢٠ أو ٢٥ ألف جندى وأن فرنسا لا يضيرها غياب هذا العدد القليل من أبنائها .

وليس من شك فى أن انقسام الرأى بين صفوف الحملة واحتدام الجدل بين أصحاب الرأىين قد أثرا فى حالة الجنود الأدبية أيمما تأثير .

مركزها الخارجى :

أما من الوجهة الخارجية فانه على أثار تردد نابليون من أمام عكا تشجعت تركيا وكونت جيشا من أربعين ألف جندى بقيادة ضيا باشا الصدر الأعظم لمهاجمة مصر من الجهة الشرقية وكان فى الجيش ضباط من الانجليز يعاونون الصدر فى مهمته . وكان نابليون قد علم بأمر هذا الجيش قبل مغادرته البلاد فرأى أن يفتح باب المفاوضات مع الصدر الأعظم فأرسل أحد الأسرى الأتراك برسالة يلوم فيها تركيا على دخولها الحرب ضد فرنسا ويؤكد للصدر حسن نية فرنسا نحو الباب العالى وفيها يدعو تركيا الى الخروج من زمرة الحلفاء وعقد الصلح مع فرنسا . فكأن نابليون لم يفتح باب المفاوضات مع الصدر لإخراج فرنسا من مصر بل لإخراج تركيا من صفوف الحلفاء . وفى التعليقات التى تركها نابليون لكليب يشير بونا بربت بأنه لا يجب التخلّى عن مصر الا عند الضرورة القصوى ، وعلى كل حال يجب التسك بها حتى يعقد الصلح العام بين فرنسا والحلفاء .

والخلاصة أن الحملة عند مغادرة نابليون للبلاد كانت معرضة لهجوم تركى شديد من جهة الحدود الشرقية رغم أن نابليون كان قد مهد طريق المفاوضات مع العدو .

مركزها الداخلي :

أما من الوجهة الداخلية فكان مركز الحملة لا يقل خطورة عن مركزها الخارجى وذلك لانتشار المماليك فى أنحاء القطر وتهديدهم القاهرة بعد أن أخلى "ديزيه" الصعيد قبيل موقعة أبى قير البرية ، أما الأهالى فكانوا على أهبة الاستعداد للقيام بالثورة ضد الفرنسيين وقد أثار حميتهم ما سمعوه عن الجيش التركى الكبير الزاحف على مصر من جهة الشرق ، وقد أبدى العلماء مجهودا يذكر فى تهدئة الشعب امتثالا لأوامر السلطة الفرنسية ولكن الأهالى ارتابوا فى إخلاص المشايخ وأضمرؤا لهم سوء .

كليبر وأعماله بمصر :

عرفت الجنود الفرنسية "كليبر" ببسالته فى موقعة "تل طابور" أثناء حصار عكا ، وقد كسب عطف الجنود بسبب الجرح الذى أصابه عند نزول الحملة بالاسكندرية ، غير أن أهم الأسباب التى حبت كليبر الى الجنود والضباط الفرنسيين أنه كان زعيم حزب الأغلبية الذى يقول بضرورة جلاء الفرنسيين عن مصر ، هذا فضلا عن حسن منظره وطلعته العسكرية الجذابة .

استاء كليبر أيما استياء لما بلغه خبر مغادرة نابليون سرا للبلاد وكتب لحكومته تقريرا مطولا يصف فيه ما وصلت اليه حال الحملة بمصر ويبالغ فى صيغ هذه الحالة بالصيغة السوداء حتى ملأ التقرير بعبارات كلها يأس وقنوط وفى نهاية التقرير طلب من الحكومة أن تسمح له بإجراء المفاوضات مع الأتراك بقصد الجلاء عن مصر .

مفاوضات الصلح :

وفعلا بدأ كليبر بمفاوضة الأتراك على احدى السفن أولا ثم عند العريش ، وكان مستشار الأتراك " السير سدننى سمث " واليه يرجع الفضل فى تمهيد طريق المفاوضات ووضع الاتفاق النهاى ، وكان " ديزيه " يمثل الفرنسيين . وبعد محاولات لم تجد من جانب الفرنسيين كطلبهم خروج تركيا من صفوف الحلفاء اتفق الطرفان على أن تخرج الحملة بمهماتهما على حساب تركيا ، وأن الحملة اذا وصلت فرنسا صارت طليقة من كل قيد ، وفى ٢٤ يناير سنة ١٨٠٠ . تمت الموافقة على " اتفاق العريش " وأعلنت الهدنة لمدة ثلاثة شهور وبدأ الفرنسيون يسحبون حامياتهم ويخلون الأماكن النائية التى كانوا يحتلونها ، وكانوا كلما أدخلوا مركزا اختله العثمانيون الذين كانوا رابضين على الحدود الشرقية بقيادة الصدر يوسف ضيا باشا .

نقض اتفاق العريش :

أثناء ذلك حدث ما أوقف حركة الصلح ، فبينما الفرنسيون يتأهبون لمغادرة البلاد ويخلون بحامياتهم عن بعض الأماكن كدمياط وبلبيس والصالحية وبينما الأتراك يتقدمون ويتوغلون داخل البلاد محتلين البلاد التى جلا عنها الفرنسيون اذا بخطاب وصل الى كليبر من القائد العام للقوات البريطانية فى البحر الأبيض يقول فيه إن الحكومة البريطانية لاتوافق على شروط " اتفاق العريش " وانها لاتسمح للفرنسيين بمغادرة مصر الا اذا سلموا سلاحهم كأسرى حرب وتركوا جميع معداتهم وذخائرهم للحلفاء .

أما سبب معارضة الحكومة الانجليزية لاتفاق العريش فهو سقوط التقرير الذى كان قد أرسله كليبر الى حكومته وفيه يصور مركز الحملة فى مصر بلون أسود قائم ، فلما علمت الحكومة الانجليزية بخروج الحملة فى مصر لم تقر " سدننى سمث " على عمله بل ولم تعترف بحق تمثيله لها أو للباب العالى . وكان رأى الانجليزى قد انقسم الى قسمين : قسم يقول بالموافقة

على اخراج الفرنسيين من مصر واعادة أملاك الدولة الى السلطان ويمثل هذا الرأي "سدنى سمث". والقسم الثانى يقول بعدم مساعدة الفرنسيين على الخروج من مصر لئلا يساعدوا جيوش فرنسا ضد الحلفاء وحتى يقضى عليهم فى إفريقيا، ويمثل هذا الرأي ويدافع عنه بشدة أمير البحر "نلسون". فلما وقع تقرير كليبر أو نسخة منه فى يد الحكومة صممت على مواصلة الكفاح فى مصر، وما كان أغناها عن تحمل نفقات هذا الكفاح من مال ووقت وأنفس لو أنها أقرت شروط اتفاق العريش سنة ١٨٠٠

أما كليبر فانه أظهر فى هذه الآونة هممة ومقدرة أعادت الى الأذهان ذكرى نابليون فى مصر فانه نشر صورة الخطاب على الجنود واكتفى بالتعليق عليه بهذه الكلمة :

"أيها الجنود لاجواب لنا على هذه الوقاحة إلا النصر فهيا الى الحرب !". فكانت هذه الكلمات بمثابة تيار كهربائى سرى فى نفوس الجنود فما كادت تقع عليها الأنظار حتى نادى الجميع ضباطا وجنودا بصوت وكلمة واحدة رنت فى الآفاق ! " الانتقام Vengeance ! " .

موقعة عين شمس :

هذه الحماسة وتلك الروح الحديدية جعلت عشرة آلاف جندى يهزمون أربعة أضعاف عددهم من الأتراك بقيادة يوسف ضيا باشا الصدر الأعظم شر هزيمة فى موقعة "المطرية أو عين شمس" فى ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠ إذ فر يوسف باشا ومن معه جهة الصالحية تاركين خزائهم ومؤنهم وذخيرتهم.

ثورة القاهرة :

وبينما كان كليبر يطارد الوزير ويعيد النفوذ الفرنسى فى الدلتا كانت القاهرة تغلى غليان المرجل بالثورة وخاصة فى حي بولاق فقد انتهم المصريون فرصة خروج كليبر والجزء الأعظم من جيشه لمقابلة العثمانيين فقاموا وحاصروا ما بقى من الفرنسيين داخل المدينة ، ثم ما لبث أن دخل المدينة

عدد من جنود الأتراك والماليك يبلغ ٦٠٠٠ وعلى رأسهم حسن ناصف باشا القائد العثماني ومعه زعماء المصريين الذين فروا الى الشام عقب واقعة امبايه وهم ابراهيم بك ومحمد بك الألفي وعثمان كتخدا وحسن بك الجسداوى ، فتحمس الناس من جميع الطوائف وتضافروا على انتهاز هذه الفرصة للقيام في وجه الفرنسيين فحاصروا قلاع الفرنسيين وأقيمت المتاريس وحفرت الخنادق وغلقت أبواب المدينة وتطوع الناس لحراسة هذه الأبواب ليل نهار وظهرت الحركة بأجل مظهر في مدينة القاهرة وفي بولاق ، فأنشئوا معملا للبارود في الخرنفش وكان "السيد المحروق" كبير التجار و"السيد عمر مكرم" نقيب الأشراف وباقي الأعيان والتجار "يياشرون الكلف والنفقات والمآكل والمشارب وكذلك جميع أهل مصر كل انسان سمح بنفسه وبجميع ما يملكه ، وأعان بعضهم بعضا ودفعوا مافي وسعهم وطاقتهم من المعونة" ولم يكن الأقباط أقل وطنية من المسلمين وقت الشدة فقد جاء أكابر القبط جرجس الجوهري وفتيوس وملطى فطابوا الأمان وقاموا بنصيبهم وقدموا المال اللازم ما عدا "يعقوب" الذي كرك في داره بالدرب الواسع (١) .

أما المشايخ الذين اتهموا بمبالاة الفرنسيين فنالهم أذى وإهانة بالغة من العامة . وقام الشعب في بولاق على ساق واحدة بقيادة "الحاج مصطفى البشتيلي" الذي أثار حماسة العامة فتهيئوا عصيهم وأسلحتهم ورمحوا وعملوا كرانك حوالى البلد ومتاريس واستعدوا للحرب والجهاد وقوى في رءوسهم العناد .

قمع الثورة :

ولما انتهى كبير من مطاردة فلول الأتراك وعلى رأسهم الوزير يوسف باشا دخل القاهرة وقطع الصادر والوارد وأحاطت جنوده بها وظل حصارها أكثر من شهر "حتى غلت أسعار المبيعات وعزت المأكولات

(١) وهو المعروف "بالجنرال يعقوب" الذي غادر مصر مع الحملة الفرنسية ومات في طريقه الى فرنسا .

واستمر ضرب المدافع والنيان ليل نهار والناس لا يهتلم نوم ولا راحة ومقامهم دائماً أبداً بالأزقة والأسواق. أما الصبية والنساء فمقامهم بأسفل الحواصل والعقودات تحت طباق الأبنية". وعلى الرغم من مجهودات المصريين وطول مقاومتهم أنحد الفرنسيون الثورة في بولاق فقتلوا على رجالها وأحرقوا بيوتها عن آخرها في ١٥ أبريل سنة ١٨٠٠

وكان مراد بك قد اصططح مع الفرنسيين على أضرارهم الأتراك وأعطاه كبير حكومة الصعيد تحت سيادة الفرنسيين فوسط هو والبرديسي أحد أتباعه للصلح فأرسل الفرنسيون يطلبون المشايخ واتفقوا نهائياً على أن يغادر الأتراك ومن يشاء من الممالك والمصريين الى سوريا على حساب فرنسا وبحراسة الفرنسيين أثناء الطريق ، فاستشاطت العامة غضباً وهموا بقتل رؤساء العثمانيين وحاول "المحروقي" و "عمر مكرم" أن يقودا العامة بمفردهما فلم يفلحا ، وانتهى الأمر بخروج العثمانيين وعساكرهم ومعهم من الممالك ابراهيم بك الألفي وأمرأؤهما وأجنادهما ، ومن المصريين السيد عمر مكرم والمحروقي وكثير من أهل مصر .

أما كبير فلم يشد في الانتقام من المصريين ولم يعاقبهم على ثورتهم كما عاقبهم نابليون اذا اكتفى بفرض غرامة حربية عظيمة مقدارها ١٠,٠٠٠,٠٠٠ فرنك كما أنه فرض على الوجه البحري غرامة قدرها ٧,٠٠٠,٠٠٠ فرنك ، وهذا مبلغ عظيم اذا ذكرنا سوء الحالة الاقتصادية في البلاد .

فلا عجب اذا لاقى الناس منتهى الضيق من جراء فرض هذه الغرامة "حتى اضطروا الى بيع متاعهم ومصاغهم فلم يجدوا من يشتري وضاق خناق الناس وتمنوا الموت فلم يجدوه ، ثم وقع الترحي في قبول المصاغات والفضيات فأحضر الناس ما عندهم فكانوا يقومونه بأبخس الأثمان " .

السكون بعد العاصفة :

ولما هدأت الحال شعر الناس والجنود باقتراب عهد سعيد جديد اذ انتظمت العلاقات بين مصر وفرنسا وصار البريد يصل الى مصر في كل

شهر ، وشرع كليبر يقوم باصلاحات جمة ويعيد تنظيم الحملة من جديد بعد أن كان قد لحقها الفشل ودب فيها ديب اليأس ، وأهم هذه الاصلاحات : إنشاء المصانع المختلفة بهمة " كتيه Conté " لإنتاج ما كان ينقص الحملة من مختلف الحاجات ، ثم إنه نظم " المجمع العلمى " وكون لجانا أرسلها في مختلف الجهات لمزاولة البحث وكتابه التقارير العلمية ، ومن أعماله أيضا أنه زاد في صفوف الحملة باضافة فرق جديدة من الطوائف الشرقية المسيحية وبنى الحصون والقلاع بالقاهرة والاسكندرية .

قتل كليبر :

وبينما هو مكب على هذه الاصلاحات اذا بشخص سورى اسمه " سليمان الحلي " قد انقض على كليبر أثناء ما كان يتنزه في حديقة منزله فطعنه بخنجره في قلبه فخر صريعا في ١٤ يونيه سنة ١٨٠٠ وعمره ٤٧ سنة وبفقده فقدت الحملة أعظم رجل يستطيع إنقاذها .

مينو :

و خلفه أقدم الضباط في الحملة وهو القائد " مينو Manou " وعمره اذ ذاك ستون سنة ، واشتهر مينو بحسن الادارة ودماثة أخلاقه وشدة تعلقه بنابليون ! وقد يظهر لأول نظرة أن " مينو " بسبب سياسته ومعارضته دخول كليبر في مفاوضات الصلح مع الترك ورفضه الدخول في هذه المفاوضات بعد موت كليبر أنه أصلح الضباط للرياسة . ولكن تعيينه في الحقيقة لم يثر حماسة الجنود بسبب تحوله الى الاسلام وزواجه من مسلمة . وليس من شك أنه كان أقل كفاءة من سلفيه وأنه لم يكن يصلح لقيادة الحملة لأنه بحكم نابليون لم يسبق له أن تولى قيادة الجيوش ضد العدو وما سبق أنه كسب موقعة قط . على أن مينو اضطلع بأعباء الحكم وسار في ادارته بكل حزم فنظم المالية ووجد صفوف الجيش وقضى على المنافسات الحزبية وقوى الحصون ، واستمر كذلك الى مارس سنة ١٨٠١ لم ينقص عليه سوى

شيء واحد، وهو عدم تبادل الثقة والتفاهم بينه وبين كبار الضباط في الحملة فان جهله بالأمور الحربية جعله يرتاب في آراء زملائه ويشك في اخلاصهم وحسن نيتهم نحوه، وهذا الشعور هو الذي سبب انهزام الحملة أمام الانجليز في النهاية .

والحقيقة أن الحالة كانت تتطلب تدخلا سريعا وحاسما من جانب نابليون لا سيما أنه كان على رأس حكومة القنصلية ، ولكن اهتمام نابليون بشأن الحملة أخذ يقل شيئا فشيئا كلما اتسعت دائرة مطامعه في أوروبا ، وكل ما حاوله أنه أرسل "فانتوم" سنة ١٨٠١ بحملة بحرية وهذا لم يجرؤ على اختراق البحر الأبيض فتركت الحملة وشأنها .

موقف الحكومة الانجليزية :

وكانت الحكومة الانجليزية قد تأكد لها ضعف تركيا وعجزها أمام الفرنسيين على أثر موقعة أبي قير البرية وموقعة عين شمس فصممت على الدخول في الحرب بنفسها ، ووقفت تقرب الحالة وتنامس الفرصة ، فلما قتل كليبر ، ورأس الحملة مينو اغتنمت الفرصة وعولت على بذل أقصى جهدها لإخراج الفرنسيين من مصر ، فأرسلت (أولا) حملة انجليزية مكونة من ١٧,٠٠٠ بينهم عدد كبير من الجنود المرتزقة برياسة "السير رالف أبركربي Sir Ralph Abercromby" ، (ثانيا) قوة برية عثمانية تهاجم مصر من جهة حدودها الشرقية بقيادة الصدر الأعظم يوسف ضيا ويبلغ عددها ٢٥,٠٠٠ ، (ثالثا) قوة بحرية عثمانية يبلغ عددها ٦٠٠٠ تستترك مع الحملة الانجليزية وتسير في فرع رشيد برياسة حسين باشا القبطان ، (رابعا) وأخيرا قوة هندية ترسلها حكومة الهند وتصل الى مصر عن طريق القصير وقنا وعددها ٦٠٠٠ بقيادة "السير دايفيد بيرد Sir David Baird" .

وفي أوائل مارس سنة ١٨٠١ نزل الانجليز عند أبي قير ولم يكن لدى "فريانت Friant" حاكم الاسكندرية الفرنسي سوى ١,٥٠٠ جندي لمواجهة العدو فلم يستطع ايقاده ونزل باقي الحملة الانجليزية وسرعان ما صار الطريق الى القاهرة مهددا .

سوء تدبير مينو :

أما مينو فانه أظهر ضعفا متناهيا وسوء تدبير وعنادا لا يتفق مع خطورة الحالة فانه أبى أن يستمع للتخيرات من الضباط وأصر على تقسيم قوات الحملة بدلا من جمع مالديه من القوات لمواجهة الانجليز ومنعهم من النزول أو التقدم الى القاهرة . ولكن مينو كان يخشى هجوم الأتراك من الناحية الشرقية فترك الحاميات محتلة داخلية البلاد كما ترك بالقاهرة قوة كبرى ، وفاته أن الأتراك لا يجرون على الزحف بمفردهم وأنهم سيتقدمون مع الانجليز خطوة بخطوة .

وعلى ذلك سار مينو شمالا ومعه قوة تبلغ ١١,٠٠٠ جندي وتقابل الطرفان في موقعة "قانونب Canope" جنوبي أبي قير وانهزم الفرنسيون فارتدوا الى الاسكندرية وتحصن "مينو" داخلها ، أما الانجليز فحسروا قائدهم أبركرمي وتولى بدله "هتشنسون Hutchinson" وساروا ببطء نحو الجنوب قاصدين القاهرة وكان الممالك قد انضموا الى الحملة وزادوا في عدد فرسانها ، ولما وصلت الحملة "الرحمانية" اتصل الانجليز بالحملة العثمانية السائرة في النيل وسقطت الرحمانية في أيدي الانجليز بعد مفاوضات مع الفرنسيين وبذلك قطعوا طريق الاتصال بين الحملة الفرنسية في مصر وقائدها مينو في الاسكندرية . وواصلت الحملة السير ببطء نحو الجنوب الى أن وصلت القاهرة في يونيو وكان الانجليز ينتظرون قيام معركة حامية مع الفرنسيين قبل دخول القاهرة ولكن لشدة مدهش الانجليز عندما علموا أن "بليارد Belliard" قائد الحامية طلب الصلح في حين أن عدد الفرنسيين كان يقرب من ١٦٠٠٠ من هؤلاء ٨٠٠٠ يستطيعون حمل السلاح .

تسليم القاهرة :

١ / أما الشروط التي سلم بها الفرنسيون في ٢١ يونيو سنة ١٨٠١ فهي عين الشروط التي كان قد اتفق عليها بالعريش في يناير سنة ١٨٠٠ وهي خروج الفرنسيين بعدهم وأسلحتهم على سفن العدو وترك الحرية لهم اذا عادوا

الى أوطانهم . وعلى أثر ذلك أخذ الفرنسيون يتأهبون لمغادرة البلاد ودخل
العثمانيون وأمراء المماليك القاهرة وبقى الانجليز معسكرين ببرالجيزة ١٠
وفي ذلك الوقت كانت الحملة الهندية التي خرجت من ”كلكتا“ في
ديسمبر سنة ١٨٠٠ قد وصلت الى الجيزة فلم تسترك في حرب ما ولكنها
سارت شمالا فساعدت في تضيق الحصار على ”مينو“ الذي أصر على
المقاومة للنهاية رغم تسليم ”بليار“ . ولولا اختلافه مع الضباط والجنود
وارتيابه في نيات البعض منهم ل طال أمد مقاومته الى وقت إبرام الصلح
العام اذ كان نابليون قد أتم صلح ”لونفيل“ مع النمسا سنة ١٨٠١ وبدأت
مفاوضات صلح ”أمين“ سنة ١٨٠٢ ولو استطاع ”مينو“ المقاومة
شهرين آخرين ل تم الصلح وفرنسا نصيب من الغنيمة ، ولكن ماء البحر
وبحيرة مربوط كان يحيط بمينو ، وكان الانجليز يضيقون عليه الحصار يوما
بعد يوم فاضطر الى التسليم في أول سبتمبر سنة ١٨٠١ ، وأخذ الفرنسيون
يفادرون البلاد حاملين معهم أبحاثهم وأوراقهم وأشياءهم ، وكان الانجليز قد
اشتروا أولا تسليم الأبحاث والأوراق اليهم فأبى العلماء وهددوا
بقذفها في البحر اذا أصر الانجليز على هذا الشرط وعند ذلك عدل الانجليز
عن طلبهم .

الفصل الخامس

نتائج الحملة الفرنسية

من الوجهة الحربية :

انتهت الحملة بعد أن بقيت بمصر ثلاث سنوات وثلاثة شهور ولم تكن لها نتيجة تذكر من الوجهة الحربية ، ولكن نتائجها السياسية والأدبية والاقتصادية كانت ذات شأن عظيم .

فمن الوجهة الحربية لم تحقق الحملة الأغراض التي قامت من أجلها فلا الحملة استطاعت أن تتصل بالمستعمرات الانجليزية في الشرق فتعمل معها على تقويض دولة الانجليز الاستعمارية ، ولا هي حاولت قطع الطريق بين إنجلترا والشرق بإنشاء قناة السويس والسيطرة عليها ، ولا تمكنت من تكوين مستعمرة فرنسية في مصر توازن ما لانجلترا من المستعمرات في الشرق . وأهم أسباب الفشل من هذه الوجهة تفوق القوة البحرية الانجليزية تفوقاً ظاهراً بعد تدمير الأسطول الفرنسي في موقعة أبي قير البحرية وقد ظهر أثر هذا التفوق أمام عكا وفي المحاولتين اللتين قامت بهما الحكومة الفرنسية لإنقاذ الحملة الأولى بقيادة "بروي Bruix" سنة ١٧٩٩ والثانية سنة ١٨٠١ بقيادة "غانثوم" ، ومن نتائج هذا التفوق التي كان لها أسوأ تأثير في مصير الحملة تضيق الحصار البحري على السواحل المصرية مما أدى الى كساد التجارة وسوء الحالة الاقتصادية العامة في البلاد .

الوجهة السياسية :

أما من الوجهة السياسية الدولية فانه منذ ١٩ مايو سنة ١٧٩٨ وهو اليوم الذي خرجت فيه الحملة الفرنسية من ميناء طولون قاصدة مصر ولدت "المسألة المصرية" وأخذت صبغتها السياسية فوراً لأنه اذا كان الاستحواذ

على الهند يعد مغنا اقتصاديا هاما فان الاستيلاء على مصر بعد أن استقر بأرضها نابليون بمثل تلك السهولة أصبح من المسائل السياسية الدولية الأولى التي ما فتئت تشغل بال الدول الى الآن ، ففرنسا وحدها هي الأولى التي اخترقت بصدق نظرها الحجب السميكة التي أخفت مركز مصر عن أنظار الدول في ذلك الوقت وهي التي عملت على أخذ العالم على غرة بالاستحواذ عليها ، وكانت مصر الى ذلك الوقت بعيدة عن أفكار الدول لايعلمون عنها الا أنها ولاية عثمانية شرقية ، فلما نجح الفرنسيون في احتلالها ورأت الدول ما يمكن أن تجنيه فرنسا من الفوائد التجارية والسياسية تآقت نفس كل منها الى التدخل في مصر وإحراز بعض الغنائم منها .

وما كانت الدول لترتبك بشأن مصر بسبب خصب أرضها أو جودة هوائها أو سوقها التجارية بل هناك أشياء خاصة تتنازع من أجلها الدول وهي المواصلات المختلفة ، والموقع الحربي ، والنفوذ السياسي فيها ، لأن مركز مصر في شرق البحر الأبيض المتوسط بين القارات الثلاث مع قربها لأوربا وسيطرتها على طريق الشرق ، وسهولة تهديدها لفلسطين والشام من الوجهة الحربية جعل لها شأنا دوليا زاده أهمية فتح قناة السويس وكشف منابع النيل في النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، هذا سبب اهتمام الدول وخاصة إنجلترا بأمر مصر .

أما إنجلترا ففقطت في الحال الى أنف لمصر مركزا حيويا بالاضافة الى علاقاتها مع مستعمراتها في الشرق ، وأنه اذا فاقها في مصر عدوها أمكنه أن يكيد لها كيذا عظيما ولذلك لم تأل جهدا منذ ذلك الوقت في انتهاز كل فرصة للتدخل في مصر ومحاربة من يتصدى لتقوية مركزه فيها دونها .

غير أن هذا العداء لم يؤثر في مركز فرنسا الأدبي بمصر بعد أن غادرتها الحملة اذ أصبح للفرنسيين المركز الأول في نظر المصريين وأصبحوا هم ممثلي المدنية الغربية والرقى ، واعتبر المصريون أنفسهم مدينين لفرنسا وتلاميذ لأبنائها فلما حان الوقت واحتاجت مصر الى رجال يصلحون شؤنها استعانت بضباط

فرنسيين في تنظيم جيوشها ، وبمهندسين فرنسيين في تنظيم ريلها وطرقها ، وبأطباء فرنسيين وأساتذة ومشرعين فرنسيين .

وبدأ الفرنسيون يزيدون في عدد من بقي منهم بعد ذهاب الحملة فأسسوا جالية كبيرة صناعية وتجارية وأصبحت الصلة التي تربط فرنسا بمصر أشبه بالصلة التي تربط الأستاذ بتلميذه ، وهذا يفسر كثرة الأموال التي دفعها الفرنسيون في القروض التي أصدرتها الحكومة وفي إنشاء قناة السويس ، وظلت فرنسا مدة قرن تقريباً حافظة نفوذها الأدبي إلى أن جاء الاتفاق الفرنسي الانجليزي سنة ١٩٠٤ فذهب بهذه الميزة .

ظهور المسألة العربية :

وكما أن الحملة الفرنسية على مصر كانت سبباً في ظهور المسألة المصرية في عالم السياسة الدولية كذلك كان وجود نابليون في مصر مدعاة إلى التفكير في تكوين وحدة عربية لجميع العناصر العربية الخاضعة لتركيا . وقد قوى هذه الفكرة في ذهن نابليون ما شاهده من العداء والخلاف المستحكم بين العنصرين العربي والتركي . ويدلنا على اهتمام نابليون بتنفيذ هذه الفكرة — فكرة تكوين دولة عربية مركزها مصر — عنايته باللغة العربية ونشره المنشورات المختلفة باللغة العربية واتفاقه مع الشعوب العربية في سوريا في أثناء حملته على تلك البلاد ، ومع أن الحملة قد باءت بالفشل فإن الفكرة ظلت قائمة وقد حاول تنفيذها "محمد علي" واستخدمها الحلفاء في الحرب العظمى ضد تركيا .

من الوجهة الداخلية :

أما من الوجهة الداخلية فقد كان المصريون قبل دخول الفرنسيين في مصر في سبات عميق ، بمعزل عن العالم المتمددين ، لا يعرفون عن المدنية الأوروبية شيئاً فأيقظتهم الهزة العنيفة من سبات كانوا فيه منذ العصور الوسطى وفتحت أعينهم لعصر جديد ومدنية جديدة تنطوي على معلومات وعدد وأفكار وأنظمة لا عهد لهم بها من قبل ، فأنس المصريون من هذا الضوء بريقاً لامعاً وتأسسوا في الهواء عنصرًا منعشاً من ناحية أوروبا فاندفعوا بالطبيعة نحوها وأصبحت أوروبا من ذلك الوقت موضع إعجابهم وارتهايمهم في آن واحد .

كذلك قضت الحملة على سطوة المماليك في البلاد وفلت شوكتهم وأظهرت ضعفهم وعجزهم أمام المصريين الذين رأوا لأول مرة في تاريخهم الحديث إمكان اعتمادهم على أنفسهم دون المماليك ، فقد كان من أول أعمال نابليون في مصر اشتراك المصريين في الحكم وتكوين المجالس الوطنية في القاهرة وفي الأقاليم لمساعدة الحكام العسكريين من الفرنسيين وقد أدخل مبدأ الانتخاب بدلا من التعيين في الوظائف الهامة . فترك للدويان الوطنى حق اختيار رئيسه وسكرتيه . ولما خلت وظيفة قاضى القضاة التى كان يشغلها أحد العلماء الأتراك دعى المشايخ الى اختيار شيخ مصرى يقوم بالوظيفة بدلا من القاضى العثمانى . وهكذا تمرن المصريون فى أثناء وجود الفرنسيين على أن يقرموا بنصيبهم فى حكم البلاد فكان لهذا التدريب أثره فى الحوادث المستقبلية .

من الوجهة العلمية :

أما من الوجهة العلمية فإن أهم وأبقى أثر تركته الحملة فى مصر هو ما خلفه العلماء من الأبحاث العلمية والعملية التى أضاءت الطريق أمام الباحثين ووضعت أساس تقدم البلاد العلمى والصناعى والاجتماعى . ومن حسن طالع البلاد أن جاء مع الحملة نوابغ النظرين ونوابغ العمليين فكان "منج Monge" أكبر رياضى جنب "ليبير Lepère" أكبر المهندسين و"كنتيه Conté" أذكى المخترعين . وقد ذكرنا أن نابليون بونابرت هو أول من كون المجمع وقسمه الى لجان مختلفة ، غير أن المجمع لم ينشط الا فى عهدى كليبر ومينى ، ففي ١١ نوفمبر سنة ١٧٩٩ كون كليبر لجنة كبرى لتنظيم عمل المجمع ووزعت الأعمال على اللجان الآتية :

- | | | | |
|-------|-----------------------------|--------|--------------------|
| (١) | للتشريع والديانة والعادات . | (٦) | للتجارة والصناعة . |
| (٢) | للادارة . | (٧) | للزراعة . |
| (٣) | لنظام الشرطة . | (٨) | للتاريخ الطبيعى . |
| (٤) | للتاريخ والحكومة . | (٩) | للائثار القديمة . |
| (٥) | للحالة العسكرية . | (١٠) | للليل والفيضان . |

فكان أعضاء اللجان يطوفون في الأقاليم والقرى باحثين منقبين مستعلمين من الأهالي والحكام عن كل ماله علاقة بموضوع بحثهم ، ومن أهم هذه الأبحاث درس مشروع وصل البحر الأحمر بالأبيض :

ان أول عمل قام به المجمع هو كشف أثر القناة التي كانت توصل البحر الأحمر بالنيل وفحص برزخ السويس بقصد انشاء قناة توصل البحرين ؛ وكانت اللجنة التي ذهبت لدرس المسألة برئاسة المهندس "Lepère" وقدزار نابليون هذه الجهات بنفسه مع اللجنة في ديسمبر سنة ١٧٩٨ . إما "ليبير" فانه كتب تقريراً فنياً وافياً في الموضوع أظهر فيه أهمية استخدام هذا الطريق وأفضليته على الطريق الأخرى الموصلة للشرق ، وقد استرشد "دلسبس" في المستقبل بهذا التقرير عند ما هم بتدفيذ فكرة وصل البحرين وذلك على الرغم من الخطأ الحسابي الذي وقع فيه "ليبير" وكانت نتيجته أن قال بأن مستوى المياه في البحر الأحمر أعلى منه في البحر الأبيض وانه يخشى أن يفيض الماء على أرض الدلتا اذا فتحت القناة .

ومن الأعمال المهمة أيضاً وضع خريطة جغرافية صحيحة للقطر المصري ، وقد تم وضعها في سنة ١٨٠٠ في عهد مينواذكون لجنة من المهندسين لمسح أراضي القطر وجمع المعلومات اللازمة لوضع الخريطة التي قام بوضعها نهائياً "جاكوتين Jacotin" .

ثم يلي ذلك من الأعمال : الأبحاث العلمية والطبية والفنية والمناخية والجيولوجية والمائية الخاصة بالنيل وفيضانه . وأهم هذه الأبحاث ما قاموا به في دراسة الآثار القديمة في "طيبة" و "إيدوس" أو "العرابة المدفونة" و "عين شمس" فقد وصفوا هذه الآثار وصفاً دقيقاً بقدر ما وصل اليه علمهم ونقلوا صورها بأيديهم ، وفي سنة ١٧٩٩ عثر الضابط الفرنسي "بوشار Bouchard" قرب رشيد على الحجر المعروف بذلك الاسم وعليه كتابة باللغات الثلاث الهيروغليفية والديموطيقية والإغريقية ، وظن العلماء حينذاك أنهم عثروا على مفتاح اللغة الهيروغليفية ، غير أن الحجر وقع بأيدي الإنجليز في أثناء حملتهم الأولى سنة ١٨٠١ فعادوا به الى لندن حيث حفظوه

فى المتحف البريطانى الى أن انبرى لتفسيره وحل طلاسمه العالم الأثرى الفرنسى "شمپليون Champollion" سنة ١٨٢٢ ومهد بذلك تكوين علم جديد أفاض النور على تاريخ مصر القديم هو علم الآثار المصرية "الاچيتولوجى"

أما الصناعات والمعامل التى أقامها الفرنسيون بمصر لتغنيهم عن مصنوعات أوروبا التى فقدوا أسباب الاتصال بها فكثيرة أهمها صناعة المنسوجات والورق والبارود وعمل آلات لسك النقود ورفع المياه وديغ الجلود وللمجراحة . وللمحكمة يرجع الفضل فى انشاء المستشفيات والمكاتب وطبع الجرائد وادخال المطبعة العربية التى قامت على أنقاضها مطبعة بولاق التى أوجدها محمد على ، ولهم فضل كبير فى تأديب عرب الصحراء الذين كانوا يغيرون على القرى وفى تحصين القاهرة وساحل مصر الشمالى وغير ذلك من الإصلاحات التى ، وإن لم تكمل اذ ذاك فانها ، كونت النواة التى تجمعت حولها إصلاحات محمد على فى المستقبل .

الفصل السادس

تنازع البقاء في مصر بعد الحملة

فرح المصريون وابتهجوا بخروج الفرنسيين ودخول الأتراك وحلفائهم من المماليك ولكن ما كاد الأتراك يستقرون بالبلاد حتى ساد الاضطراب واستقبلت البلاد في المدة من يونيو سنة ١٨٠١ و يونيو سنة ١٨٠٥ عهدا وصلت فيه القوضى الى درجة ليس لها مثيل فقد تعاقب عليها في هذه المدة سبعة حكام قتل منهم اثنان وطرد الباقون بعد أن سجنوا ، وفي هذه الفترة كاتب بعض المماليك حكومة فرنسا طالبن حمايتها واتفق آخرون على طلب حماية انجلترا ، وقد نزل في هذه المدة بمصر كثير من مختلف الجنود العثمانية : ارناؤود وانكشارية ودلاة تنازعوا فيما بينهم . وهناك عاملان ساعدا على ارتباك الحالة :

أولا — سوء الحالة الاقتصادية في البلاد وهذا أعظم ما كانت تشكو منه مصر في ذلك الوقت وذلك بسبب استمرار الحرب مدة ثلاث سنوات متتالية كانت فيها البلاد ميدانا للحرب أمام ثلاث قوات كبرى : الفرنسيين والعثمانيين والانجليز . ولا شك أن استمرار هذه الحروب وما ترتب عليها من قيام الثورات الداخلية واضطراب الأمن قد دعا الفلاح الى هجر مزارعه والصانع والتاجر الى ترك ووقف عملهما فاشتدت ضائقة البلاد الاقتصادية وعمد الحكام الى طرق القسر والاعتساف للحصول على المال اللازم .

ثانيا — تعدد السلطات التي خلفتها الحملة الفرنسية في مصر . فكانت القوة الانجليزية لا تزال باقية بقيادة "هتشنسون" في الاسكندرية و بقيادة "Ramsay" أمام القاهرة عند البحيرة . أما القوة العثمانية فكان يمثلها القبطان حسين باشا في الاسكندرية والصدر يوسف باشا ضيا في القاهرة . وهناك قوة المماليك التي كانت منتشرة في البلاد . وكانت كل قوة من هذه

القوى تعمل ضد الأخرى وتنتهز الفرص للتفوق عليها فضلا عن أن الأتراك والمماليك كانوا منقسمين شيئا ونزقا وأصبحوا في نزاع حزبي مستمر جر على البلاد مصائب جمة .

والآن نبحث في مركز القوات المختلفة بعد خروج الحملة :

العثمانيون :

بمقتضى المعاهدة التي تمت بين الانجليز والأتراك سنة ١٧٩٩ ضمنت إنجلترا لتركيا سلامة أملاكها كما كانت قبل دخول الفرنسيين مصر . ومعنى ذلك أن لتركيا أن تتسلم حكومة البلاد قانونا بعد خروج الفرنسيين ، والحقيقة أن الأتراك بذلوا جهدا عظيما في سبيل طرد الفرنسيين من مصر ، وقد شاهدنا أثر هذه الجهود عند عكا وأبي قير وعين شمس . ومع أن الفشل كان نصيب الأتراك في هذه الوقائع فإنها على كل حال تدل على عظم الضحايا التي بذلتها تركيا في سبيل استرداد مصر . لذلك اعتقد الأتراك أن المصريين مدينون لهم بحريتهم وبخلاصهم من "الكفرة" الفرنسيين وأنه يجب على المصريين في مقابل ذلك أن يتحملوا عن طيب خاطر مغارم الأتراك ومطالبهم من غير شكوى أو اعتراض . وكان الأتراك مصممين في هذه المرة أن يحكموا البلاد بأنفسهم دون أن يتمكنوا المماليك من استرجاع سلطانهم الأول . وذلك لأنهم اعتبروا أنفسهم فاتحين مصر من جديد فلهم أن يحكموا البلاد مباشرة من غير وساطة المماليك ، وعلى ذلك عاد الأتراك إلى حكم البلاد بطرقهم الأولى غير مكترئين بشيء سوى الاستحواذ على المال بكل الطرق ، ولما كانت موارد ثروة البلاد في تأخر مستمر بلأ جنود الأتراك إلى النهب والسلب والسطو على البيوت والأفراد والمحال التجارية . ومما زاد الحالة حرجا انقسام الأتراك إلى طوائف متعادية فكانت المعارك بين الجماعات والأفراد تشب في كل وقت وفي كل شارع مما أدى إلى إغلاق الحوانيت ومحال التجارة وتملك الفرع من النفوس .

الممالك :

أما الممالك فساعدوا الأتراك والانجليز في حملاتهم ضد الفرنسيين واليهيم يرجع الفضل في مناوأة القوات الفرنسية في الصعيد ونشر الدعوة من سوريا ومصر ضد الفرنسيين ، لذلك كانوا هم أيضا يمتنون أنفسهم بعد خروج الفرنسيين بأن ينالوا مركزهم القديم في البلاد لا سيما أنهم كانوا أعرف الهيئات بالبلاد وبطرق حكم الفلاحين وأكثرهم دربة على حكومة البلاد. وقد كان في استطاعتهم حقا أن يحسنوا مركزهم ويستعيدوا سلطانهم لو أنهم غيروا طرق حكمهم الأولى وفهموا ضرورة استمالة الشعب اليهم بعد أن تدرب على الاشتراك في الحكم وعرف قوته وحقوقه في أثناء حكم الفرنسيين .

ولكن الممالك "كأسرة البوريون" في فرنسا بعد عودتها الى الحكم لم تتعلم شيئا من محنها ولم تنس شيئا من ماضيها ، ففشل الممالك كما فشل الأتراك . وترجع أسباب فشلهم الى ما يأتي :

(١) قصت الحملة الفرنسية على نفوذ الممالك فقللت من عددهم وأضعفت من جانبهم ، ولما لم يكن في استطاعتهم شراء الرقيق من الخارج ملء صفوفهم بسبب معارضة الباب العالي الذي كان يسيطر على أسواق الرقيق وبلاده اضطروا الى استخدام بعض الأعراب ومع ذلك فان عددهم لم يزد كثيرا على ٤٠٠٠ ومثلهم من البدو .

(٢) انقسم الممالك أحزابا فظهر بينهم حزب يمالي الانجليز وزعيم هذا الحزب محمد بك الألفي ، وحزب آخر يعارض الأول في سياسته ويريد أن يتقرب الى الفرنسيين ، وأنصار هذا الحزب من أتباع مراد بك الذي مات سنة ١٨٠١ وخلفه "الطمبورجي بك" ثم "البرديسي بك" .

(٣) كره الأهالي لهم بسبب سطوهم على القرى ورغبتهم في التمتع بخيرات البلاد دون غيرهم من العناصر .

(٤) مناوأة الأتراك للممالك ورغبتهم في التخلص منهم إما بالدسياسة وإما بالحرب .

مؤامرة الأتراك ضد المماليك :

وفعلا أبدى الباب العالي في أول الأمر رغبته في أن يتمكن ممثلو سلطته من الإيقاع بالمماليك ، وتنفيذاً لهذه الرغبة دعا حسين باشا القبطان في الاسكندرية "الطمبورجى بك" خلف مراد بك لزيارته على إحدى سفن الأسطول بأبى قير هو وأتباعه ، وأرسل يوسف ضيا باشا في القاهرة الى ابراهيم بك وأتباعه دعوة أخرى لزيارته في معسكره ، وقد قتل عدد منهم في أبى قير في عرض البحر ، ومن الذين قتلوا الطمبورجى بك زعيم المراديين ، ولكن تدخل القائد "هتشنسون" وخلص الباقيين . وكذلك في القاهرة تدخل القائد الانجليزى "رمزى" وخلصهم من فتك العثمانيين بهم .

بعد ذلك لم يأمن المماليك البقاء في القاهرة مع العثمانيين ، ووطنوا أنفسهم على محاربتهم حتى النهاية . وخلف الطمبورجى "عثمان بك البرديسى" وهو من أقوى زعماء المماليك وأحسنهم سياسة فبدأوا يشكون الى نابليون سوء حالهم وكتبوا اليه يقولون إنه هو الذى أوصلهم الى حالة البؤس والضعف التى هم فيها ، ويرجون أن يساعدهم في اعادتهم الى سلطانهم الأول ويسمحون له مقابل تدخله بأى امتيازات يرضاها ، غير أن نابليون كان قد شغل عن مصر بمطامع أخرى فلم يأبه لصرخة المماليك ، وسرعان ما قامت الحرب بينهم وبين الأتراك .

الكفاح بين الأتراك والمماليك :

وكان "محمد باشا خسرو" أول وال عثمانى عين بعد خروج الحملة قد أرسل جيشاً لمحاربة المماليك فانهزم الجيش عند بنى سويف وانتشر المماليك في الوجه البحرى وتحصنوا عند دمنهور واتصلوا بالانجليز الذين كانوا بالاسكندرية والذين ما فتئوا يعضدونهم وخاصة بعد اتفاق نابليون وتركيا ، فانتصر البرديسى انتصاراً عظيماً على الأتراك عند دمنهور في نوفمبر

سنة ١٨٠٢

ولكن الإنجليز لم يستمروا طويلا بالبلاد اذ اضطروا الى مغادرتها عقب صلح "أمين" بين فرنسا وانجلترا وعلى ذلك سرعان ما ضعف مركز الممالك وظلوا كذلك الى أن انضم معهم محمد علي فرجحت كفتهم على الأتراك ولكنه عاد فانقلب عليهم وما زال بهم حتى قضى عليهم .

موقف الانجليز :

بقيت القوات الانجليزية محتلة سواحل البلاد وموانئها الى أن تم صلح أمين سنة ١٨٠٢ بين انجلترا وفرنسا وبه نزل كل جانب عما احتله في أثناء الحرب ، وتحتم على أساطيل انجلترا وجنودها الخروج من مصر وتم ذلك فعلا في مارس سنة ١٨٠٣ ، غير أن السياسة الانجليزية بقيت تعمل في مصر . هذه السياسة كانت ترمى الى الاحتفاظ بنفوذها السياسى في البلاد ومنع تفوق أية حكومة غير محالفة لانجلترا حتى لا يتأثر مركزها السياسى وتعرض مصالحها التجارية والاستعمارية للخطر وهذا كله بسبب أهمية مصر بالنسبة لمواصلات الامبراطورية الانجليزية في الشرق .

واعتمدت انجلترا في أول الأمر على أن مخالفتها مع تركيا تجعل نفوذها السياسى في مصر متفوقا على نفوذ أية دولة أخرى . غير أن صداقة تركيا لانجلترا لم تدم طويلا بعد خروج الفرنسيين من مصر اذ سرعان ما تمكن نابليون من كسب تركيا بجانبه بفضل مساعى سفيره في القسطنطينية "سباستيانى Sebastiani" وخرجت تركيا من المحالفة ضد فرنسا .

عند ذلك عولت انجلترا على استخدام الممالك في مصر لمصلحتها ، وقد شاهدنا كيف أن الممالك كانوا متصرفين على الأتراك بفضل معاضدة الانجليز لهم ، وقبل أن يغادر الانجليز البلاد كؤنوا حزبا يعمل على تنفيذ السياسة الانجليزية في مصر ولهذا الغرض أخذوا معهم عهد الألفى بك زعيم الحزب الى انجلترا حيث أكرموه وقدموا اليه الهدايا الفاخرة ومنوه بالسعى لدى الباب العالى حتى يتسلم الممالك مقاليد الأمور بمصر واذا ما تم لهم ذلك تركوا حماية السواحل الشمالية للأسطول البريطانى .

غير أن الألفى بك لم يفلح في سياسته بعد عودته وذلك لمعارضة زعماء المماليك الآخرين عثمان بك البرديسى وإبراهيم بك اللذين اتفقا مع محمد على وتمكنا من قهره ، ولما طاش سهم الانجليز سعوا لدى الباب العالى بأن يصدر أمره بطرد محمد على من مصر ومعه جنوده الأرثوود ، ولما أخفقت هذه الخطة كشفت انجلترا القناع وأرسلت حملة القائد ”فرير Fraser“ سنة ١٨٠٧ لغزو مصر .

موقف فرنسا :

أما فرنسا فظلت مرتبطة بمصر أدبيا ولكنها سياسيا لم تهتم بشأن مصر لاستغلال نابليون بمطامعه وحروبه في أوروبا ، غير أن الحكومة الفرنسية أدركت من أول وهلة أن هناك عنصرا جديدا يعمل لمصاحبة المصريين ضد الأتراك والمماليك ويطمح الى تنفيذ وتتميم الخطة والعمل الصالح الذى بدأه بوناپرت في الشرق ، لذلك عملت على معاضدته منذ الساعة الأولى ، هذا العنصر الجديد الذى ظهر في أفق مصر هو ”محمد على“ .

محمد على :

كل هذه القوات والفئات فشلت ولم تستطع حكم البلاد لأنها لم تستمد قوتها من أهل البلاد ولم تدرك روح القومية الجديدة التى تجلت بين الشعب المصرى بسبب تدريبه على العمل مع الفرنسيين الذين أشركوه في الحكم ، ونجاح فرد واحد لم يكن شيئا مذكورا بجانب قوات المماليك والأتراك لأنه أدرك بحذقه وثاقب فكره مظاهر الوطنية المصرية الناشئة فعمل معها ولها ، وكسب لنفسه ولذريته ملكا وطيذ الأركان ، هذا الفرد هو ”محمد على الأكبر“ .

طفولة محمد على :

ولد محمد على في مدينة ”قوله“ في بلاد الرومللى أو مقدونيا وهى الآن تابعة لليونان ، وذلك في سنة ١١٨٢ هجرية أو سنة ١٧٦٩ ميلادية ، وليس لدينا من المعلومات ما يؤيد صحة هذا التاريخ سوى تأكيد محمد على نفسه

إذ كان يجد غبطة ونفرا في أنه ولد في نفس السنة التي ولد فيها "نابليون" و"ولنجتن".

وقد جرت عادة مؤرخي عطاء الرجال أن ينسجوا حول أبطالهم ، وهم لا يزالون بعد أطفالا قصصا وحكايات وخيالات تلبي عما هو محبوب لهم في المستقبل من عظم الجاه ورفعة الشأن . وقد ذكر الكاتبون والمؤرخون حزل طفولة محمد على حكايات مختلفة ستقص بعضها لا لأننا نعتقد صحتها ولكن لأننا نرى فيها دلالة على صفات محمد على التي ميزته في حياته :

وقد حكى محمد على عن نفسه مرارا أنه ولد لأبوين فقيرين وأنه الابن الوحيد الذي عاش لأبويه ، وأن أبويه لم يدنرا جهدا في تربية وحيدهما ولكن زملاء من الأطفال كانوا يرثون لهذا الابن الفقير ويقولون : "ما ذا يا ترى يفعل هذا الطفل لو مات أبواه ، إنه لم يملك شيئا ولا يستطيع الكسب بنفسه". فكانت هذه الكلمات اذا وصلت الى آذان محمد على ألهمت غيخته وأثارت همته وحاسته ، فكان لا يترك فرصة تمر من غير أن يظهر فيها تفوقه على أقرانه مهما لاقى وعانى في سبيل ذلك .

وحكى أنه خرج مرة مع رفقائه في سياحة في البحر الى إحدى الجزر القريبة ، وبينما هم يسرون اذ هبت العاصفة فأرغى البحر وأزبد وتضخمت أمواجه وعلت وهبطت فلم يستطع أقرانه المضى في السياحة ونزلوا عند صخر قريب وبقى محمد على بمفرده وهو يعمل في القارب بيديه حتى أدماهما ولكنه في النهاية وصل الى الجزيرة بمفرده ، وقد صارت هذه الجزيرة ملكا له في المستقبل وهي جزيرة "طاشيوز".

كان أبوه ابراهيم أغا بن على من جنس تركي يقوم بوظيفة رئيس الحرس في قوله فلما مات وكان الابن طفلا كفله عمه طوسون ، ثم لما مات طوسون بعد قليل كفله حاكم المدينة "الشوريجي" لما أنسه في الطفل من الذكاء والصفات المتنازة ويقول البعض لقراءة بعيدة بين الأسرتين فتربى محمد على

مع ابن الشوريجي على أعمال الفروسية كركوب الخيل واستعمال السيف .
ومن الذين أكرموا مثنوى الولد اليتيم وعطفوا عليه أيام صباه تاجر فرنسي
اسمه "المسيو ليون" من مرسيليا كان يتاجر في الدخان في قوله منذ
سنة ١٧٧١ ، فكان يجد على يتردد عليه ويتعلم منه أساليب التجارة ، وقد
حفظ مجد على جميل المسيو ليون في مستقبل أيامه ولم ينس معروفه عليه على
الرغم مما وصل اليه من دولة وصوله ، فأخذ يسأل عنه وعن مقره حتى اهتدى
الى عنوانه سنة ١٨٢٠ وأرسل يدعوهُ الى مصر ، وقد تأهب ليون للسفر
فعلا ولكنه مات قبل أن ينفذ عزمه ولما علم محمد على خبر موته كتب
يعزى أخته وأرسل اليها هدية قيمة .

ومن الحكايات التي يذكرها المؤرخون والتي تظهر ما أوتيهِ محمد على من
الدهاء والحزم والجرأة أن أهل قرية "بروسطه" امتنعوا عن دفع المال
المطلوب فتكرر الشوريجي واستعصى عليه حل المشكلة لعدم ميله الى استعمال
طرق العنف ، فتقدم محمد على وأخذ على نفسه مهمة اخضاع بروسطه ،
وجمع المال المطلوب ، فأخذ معه عشرة رجال مسلحين وذهب الى
"بروسطه" وقصدوا الى مسجد فاضلى وأرسل يطلب أربعة من كبار
أعيان القرية لتسليمهم أمرا يهملهم ، فأسرع الرجال بالحضور وحال دخولهم
أشار محمد على الى رجاله بالقبض عليهم فتجمعهم أهل القرية حول محمد على
طالبين اطلاق سراح الأعيان ، فوقف محمد على وسط رجاله وهددهم
بذبح الأعيان اذا هم هبوا بتخليصهم ، وعلى ذلك قاد الرجال معه الى قوله ،
وفي الصباح جاء أهل القرية يدفعون الأموال المؤخرة ليخلصوا أعيانهم من
الأسر .

لذلك ولما أظهره محمد على من الهمة وصدق النظر والحكم في الأمور
كافاه الحاكم برتبة "يوز باشي" وزوجه باحدى قريباته وكانت أرملة
ذات ثروة فولد له منها خمسة منهم ثلاثة ذكور هم "ابراهيم" و "طوسون" و
و "اسماعيل" ، الأول سماه باسم والده ، والثاني باسم عمه ، والثالث باسم
مربيهِ الشوريجي . ويظهر أن زواج محمد على بالأرملة وولادة ابراهيم

في نفس السنة التي تزوج فيها قد دعا الى القول بأن ابراهيم لم يكن ابنا حقيقيا لمحمد على بل هو ابن متبنى ، وهذه الدعوى لا تستند الى أدلة ثابتة ، والحقيقة التي اتفق عليها أكثر الرواة والمؤرخين والتي ذكرها محمد على كثيرا هي ما أثبتناه ، ويؤيد هذا الرأي تقارب الشبه بين الوالد وابنه ووجود أبناء آخرين لمحمد على غير ابراهيم ، وبقاء العلاقات بين الاثنين على أحسن ما تكون العلاقات بين ابن بار وأب رحيم ، وأخيرا اعتراف الباب العالي رسميا بهذه النسبة .

وبسبب الثروة التي كانت لزوجته زاول محمد على مهنة التجارة في السلعة التي اشتهرت البلاد بانتاجها وهي الدخان ، وقد قضى محمد على سنين طويلة في عيشة منزلية هادئة مجدا مثابرا في تجارته ، عاملا على تربية أبنائه وبناته ، ولم يخطر بباله قط أنه سيأتي يوم يهجر فيه التجارة والوطن ويقوم في حملة حربية الى بلد بعيد (١) .

وقد جاء هذا اليوم في سنة ١٨٠١ حينما اتفقت انجلترا وتركيا على بذل أقصى مجهود ممكن لإخراج الفرنسيين من مصر فكان محمد على ضمن القوة التي قامت مع القبطان حسين باشا وسارت في فرع رشيد بالاشتراك مع الحملة الانجليزية التي كان يرأسها "هتشنسن" ، وقد كان محمد على وابن الشوريجي على رأس القوة التي جاءت من "قوله" فلما عاد ابن الشوريجي لأسباب لا نعلمها صار محمد على رئيسا للقوة برتبة "بمباشي" ، ولما حاصرت الحملة الانجليزية حصن الرحمانية اشترك محمد على في الموقعة وشاهد لأول مرة أساليب الحرب الحديثة ، وقد أبدى محمد على من الشجاعة ما جعل "القبطان باشا" يرقيه الى رتبة "قائد" وقد كافأه حسين باشا فوق ذلك بأن جعله في معية خسرو باشا حاكم مصر العتيد .

(١) ومن الغريب أن محمد على لم يشر في محادثاته الى تفاصيل هذا الطور من حياته مع أن تدريبه في التجارة كان له أعظم أثر على حياته السياسية اذ مكنته غريزة التاجر من الانتفاع بموارد البلاد زراعيا وصناعيا وتجاريا وبذلك حصل على الثروة اللازمة لإنشاء دولة على أقوى وأمتن القواعد .

وقد كانت العلاقات بين محمد على وخسرو باشا في أول الأمر على أحسن ما تكون الى أن كانت موقعة "دمنهور" التي انهزم فيها الأتراك ، وكان محمد على على مقربة من مكان الموقعة ولكنه لم يتحرك للمساعدة اتكالا على تفوق الأتراك من حيث العدد ، فلما علم خسرو بذلك حنق على محمد على وأضمر له الانتقام فطلبه لمقابلتة ليلا فأجابه محمد على أنه سيحضر نهارا ومعه جنوده .

خطة محمد على المبدئية :

هذا تفسير سياسة محمد على الأولى التي أوصلته الى مركز الحاكم في مصر وذلك أنه رأى تهاة الأغراض التي يقاتل من أجلها الطرفان . فالوالى كان يريد اخضاع المماليك ليجعل مصر تحت سيطرة الباب العالى ويرسل منها كل سنة من المال أكثر ما يستطيع ارساله ليبقى في منصبه . والممالك من جهة أخرى كانوا يريدون أن تكون مصر لأنفسهم ينعمون بخيراتها ويسومون أهلها صنوف العذاب ، وفي كلتا الحالتين خراب مصر واضمحلالها وانحطاطها ، لذلك عول محمد على على ألا يساعد في تقوية حزب دون آخروصمم على ألا يعمل الا لما فيه نفعه الشخصي ، وكان قد دبر في نفسه أن ينتفع بمركز مصر وخصب أرضها وما فطر عليه أهلها من الولاء والسكينة فيبنى لمصر ولنفسه مركزا عاليا ومجدا مؤثلا . فلما اذا اذن لا يترك محمد على هذه الفئات تتطاحن حتى تسنح الفرصة . وفي أثناء ذلك يمكنه بدهائه وحزمه وعقله وبعد نظره أن يعد العدة لنفسه ، هذا ما عول عليه محمد على وهو الانتفاع بما يسنح من فرص والسعى لتنفيذ أغراضه لمصلحة مصر .

ثورة الجند على خسرو :

وكان "خسرو" قد أمر الجنود بالمسير الى الصعيد لمطاردة المماليك الذين رحلوا الى الصعيد وحاصروا "المنيا" وعاثوا فسادا ونهبوا وخربوا القرى والبلاد فأبى الجند السير حتى يعطوا روايتهم المتأخرة ، ولما لم يجابوا الى

طلباتهم تجمهروا فصوب عليهم خسرو المدافع ، غير أن "أحمد باشا طاهر" رئيس الحركة قاد الأرئود وهزم خسرو ففر هذا الى دمياط وعين طاهر باشا واليا مؤقتا حتى يصدر أمر الاستانة بتوليته ، ولكن قامت قيامة الانكشارية وكانوا في القاهرة مع قائدهم "أحمد باشا" ، والى المدينة الذى كان يجتاز مصر وهو في طريقه الى بلاد العرب ، فطلبوا رواتبهم أيضا وقامت الحرب بينهم وبين الأرئود فدخل اثنان من الانكشارية وقتلا "طاهرا" وتولى أحمد باشا الحكم وأرسل يستميل محمد على الذى أصبح بعد موت "طاهر" قائد الأرئود وكان عددهم نحو من ٤٠٠٠

اتفاق محمد على والمماليك :

ولكن محمد على لم يجبه الى طلبه بل دعا من زعماء المماليك عثمان بك البرديسى وابراهيم بك فحضرا ، ودخل المماليك القاهرة بعد الاتفاق مع محمد على ، وتسلموا مقاليد الأعمال وطردهوا الانكشارية وأحمد باشا الذى واصل السير الى مقر حكمه في بلاد العرب ، أصبح الأمر بأيدي المماليك في الظاهر ولكن كل شئ كان يعمل بإشارة محمد على ، فتقرب اليه الأعيان والمماليك والمشايخ وسار "البرديسى" وقبض على خسرو واعتقله في القلعة ، وبدأ محمد على والبرديسى يتحبيان الى الناس ففتحوا مخازن الغلال ووزعوا الصدقات على الفقراء . كل هذا والوالى الجديد "على باشا الجزائرلى أو الطرابلسى" بالاسكندرية يخشى الحضور الى القاهرة ، ويكتب المماليك ليتفق معهم وأخيرا سار الى القاهرة ومعه عدد عظيم من الجنود ففطن المماليك لغرضه وترصدوه في الطريق وأجبروه على الرجوع الى سوريا ثم قتلوه في الطريق . وبعد ذلك حضر الألفى الكبير من انجلترا نخشى البرديسى ومحمد على عاقبة اتفاهه مع الحكومة الانجليزية ، وكانت مصلحة المماليك تقضى عليهم اذ ذاك بالاتحاد ، ولكن البرديسى كان واثقا وثوقا تاما من محمد على فلم يهتم بذلك وعمل على تشتيت قوى الألفى الذى لم يسعه سوى الاختفاء .

التخلص من الممالك :

بعد ذلك قامت ضجة الألبانيين أو الأرثوود وطلبوا رواتبهم فأحاطهم محمد على بالممالك اذ كان تاركا كل شيء في أيديهم ظاهرا ، ففرض البرديسي ضرائب جديدة وأرسل رسله لجمعها فذعر الناس وقاموا صاخبين وبتخط العلماء والمشايخ على تصرفات الممالك وثار الجنود عليهم ، عند ذلك خاف محمد على أن يكيد له الممالك كما يكيد هو لهم فلم يجد مناصا من كشف الحجاب وإظهار نيته ، فأرسل في مارس سنة ١٨٠٤ جنودا لحصار البرديسي في منزله وآخرين لحصار ابراهيم بك ، فما تنفس الصبح إلا والممالك قد فروا من وجه محمد على ورحلوا مع زعمائهم من القاهرة وبذلك تخلص محمد على من مشاركة الممالك له ، ولم يبق بينه وبين غرضه النهائى الا خطوة واحدة وهى تسلم مقاليد الحكم في يده .

احتراس محمد على :

ولكن ذلك الباشا الحذر رأى أن الفرصة غير سانحة ، فأملت عليه سياسته الدقيقة أن يترث ، فعمد الى القلعة وفك أسر خسرو باشا وبعمله هذا برهن أمام الشعب المصرى أنه لم تكن له أغراض شخصية من فعلته وانه انما قام بعمله خدمة للصالحه المصريه ، وأظهر كذلك ولائه للسلطان وعدم تأمره مع الممالك على الباب العالى ، وبذلك حسن محمد على مركزه في نظر الباب العالى وفي نظر الشعب المصرى .

بين محمد على وخورشيد :

ولكن حيلة محمد على لم تنجح ، لأن أقرباء طاهر باشا ثاروا على خسرو وأنزلوه في قارب الى رشيد ومنها الى القسطنطينية . واستعمل محمد على الدهاء والصبر مرة ثانية فعين " أحمد خورشيد " حاكم الاسكندرية واليا . فوصل خورشيد واشتبك محمد على في وقائع ضد الممالك وأخذ يطاردهم

في الصعيد ، وفي أثناء ذلك بلغه أن خورشيد استقدم جندا من الشام يعرفون "بالدلاة" ليعاونوه ضد الأرناؤود ففطن محمد على لغرض خورشيد وعاد إلى القاهرة ، وكان "الدلاة" قد انتشروا في البلاد وفي المدينة يعيشون فسادا ، وأراد خورشيد ترحيل الألبانيين ومعهم محمد على ولكن هؤلاء أبوا وأخيرا وصل الأمر بتولية محمد على على ولاية "جده" فأبى محمد على أولا وامتنع عن الدخول في القلعة فنزل الوالي في بيت صديق لمحمد على وألبسه شارات الحكم ، وعاد محمد على إلى منزله ناثرا الذهب في طريقه بين الناس الذين اجتمعوا لتحيته .

أساس نهضة مصر الحديثة :

وبعد ذلك بثلاثة أيام كانت الجنود "الدلاة" قد أتت مخازى استفزت غضب العلماء والأهالي فقام المشايخ والعلماء والصناع في ٥ صفر سنة ١٢٣٠ هـ (مايو سنة ١٨٠٥) برياسة "السيد عمر مكرم" والشيخ عبد الله الشرقاوى وساروا في موكب عظيم إلى منزل محمد على وطلبوا عزل خورشيد باشا ، فسأهم محمد على عمن يريدون توليته بدله ، فقالوا "لا نرضى إلا بك وتكون واليا علينا بشروطنا" وتقدم السيد عمر والشيخ الشرقاوى وألبسوا "الكرك والقفطان" وهما شارات الحكم ، ثم سار الجميع نحو القلعة فأبى خورشيد النزول وقال إنه معين من قبل السلطان بخطه الشريف فلا ينزل عن كرسيه بأمر "الفلاحين" واستمر في القلعة يحاصره الأرناؤود تارة وأخرى المصريون الذين تقدموا لخدمة محمد على ، حتى حضر مرسوم السلطان بتولية محمد على حكم مصر في يولييه سنة ١٨٠٥ ، فأذن عن خورشيد للأمر .

مشاكل محمد على :

وصل محمد على إلى غرضه الأساسى ولكنه وجد نفسه في مركز لا يقل خطورة عن مركز سابقه في الحكم فكان أمامه الممالك في الصعيد يتمددونه ويبدلون كل شيء في سبيل طرده من مصر ، فلم يكتفوا بالكتابة إلى

خورشيد باشا يعلمونه باستعدادهم لتعريضه ضد محمد علي ، بل سعوا سعيًا متواصلًا لدى ممثل إنجلترا يطلبون مساعدة الحكومة الانجليزية وحض السلطان على استدعاء محمد علي وإعادتهم الى مراكزهم . كذلك كانت أمامه مشكلة دفع رواتب جنوده المتأخرة . فكان احتياج محمد علي للمال عظيمًا لمقاتلة المماليك ولإعطاء الجنود رواتبهم ولتقديم الهدايا للباب العالي ، غير أنه اتبع في ذلك سياسة حكيمة وهي أنه أظهر لأصحابه من المشايخ والعلماء ضرورة جمع المال منعا لتألب الجنود واستعدادا لهزيمة المماليك أعداء المصريين ، وبفضل هذا الاتفاق في الغرض حصل محمد علي على الأموال اللازمة من غير أن يعرض نفسه لكره الشعب . على أن هذا لم يمنعه أحيانا من الالتجاء الى الطرق القهرية القديمة في جمع المال .

محاولة نقل محمد علي :

أما من جهة المماليك فقد استعملت الحكومة الانجليزية سياسة الضغط على حكومة القسطنطينية حتى أرسلت عفوا عن المماليك وأسطولا عظيما يحمل "موسى باشا" واليا جديدا على مصر ومرسوما بنقل محمد علي الى ولاية "سلا نيك" . فظاهر محمد علي بالقبول ولكنه استعان بنفس القوة التي نصبته حاكما ، فترك المشايخ والعلماء وكتبوا التماسا للسلطان وللقبطان الاسطول يطلبون فيه ابقاء محمد علي ويبدون عجزهم عن ضمان المماليك اذاهم عادوا الى حكم البلاد . وظل الألفى يكتب القبطان ويرسل اليه الهدايا والقبطان يشدد على محمد علي وجنوده بالخروج من مصر . الى أن دعا القبطان أمراء المماليك اليه وانتظر فلم يحضر أحد من الزعماء لاختلافهم في الرأي ، ومالبت أن رأى بشاقب بصيرته ماعليه المماليك من تفرق الكلمة والشقاق اذ أبى البرديسي أن يشترك مع الألفى في الاستجداء بإنجلترا ، فزل القبطان عن رأيه الأول وكتب يؤيد محمد علي فأرسل محمد علي الهدايا الى السلطان مع ابنه ابراهيم وكتب خطا با يتعهد فيه بكل ماطلبه الباب العالي من المماليك فيدفع ٤٠٠٠ كيس (في كل كيس خمسة جنيهات مجدية)

كل سنة زيادة على قيامه بالحج ونفقاته . وثبتت محمد على في ولاية مصر في نوفمبر سنة ١٨٠٦ ، وبثبته انقضى حكم تركيا لمصر مباشرة وأصبح أمر مصر بيد محمد على .

استنجد المماليك بالإنجلترا :

غير أن الأتلى لم يقلع عن سياسة المناوأة فأرسل يستنجد بالحكومة الإنجليزية التي وعدته في هذه المرة بإرسال حملة إنجليزية مكونة من ٦٠٠٠ جندي تعمل بالاشتراك مع المماليك . فظل الأتلى يترقب وصولها عند دمهور ، ومجد على يرسل ضده قوة بعد أخرى فكانت تنهزم في كل مرة . وأخيرا مات البرديسي في نوفمبر سنة ١٨٠٦ ففرح محمد على كثيرا وما لبث أن تضاعف سروره بموت الأتلى في يناير سنة ١٨٠٧ ، وأيقن أن مصر قد أصبحت له فأخذ محمد على ينظر في إصلاح الأحوال في مصر وجمع من المال ما أمكنه جمعه من الأقباط والعلماء والتجار .

مظاهرة بحرية ضد تركيا :

ولم يكد محمد على يشرع في الإصلاح حتى دهمه خطر جديد وهو بلا شك أول صدمة قوية واجهته في أوائل حكمه . وذلك أنه لما أعيت إنجلترا الحيل في تثبيت نفوذها في مصر بواسطة المماليك عمدت الى استعمال القوة ، فأرسلت أولا حملة بحرية ضد تركيا في سنة ١٨٠٧ بقيادة أمير البحر "دكورت Duckworth" لترغم تركيا على التخلي عن محالفتها لنابليون . وعلى الانضمام مع روسيا وإنجلترا ضده ، فلما لم تدعن لذلك أعلنت عليها روسيا الحرب ووقفت العمار الإنجليزية بالدردينيل وأخذت الحكومة العثمانية تستعد للدفاع بفضل تعضيد "سبستاني" سفير نابليون في القسطنطينية ، فأعلنت تركيا الحرب على إنجلترا وأقامت الاستحكامات ونصبت المدافع ودبت الحماسة في قلوب السكان فتطوع الشبان آلاف

في خدمة الأسطول الجديد ، فلما رأى الانجليز ما عليه البوغازات من المناعة انقلبوا على أعقابهم وباءت الحملة بالفشل بعد أن أصابها بعض العطب أثناء هروبها في مارس سنة ١٨٠٧

حملة انجلترا على مصر ١٨٠٧ :

ولم ترض انجلترا أن تظهر بمظهر الفشل فأرسلت حملة يبلغ عددها ٧٠٠٠ بقيادة "فرير Fraser" أمام الاسكندرية في ١٧ مارس سنة ١٨٠٧ وهذه هي الحملة التي كان قد وعد بها الألفى من جانب الحكومة الانجليزية ولو كان حيا لكان للحملة شأن غير شأنها ، ويجب أن نذكر هنا أن غرض هذه الحملة يختلف عن غرض الحملة الأولى التي أرسلتها سنة ١٨٠١ فهذه كان غرضها مساعدة الأتراك على طرد الفرنسيين ورد مصر الى الأتراك وأما حملة سنة ١٨٠٧ فكان غرضها الفتح والاستيلاء على البلاد بمعاونة المماليك .

انهزام الحملة عند رشيد :

وأراد الانجليز أن يتشبهوا بالفرنسيين فرسوا عند الاسكندرية وسلمت المدينة من غير مقاومة تذكر ، ثم احتلت الحملة رشيد بسهولة فظن الانجليز انهم في "نزهة حربية" وكان الوقت صيفا فانتشروا في شوارع المدينة وحاراتها وألقوا أسلحتهم وتفيثوا الظلال نائمين ناعمين ، وأنهم كذلك إذا بماكم المدينة "على بك السلانكلي" قد أمر جنوده من الأتراك والأعراب فأطلقت عليهم النيران من النوافذ ومن فوق الجدران فبادت الفرقة جميعها وأرسلت الأسرى ورءوس القتلى للقاهرة تأييدا لخبر الانتصار

موقف محمد علي :

وقد وصل خبر الحملة الى محمد علي وهو "بأسى ويطارد هم ، نخاف جانب الانجليز وتلكأ أولا ، ولكن ما لبث أن اتخذ الأهبة للسفر وترك العلماء يقومون بعقد الصلح ويحييون الممالك الى كل مطالبهم على شرط أنهم يحاربون العدو المهاجم ، وأخذ محمد علي يعد العدة للمقاومة ويبدى همته المعهودة فشرع ينظم قواته بمشورة صديقه "درويتي Drovétti" فنصل فرنسا الذي ما فتئ من أول ظهور محمد علي يرشده الى الطريق الحكيم والسياسة الرشيدة التي تمكنه من الظهور على أعدائه ، فدرّب الجنود على طرق الحرب الحديثة ، وبني الاستحكامات . وفي أثناء ذلك كان "فريزر" قد أرسل قوة كبيرة الى رشيد على رأسها القائد "استوارت Stewart" ليتقمم لما أصابه من الهزيمة الأولى فنجحت أولا ولكنها سرعان ما تقهقرت عند "الحمد" وعادت الى الاسكندرية خوفا من أن يصيبها ما أصاب سابقتها ، ورأى "فريزر" أنه ليس من الحزم أن يعرض جيشه لهزيمة بغائية فقطع سد بحيرة مريوط وأحيطت الاسكندرية بالماء الملح كما حدث في حملة سنة ١٨٠١ ، وظل بالاسكندرية ينتظر ما يمكن أن يقوم ممالك الألفى الذين انتخبوا "شاهين بك" رئيسا لهم .

الممالك لا يساعدون الانجليز :

وكان المنتظر أن يفاوض "فريزر" الممالك ويدعوهم الى الوفاء بعهودهم القديمة وهى القيام بالثورة فى الداخل ليقع محمد علي بين نارين ، ولو كان الألفى باقيا لتفاقم الخطب ولتعذر على "محمد علي" توجيه عنايته ضد العدو المهاجم من الخارج ، ولكن ماذا كان ينتظر من الممالك والانجليز منهمون ؟ لقد آثر الممالك فى هذه المرة المصلحة القومية والمالية على الفائدة الشخصية وأخلدوا الى السكينة بفضل اقناع العلماء لهم بأن

وعلى
بشيء
الألم
أذا
وال

قيامهم مع الانجليز مجلبة للشر وفيه خروج عن الدين ، وعلى الخصوص أن
الانجليز قوم متمسكون بشعائرهم الدينية وليسوا كالفرنسيين لا يعرف لهم
دين .

عقد الصلح وجلاء الانجليز :

وبعد أن أمن محمد على جانب الممالك واستمالهم اليه زالت هواجسه
ومخاوفه وخرج على رأس جيشه لمقابلة الانجليز ، فعجل هؤلاء بفتح
مفاوضات الصلح فتم ذلك بتبادل الأسرى ، ورفض محمد على قبول فدية
عن أسرى الانجليز ، فترك بذلك أثرا حسنا في نفوسهم لا سيما وأنه كان
قد أحسن معاملة الأسرى وعنى بالجرى منهم فأحضر الأطباء والممرضين
لمداواتهم والسهر على راحتهم فأكسبه كل ذلك رضا الحكومة الانجليزية
عنه ، ولم يكن ليعرف هذه الأساليب الحديثة لولا ارشاد ”دروقي“
له ، وقد أقلعت العارة الانجليزية على عجل في سبتمبر سنة ١٨٠٧ بسبب
عقد صلح ”تلس“ بين روسيا و نابليون اذ أصبحت إنجلترا بعد ذلك
بمفردها أمام نابليون .

وبذلك تغلب محمد على على أعظم خطر تهدده الى ذلك الوقت في حياته
الجديدة ، وزاد حبه في قلوب المصريين فأصبح في نظرهم بطل مصر
وحامي دمارها ، ووصل اسم محمد على لأول مرة الى مسامع أوروبا وصار
بذلك من عوامل السياسة في العالم الخارجى ، أما الباب العالى فدارى
حسده وأنعم على محمد على بحكومة السواحل المصرية وقد كانت الى ذلك
الوقت تحت حكم السلطان مباشرة وفى دائرة نفوذ القبطان باشا .

ولما انتهى محمد على من أمر الانجليز التفت الى تنظيم الأحوال ،
فكان من أولى أعماله أنه سلم مقاليد المصالح المصرية لأشخاص أكفاء من
ذوى قرباه أو من بلدته ”قوله“ مثل محمد بك لاظ وحسن باشا
الارثوودى ، ومحمد بك الدفتردار . ثم أرسل بجأته أسرته وأولاده ،

وعينهم في المناصب العالية واعتمد عليهم فنجح نجاحا عظيما ، واستمر محمد على للنهاية يثق بأولاده وأحفاده ويوليهم عطفه واهتمامه فحاط بذلك ملكه بسياج من الأمانة وتبادل المحبة الى درجة غير معهوده ، ولم يصب ملكه بشيء من منافسات الأسر التي هي آفة دول الشرق ، ولما أصطلحت الأمور بحسن تدبيره مالت اليه قلوب المصريين ، وقبلوا دفع الضرائب المنظمة لما رأوه من ثمرة الاصلاح وخاصة في وسائل الدفاع عن القطر ، اذ أمر بتحصين السواحل عند دمياط ورشيد وأبي قير والاسكندرية والسويس ، وأصبحت الأمور لأول مرة في أيدي حكومة قوية مصلحة .

الفصل السابع

نهضة مجد على

تمهيد ومقارنة

مميزات القرن التاسع عشر :

ولد القرن التاسع عشر والثورة الفرنسية لتمخض عن نابليون ابنها الحقيقي الذى ما لبث أن سوى حسابها وتسلم زمامها وواصل السعى وهو أحد أفراد الشعب حتى تسنم مركزا ظهر به على الذين توارثوا تالد ملكهم عن ملوك متوجة تستمد عظمتها وأحكامها من لدن الله تعالى . هنا بلغت الثورة الفرنسية المتجسمة فى شخص نابليون سميت النجاح فنفذ نورها الى قلوب الشعوب فى كل صقع ووصل أثرها الى أعماق النفوس من حيث تدرى ولا تدرى ، حتى اذا ما تألبت الرءوس المتوجة على نابليون وتمكنت فى النهاية من أسره وكسر جنده وأنظمتة انباجت الحقيقة وبقيت روح الثورة عاملة بين الأمم التى استضاءت بهديها على الرغم من مصادرة الملوك لها فى حلفهم المقدس وغيره ، وما كان فى مقدور حكومات أوروبا أن تتسلط على نفوس الناس أو تطفى نور العرفان أو تمحو حقائق التاريخ من صدور مستوعبيها . لذلك سرعان ما قامت الثورات فى العالم المتمدن ، وسرعان ما تشخص نابليون الامبراطور فى غيره من الأفراد ، وزراء وجنود ما جرت فى عروق آبائهم أو أجدادهم قطرة من دماء الملوك من قبل ، ولكنهم وصلوا الى ما وصلوا اليه من سلطان أو ملك بحض جهادهم ونبوغهم . مثل هؤلاء ” برنادوت “ فى السويد و ” مورا “ فى ايطاليا ” وكابودستريا “ فى اليونان ” ولويس نابليون “ فى فرنسا ” ومحمد على “ فى مصر .

محمد على ونابليون :

إن محمد على إلا نابليون آخر ولدته الثورة أيضا ولكن في الشرق فلولا الحملة الفرنسية على مصر في نهاية القرن الثامن عشر ما وطئ محمد على أرض مصر ، والحملة الفرنسية من بنات أفكار الثورة قامت بها الثورة في شخص نابليون فلما اضطر الى الرجوع الى فرنسا ولحقته الحملة الفرنسية بأكملها بعد أن فتحت عهدا جديدا لمصر ، ظهر محمد على على مسرح السياسة بمصر يريد تنفيذ سياسة نابليون في الشرق بكل حذا فيرها ، ولقد نجح محمد على حيث أخفق نابليون ، فقد ساد الشرق بطريقه : طريق البحار الأحمر وطريق نهر الفرات ، وجمع العالم العربي تحت لوائه وكون دولة تمتد من جزيرة "كريت" غربا الى "خليج العجم" شرقا ومن "جبال طوروس" شمالا الى بلاد "سنار" جنوبا ، وحاصرت جنوده حصن "عكا" فما لبثت أن سقطت في يده وانتصر على جيوش السلطان في مواقع عدة، كان محمد على على أثرها قاب قوسين أو أدنى من عرش الخلافة .

نعم نال محمد على من لدن الدول ما نال نابليون نفسه فقد تحداها حتى تحالفت عليه في آخر الأمر وأرغمته على الخضوع ، ولكن نظر محمد على الى الظروف المحيطة به بعين الحكمة والحذر فأبدل اخفاقه نصرا وثبت لنفسه بموافقة الدول عرشا لا يزال يتوارثه نسله الى الآن ، أما نابليون فقد خسر باخفاقه في "واترلو" كل شيء . وليست الموازنة بين نابليون ومحمد على ضربا من المبالغة أو المغالطة ، فأوجه الشبه بينهما كثيرة على الرغم من اختلاف أحوالهما اختلافا بينا ، والمطلع على المستندات الرسمية السياسية التي دارت بين ممثلي الدول ومحمد على أثناء أزمة سنة ١٨٤٠ يرى أن كثيرا من ساسة ذلك العصر وهم ينصحون أو يهددون محمد على لم يترددوا في الاشارة الى العواقب الوخيمة التي قد تعود عليه كما عادت على نابليون من جراء مخالفته للدول . أما السحر الشخصي الذي كان لاسم نابليون على محمد على فقد كان عظيما حتى جعله يدرس تاريخ نابليون درسا وافيا من أوثق الكتب الفرنسية ، وظل نابليون القدوة والمثل الأعلى الذي اختاره محمد على

لنفسه طول حياته وبقى للنهائية ينتفع بخدمات رجال نابليون والذين اضطهدتهم الحكومة الفرنسية عقب عودة الملكية فولوا وجوههم شطر مصر ومصلحتها العظيم .

وكما أن نابليون بونابرت الايطالى جاء فرنسا وهو جندى وما لبث أن أصبح ملكا مطلقا بارادة الشعب الفرنسى ، كذلك جاء محمد على الألبانى مصر وما هى الا خمس سنوات حتى أصبح صاحب الأمر بارادة الشعب المصرى . فمحمد على مصرى مهما قيل انه ألبانى أو تركى كما أن نابليون فرنسى مهما قيل انه "قورسقى" أو ايطالى . لم يدخل محمد على مصر فاتحا ولم يملكها بحمد السيف انما حقه مستمد من أهل مصر الذين نادوا به حاكما وأجبر الباب العالى على الموافقة ، ولقد كان يوم ٥ صفر سنة ١٢٢٠ (مايو سنة ١٨٠٥) بمصر من الأيام التاريخية المشهودة ففيه وضعت مصر بيدها الحجر الأساسى لحريتها اذ تمثلت طوائف مصر المختلفة من علماء ومشايخ وصناع وتجار وساروا فى شوارع القاهرة الى منزل محمد على بهيئة مظاهرة وطنية عظمى منادين بسقوط "العثمانلى" ومعلنين رغبتهم فى تولية محمد على ، وعلى ذلك يكون محمد على كلمة الشعب المصرى الفاصلة فى موضوع الحكم فى مصر .

منذ ذلك التاريخ أصبح محمد على بطل مصر الفذ ومازال يعمل على إحياء وتقوية مصر زراعيا وحربيا وصناعيا وتجاريا حتى أصبحت فى ربع قرن بفضل جهوده "الهرقلية" أول دولة فى الشرق كله وثالث دولة بحرية فى البحر الأبيض المتوسط بعد انجلترا وفرنسا ، وأول ما ظهرت جهود محمد على وهمته الحربية كانت فى حرب الوهابيين .

حرب الوهابيين

ضعف الباب العالي :

لم يشأ الباب العالي أن يترك محمد علي بمصر هادئ البال يعمل على تقويتها واصلاحها على الرغم مما بذله في تخليص مصر من المفسدين والأعداء. فلما رحلت الحملة الانجليزية أتت المكتبات اليه بضرورة الاستعداد لمقاتلة الوهابيين، وكانت داخلية بلاد الدولة في حالة من الفوضى شديدة والحكومة عاجزة عن صيانة البلاد من الخراب ، وسبب ذلك رغبة السلطان سليم الثالث في اذخال النظام الحديث في الجندية في سنة ١٨٠٨ فقام العلماء وساعدوا الانكشارية على الثورة ، فغربوا ودمروا واستبدوا بالأحكام بعد أن عزلوا السلطان سليم وولوا السلطان مصطفى الرابع ، ثم مالبت أن انتصر أعداء الانكشارية وعزلوا السلطان مصطفى ثم قتلوه بعد بضعة أشهر وولوا السلطان "محمود الثاني" وكان شابا حازما فصالح الانكشارية وترقب الفرص للقضاء عليهم ، ولكن هذه الحوادث تركت الجيش في حالة سيئة من الضعف . فلما رأى السلطان أن قوة الوهابيين أخذت تستفحل وأن جنوده تنهزم في كل مرة كتب الى محمد علي ليجهز حملة على الوهابيين سنة ١٨٠٩ وكانوا قد استولوا على الحرمين وقطعوا طريق الحج وهدموا قبر (النبي صلى الله عليه وسلم) ودانت لهم العرب بأكلها .

منشأ الوهابيين :

ظهر في أوائل القرن الثامن عشر رجل في بلاد "نجد" اسمه محمد بن عبد الوهاب من علماء الحنابلة ولد سنة ١٦٩٦ م وتلقى العلم عن أبيه ثم انتقل الى "البصرة" لاتمام دروسه ، وزار مكة والمدينة ثم استقر في بلده في اقليم "العارض" من نجد . وكان يظهر شذوذا في كثير من المسائل الدينية ومخالفة السنة وأئمة الدين ، وخلاصة مذهبه التمسك بالقرآن الكريم

والتوسل الى الله رأسا دون وساطة نبي أو مخلوق ، وكان يعتقد أن التوسل
لله بالنبي شرك وأن زيارة قبر النبي وقبور الأنبياء جميعهم والأولياء شرك
ومن دعوته التقشف وعدم التزين بالحريروالذهب وهدم المزارات وقباب
الأولياء لأنها من مظاهر الوثنية ، ومنع الناس من التدخين والمسكرات
ومنع البغاء والميسر . ولما ذاع أمره واضطهده أهل بلده دعاه "محمد بن
سعود" أمير "الدرعية" الى المكث في بلاده فدخلها محمد بن عبد الوهاب
في سنة ١٧٤٦ وقد وعده بن سعود بحمايته ممن يناوئه . فنشر دعوته وأخذ
نفوذه السياسي يزداد بانضمام بن سعود اليه فكتب مشايخ القبائل ودعاهم
الى مذهبه والا قاتلهم رجال "الدرعية" جهادا في سبيل الحق ، فأذعن
له كثير وحضروا اليه في الدرعية حتى زاد أنصاره زيادة يخشى منها ، ثم
تزوج بن سعود بابنة محمد بن عبد الوهاب فولدت "عبد العزيز" الذي
خلف أباه سنة ١٧٦٥ وجمع بين سلطان والده من الوجهة السياسية ، وبذلك اندمجت
الدعوة الدينية في السياسة وكان عبد العزيز شجاعا فاستولى على مكة
سنة ١٨٠١ ودانت له شبه جزيرة العرب ، وكانت الدولة اذ ذاك مشغلة
بمشاكلها الخارجية في أوروبا وفي مصر فلم تقو على رده وقتل في ١٨٠٢ ،
وخلفه ابنه "سعود الثاني" وكان جنديا شهما هماما فهدد الدولة في العراق
والشام وفتح "المدينة" سنة ١٨٠٤ واستولى على ما فيها من التحف ، ونشر
الوهابية بهمة وشدة فكتب الى السلطان سليم يأمره بعدم ارسال المحمل
السنى الى البقاع المقدسة بالزمر والطبول قائلا ان ذلك ليس من الدين
في شيء ، فأبطل ارسال المحمل منذ سنة ١٨٠٦ ، هذه كانت الحال لما
وصل الى محمد على في سنة ١٨٠٩ أمر تجهيز الحملة .

استعداد محمد على :

ولما وصل الأمر بذل محمد على جهده في تعبئة العسكر وتجهيز المؤن
والذخائر ، ولما كان على يقين من أن السفر بطريق البر الى بلاد العرب

صعب للغاية يهلك فيه كثير من الجند ودواب النقل صمم على أن يتخذ طريق البحر الأحمر الى "ينبع" و "جده" . ولم يضعف هذا العزم حين لم يجد سفنا له لنقل الجند بل أصدر أوامره الى سائر جهات القطر المصري بجمع الخشب وما يلزم لانشاء خمس عشرة سفينة كبيرة ، وطلب الى الاستانة ارسال الخشب كذلك ، ولما تم قطع أشجار النبق والتوت أحضرت الى ساحل "بولاق" حيث أنشأ هناك "دار صناعة" مكونة من معامل مختلفة اجتمع فيها التجارون والنشأرون والحدادون وغيرهم وبعد إعداد أجزاء السفينة كانت تحمل على الجمال الى السويس وهناك يضم الصناع أجزاءها ويهيئونها للنزول الى البحر ، وأنجز عمل أربع سفن كبيرة من النوع المعروف "بالأبريق" وأحدى عشرة من النوع المعروف "بالشونة" وسافر محمد على بنفسه الى السويس لياشر العمل بهمته المعهودة . وكان الجيش المراد نقله يبلغ ٢٠٠٠ من الفرسان يسيرون عن طريق القصير و ٦٠٠٠ من المشاة و ٢٠٠٠ من المدفعية يسيرون بحرا بطريق السويس .

تحفز المماليك :

وفي أثناء اشتغال محمد على ورجاله في تجهيز الحملة كان المماليك يمتنون أنفسهم بقرب القضاء على سلطان محمد على في مصر ، وكان محمد على قد صالح ممالك الألفى وأقطع زعيمهم "شاهين بك" البحيزة والفيوم وأسكنه قصرا نفخا بالبحيزة ، فجاء المماليك من الصعيد وخيموا بالبحيزة وانضم شاهين الألفى الى ابراهيم وحنث في تعهده لمحمد على ، وبلغ محمد على وهو بالسويس خبر استعدادهم للحرب فوصل القاهرة بسرعة خوفا من تربص المماليك به في الطريق ، ونزل اليهم هو وابنه طوسون وبعض جنوده ، فأخذ محمد على يستميل اليه بعض أمراء المماليك فانحاز اليه كثيرون وما زال محمد على وابنه طوسون يستميلانهم حتى انحاز اليه أكثرهم وانهمز الباقون وتستوا في الصعيد .

الفتك بالمماليك :

ولما عاد محمد على الى مصر ومعه أمراء المماليك الذين تغلب عليهم بليته ومهارته السياسية ، رأى أن المسألة بينه وبينهم أصبحت مسألة حياة أو موت وأنه يستحيل عليه أن يأمن جانب المماليك ما داموا يعيشون فوق أرض مصر وتحت سماءها ، فصمم على أن يغدر بهم اراحة لنفسه ولمصر من شر هذه الطائفة الباغية فدبر لهم مكيدة القلعة الشهيرة في أول مارس سنة ١٨١١ ، وكان قد دعا الأمراء والأعيان بملايهم الرسمية للاحتفال بتقليد ابنه "طوسون" رئاسة الحملة بجاءوا الى القلعة وقابلهم محمد على بلطف وترحاب ، ثم سار المركب وخرج بعض الجنود والمشايخ والأعيان وبينما أمراء المماليك سائرون في الطريق الجبل الى "باب العزب" أقفلت الأبواب وأطلقت النيران من كل صوب على صفوف المماليك المحصورين بين الأسوار في ذلك الطريق الضيق ، فحصدتهم النيران ، واستمر الضرب حتى فنوا أجمعهم إلا اثنين على ما يقال ، ثم سرى الخبر الى الخارج ، فقتل عدد عظيم في القاهرة وفي الأقاليم بأمر الباشا .

مكيدة المماليك في نظر التاريخ :

وكانت هذه الحادثة في يوم الجمعة واستمر التقتيل الى يوم السبت فخرج محمد على وابنه طوسون وأوقفوا النهب والسلب والقتل وأخذ محمد على أبناء المماليك وأدخلهم في خدمته وأجرى الأرزاق على نسائهم وزوجهن لضباط جيشه وأتباعه ، وقتل من المماليك في هذه المكيدة نحو ألف منهم أربعائة من الأمراء والباقون من الأتباع ، وبذلك قضى محمد على في يوم وليلة على طائفة طالما أراد الباب العالي القضاء عليها فأعياء الأمر . قضى محمد على عليهم ولكن لافي ميادين الحرب حيث يجتنى الشرف ويبرر القتل ، قضى عليهم خلصة وغدرا وهم في ضيافته ، لا فرق بين مجرم منهم وبريء ، نغلف في تاريخه نقطة سوداء اذا بررت وجودها الضرورات

السياسية لا يمكن أن تمحو عارها أبدا ، ولكن يجب قبل الحكم الذي لا سبيل للعواطف اليه ، أن نفهم الزمن والأحوال والبيئة التي يعيش فيها محمد علي ونذكر سوابق الطائفة المحنّية عليها فلا نحكم عليه بمقتضى تقاليد الأمم الراقية .

لقد أعيأ أمر الممالك محمد علي الى درجة لم تدع له مجالا للتريث فما كانت الحروب تفنيهم ولا المعاهدات تربطهم ولا الوفاق يستميلهم ولا المعروف يأسرهم ، بل كلما هزمهم محمد علي وشتت شملهم عادوا فرفعوا رءوسهم وتجمعوا صفوفا ضده متحينين الفرصة للقضاء عليه . وباليتم مع ذلك كانوا متصلين بالبلاد صلة تعود عليها بفائدة حيوية بل كانت مصالح الممالك الحقيقية متنافرة مع مصلحة البلاد والأهالي وكأنهم في مصر كانوا حكومة أخرى تتعارض أغراضها في كل شيء .

رأى محمد علي أن مصر لا يمكنها أن تتخطو خطوة واحدة في سبيل الرقي والاصلاح الا اذا أمنت كل خطر من جانب هذه الطائفة التي لم يكن لها أثر في مصر الا الخراب والدمار والحروب والمجاعات ، ورأى أنه عما قريب سيرسل جنده وقواده الى بلاد العرب ضد الوهابيين وأنه سيصبح من غير جيش قوى يستند عليه ويرهب الممالك به فاذا تألب الممالك ضده ربما عجز عن قهرهم وضاعت جهوده سدى ، ورأى أن الحكمة السياسية تقضى أن تسوى الحكومة مشاكلها الداخلية قبل أن تقوم لمواجهة حرب أجنبية خوفا من أن ينال العدو منها في الخارج ، وأن الفظائع الهائلة التي ارتكبت في عهد حكم الارهاب بفرنسا في وقت الثورة لم يكن لها مبرر إلا تهديد العدو لحدود فرنسا من الخارج . لهذه الأسباب دبر محمد علي مكيدته ضد قوم "لو بقوا في مراكرهم لقضوا على عدد من الأشخاص بقدر ما سفك محمد علي من قطرات دماءهم" (١) .

(١) راجع تقرير دكتور بورج : أوراق برلمانية مجلد نمرة ٢١ سنة ١٨٤٠

خروج الحملة :

ولما خلاص محمد على من شر المماليك أصدر أمره بتسيير الحملة سنة ١٨١٢ ضد الوهابيين بقيادة ابنه طوسون وكان قد فاوض " الشريف غالب " في "ينبع" واتفق معه بشأن محاربة الوهابيين ، فنزلت الحملة في "ينبع" وقابلها السكان بالفرح ، وكان طوسون في ذلك الوقت شابا يناهز الثامنة عشرة من عمره شجاعا مقداما فاعتمد على قوة جنوده وفوقانهم في العدد والأسلحة وسار توا الى "المدينة" فتقابل مع جموع الوهابيين عند بلدة "بدر" الشهيرة بانتصار النبي صلى الله عليه وسلم فانكسر الوهابيون أولا ، ولكنهم عادوا وحصنوا أما كنهم وأقاموا المتاريس وأظهروا شجاعة وشدة بأس عظيمين ، فتقهقر طوسون الى "ينبع" بعد أن فقد عددا عظيما من جنوده ، وقد ساعد على هذه الخسائر أن الجنود المصرية كانت تحارب في ميدان وعمر المسالك كثير المسكن ، فكان من المتعذر معرفة طرق المسير فيه ، وأدى ذلك الى هلاك الكثيرين. زد على ذلك عدم صداقة العرب للمصريين وترفع طوسون عن استمالتهم مما جعلهم يفتكون بالجنود المصرية أينما رأوهم .

انتصار طوسون أولا ثم انهزامه :

ولما علم محمد على بهزيمة المصريين أسرع فأرسل المدد فخرج طوسون ثانيا قاصدا "المدينة" وكان قد استمال اليه القبائل القاطنة بينها وبين "ينبع" فلم يلق معارضة ، وحاصر "المدينة" ولم يستعمل المدافع احتراما للحجرة النبوية ، وأخيرا أحدث ثغرة في السور وخلص "المدينة" من الوهابيين ثم قصد الى "بجده" فاستولى عليها وتابع السير الى "مكة" ففرت منها حامية الوهابيين ودخلها طوسون وطير خبر هذه الانتصارات الى القاهرة والقسطنطينية ففرح والده كثيرا ، ثم احتلت الجنود المصرية "الطائف" من غير مقاومة أيضا فاعتاظ "سعود" من هذا التقدم وخاف عاقبة ذلك ، وكان قد تحصن في الداخل فخرج هو وجميع جيوشه بعد أن نظمها ، وبدأ

يناوش الجنود المصرية حتى قابلهم في واقعة "تربة" شرقي الطائف فكسروهم واستولى على عدة نقط حصينة ، وكان طوسون في المدينة فكتب لوالده بإرسال المدد .

حضور محمد على الى الميدان وانتصاره وعودته :

غضر محمد على سنة ١٨١٣ بنفسه مع المدد عن طريق السويس ومعه عابدين بك أحد ضباطه وأول ما عمله هو القبض على الشريف غالب لشكوك كانت تحوم حوله لأنه ترك المدينة ومكة تقع في أيدي الوهابيين من أول الأمر وبق هو في جده ، وكان مذبذبا بين المصريين والوهابيين يترقب ليرى أيهما يفوز بالنصر ليتبعه ، فأرسلوه الى مصر عن طريق القصير ثم أرسل ابنه طوسون ليستولى على "تربة" وأرسل عابدين بك ليتبع الوهابيين الذين يهاجمون القوافل ، ولكن معرفة العرب بمجاهل الأرض وسهلها ووعرها ودروها جعلتهم يقتلون ، وأصبح عابدين في حالة حرجة إذ كان العرب يكتنون له ولجنوده في الطريق فرجع الى "الطائف" وكذلك لم يقو طوسون على أخذ "تربة" فتقهقر الى "الطائف" وأخيرا خرج محمد على من "المدينة" وقصد "الطائف" ومعه قليل من الجنود ، فلما علم الوهابيون بقدومه فروا من وجهه وأخذ محمد على يدبر خطة يقضى بها على الوهابيين ، وكان زعيمهم "سعود" قد مات سنة ١٨١٤ وخلفه "عبدالله" وكان قائدا ضعيفا فهزم محمد على الوهابيين عند "تربة" وكان لانتصاره هذا أثر عظيم إذ انضم اليه كثيرون فلم يبق أمامه إلا "الدرعية" ولكنه علم في ذلك الوقت بهروب نابليون من جزيرة "البا" واضطراب العالم على أثر ذلك واحتمال تعرض البلاد لغزو جديد ، وجاءه خبر تمرد أحد ضباطه المدعو لطيف باشا فأسرع بالعودة الى مصر فوصلها عن طريق القصير في ١٨ يونيه سنة ١٨١٥ وهو اليوم الذى انهزم فيه نابليون في موقعة "واترلو" .

عودة طوسون :

أما طوسون فإنه احتل "الدرعية" وأرسل عبد الله يطلب الصلح فعقد معه طوسون صلحا جعله وفقا على مصادقة محمد على . ولكن عبد الله لم يذعن لكل الشروط التي جاءت فيه فهدده محمد على بأنه ان لم يقبل أرسل اليه جيشا جارا يخرب بلاده . ثم وصلت الى طوسون أخبار مبالغ فيها عن حرج مركز والده بمصر فغادر بلاد العرب لنجدة والده وترك مسألة الوهابيين معلقة .

مشا كل محمد على :

أما "لطيف باشا" فكان قد أرسله محمد على ليلغ الباب العالي خبر فتح مكة والمدينة ، فلما عاد الى مصر فكر في اغتصاب ولاية مصر من محمد على بمساعدة بعض رجال الباب العالي ، الذين اتفقوا معه في الاستانة على هذه الخيانة فلما علم نائب محمد على "الكتخدا محمد بك لاط" بعزمه حاصره في بيته ودعا مجلسا مخصوصا حكم عليه بالاعدام في سنة ١٨١٣ أثناء غياب محمد على . وعلى أثر عودة محمد على قام الجند ضد محاولة ادخال النظام الجديد وهذا ما حدا بطوسون الى الحضور الى مصر حيث استقبل استقبالا فخما ولكنه مات بالطاعون بقصره قرب رشيد وهو في مقتبل عمره (١٨١٦) وكان محبوبا عند الجند والأهالي على السواء ، وكان يفضلهم أبوه على باقي اخوته حتى على ابراهيم أكبر أولاده لأنه كان يرى في طوسون صورة مصغرة من نفسه فحزن عليه حزنا شديدا .

حملة ابراهيم ضد الوهابيين :

أما الوهابيون ففرحوا بموت طوسون وظنوا أن مشروع الحملة قد فشل ، ولكن محمد على عين ابنه ابراهيم لقيادة حملة جديدة ، فسافر ابراهيم عن طريق القصير في سبتمبر سنة ١٨١٦ ووصل ينبع قاصدا المدينة المنورة ولما علم عبد الله بن سعود بقدوم ابراهيم جمع أربعين ألف مقاتل . ولكن أسلحتهم كانت من الطراز القديم وجل اعتمادهم على السيوف والرماح



1
1
1
1
1

والبنادق ذوات الفتائل فلم يقووا على الوقوف أمام نيران المصريين المتأججة المتواصلة ، فانهزمت طلائع جيش عبد الله وتحصن "في عنيزه" أما إبراهيم فحاصر "الرس" وتغلب عليها وعلى "عنيزه" وأخيرا حاصر "الدرعية" في أبريل سنة ١٨١٨ حتى سلمت في سبتمبر التالى ، ثم عمل على تدميرها ، وأرسل عبد الله أسيرا الى القاهرة في نوفمبر سنة ١٨١٨ ونزل عند اسماعيل ابن محمد على .

ولما قابله الباشا فى قصره بشبرا وقف له وأجلسه بجواره وبادره قائلا "ما هذه المطاولة" ؟ فقال "ان الحرب سجال" قال "وكيف وجدت ولدى إبراهيم ؟" قال "ما قصر ، وبذل الهمة وقد فعلنا نحن فعلته حتى كان ما قدره الله" قال "سأشفع فيك عند الخليفة ان شاء الله" قال "ما قدر سوف يكون" . ثم أرسل الى القسطنطينية فأعدم فيها ، وعاد إبراهيم بعد أن أخضع العرب عن طريق القصير في سنة ١٨١٩ فازدانت له البلاد سبعة أيام باليالها .

نتائج حرب الوهابيين :

لا شك فى أن هذه الحروب التى قام بها محمد على بناء على أمر السلطان استنفدت كثيرا من ثروة مصر فى وقت لم تقو فيه على دفع مرتبات الجنود فبالك بالانفاق على حرب دامت ست سنوات ! فليس بعجيب اذن أن يلجأ محمد على الى استعمال الشدة المتناهية فى جمع الأموال وليس أدل على شدته من فعلته مع "المعلم غالى" رئيس حسابات الحكومة فقد امتحن وكيل الباشا حساباته فوجد عجزا يبلغ ٦٠٠٠ كيس فأمره بدفعها حالا ، ووشى به جماعة من منافسيه الأقباط وقالوا بل ان العجز ٣٠٠٠٠ كيس فتشدد "كتخدا" فى عقابه وأخيرا أخلى سبيله بشفاعة طبيب محمد على بعد دفع ١٤٠٠٠ كيس .

مثل هذه الأعمال لم يكن يلجأ اليها محمد على لولا شدة حاجته الى المعدات الحربية والبحرية التى كانت تتطلبها حرب دامت ست سنوات

في بلاد بعيدة وعرة غير مأونة الجانب لا تنبت الا القتاد والشوك ، في حين لم يلق محمد على من السلطان ولا من وزرائه ولا من أى ناحية أخرى سوى مصر معونة مالية قط .

هنا يتساءل الانسان لماذا زج محمد على بنفسه في مشروع مثل هذا غرمه أكثر من غنمه ؟ الجواب على ذلك سهل لمن يعرف حدة نظر محمد على السياسى ، فانه قد اتخذ من هذه المسألة مبررا له في تكوين قوة برية وعسكرية ما كان ليوفق لانشائها لولا قيامه بمحملة على الوهابيين .

ومن حسن طالع أن كانت الحملة الوهابية برية وبحرية فكما تطلبت جيشا كذلك تطلبت أسطولا ، ولا ننسى أن الحملة قد قضت على عدد عظيم من الجنود الألبانيين الذين وقفوا حجر عثرة أمام محمد على في سبيل اصلاح الجيش على النسق الفرنسى ، فقد تمكن بعد انتهاء الحملة من الشروع في الاصلاح . أما نتيجة الحملة فلا شك في أن انتصار محمد على قد جعل العالم الاسلامى يلهج بذكره وحمده لأنه هو الذى أتمن حجاج بيت الله وخدم الاسلام والملة خدمة قصرت عن انجازها هم السلاطين والولاة .

لذلك بدأ الناس في الشرق يعرفون لمحمد على قدره ويخصونه بالمهابة والاحترام والثقة ، وخاصة بعد أن أصبح ابنه حاكما على بلاد العرب والمتصرف في مكة والمدينة . أما السلطان فلم يسعه بالطبع الا الاعتراف لمحمد على وولده ابراهيم بحميل الصنع فأرسل الهدايا ومنح ابراهيم لقب الوزارة ، ولكن السلطان كان على الرغم من ذلك يحسد محمد على على انتصاره في ميدان أخفق هو فيه .

ثم ما لبث محمد على أن نجح في عمل آخر أخفق فيه السلطان أيضا ألا وهو انشاء جيش على النظام الفرنسى الحديث .

تكوين الجيش المصرى :

وما دام التاريخ يحفظ بين سطوره أسماء أبطال الحروب ويخصهم بالإجلال والاعظام وما دامت الجيوش دليل قوة الأمم وعنوان بأسها وأداة رفعتها فسوف نرى الناس فى كل آن ومكان يمدون أبطال الحروب "كرميس" و "الاسكندر" و "قيصر" و "نابليون" و "محمد على" . وإذا كانت الجيوش النظامية فى الممالك قد ساعدت الملوك والأمم على الرقى فانها فى مصر قد كان لها الفضل فى ادخال كل معالم المدنية فى البلاد .

ولقد رأى محمد على منذ أن كان يقاتل الفرنسيين فى "الرحمانية" فضل النظم الحربية الحديثة وعرف قيمتها عند مساعدة "دروقى" له أثناء حملة "فريزر" على مصر سنة ١٨٠٧ فصمم محمد على على أن يستغنى عن جنوده الأرثوود ويسعى فى ادخال "النظام الجديد" متى سنحت فرصة لذلك :

المحاولة الأولى :

وأول ما فكر جديدا فى ذلك كان فى يونيه سنة ١٨١٥ اذ قضى مدة فى اقناع قواد جنوده بأفضلية الطرق الأوروبية ، ولكن لما لم يأت ذلك بثمره نفذ مشروعه على غير رغبة الجند ، وبدأ بقرين احدى الفرق وكان على رأسها ولده اسماعيل فتحزب الجند والقواد واتفقوا على الغدر بمحمد على ، ولكن نعى اليه خبر الدسيسة بواسطة عابدين بك فاحتاط لنفسه ، ولما طاش سهم المتآمرين انقضوا على المدينة وانتشروا للسلب والنهب كعادتهم ، ولكن محمد على فطن لأغراضهم الحقيقية فأوصل الأسلحة لتجار "خان الخليلي" و "الفحامين" فقاوموا الجنود ولم تمس هذه الأحياء التى يكثر فيها وجود الأجانب بسوء ، أما الغورية والسكرية الخ فنهبت متاجرها . ولما رأى محمد على هذه المقاومة استمال الجند اليه فوزع عليهم الرواتب والأقوات وترك مشروع تدريبهم على النظام الأوربى منتظرا فرصة أخرى ، وسلك محمد على مسلكا جديدا ينطوى على العدل والحكمة ، ذلك أنه

في صبيحة اليوم التالى للذهب دعا " السيد محمد المحروق " رئيس تجار العاصمة وأمره بإعداد قوائم باسماء التجار وتقدير خسائرهم فوزع محمد على عليهم عوض هذه الخسائر وبلغت بضعة آلاف من الجنيهات صرفت بعد أداء اليمين الشرعية فأطمأن الناس واستبشروا بهذا العصر الحديد .

لماذا لم يعتمد على الألبانيين ؟ :

وأما معارضة الجنود الألبانية للإصلاح فلم يجد محمد على صعوبة عظيمة في التغلب عليها لأنه بعد أن استمالهم أبعدهم عن القاهرة وأرسلهم الى ميادين الحرب في بلاد العرب وفي سنار ، وبذلك تخلص من جزء عظيم منهم ، ولو كان محمد على اتكل على الألبانيين لعرقلوا اصلاحاته واستنفدوا مال خزائنه كما استنفدوا أموال الولاة السابقين ولحرمه السلطان تجنيد جنوده من مقدونيا كما حرم على الممالك شراء الرقيق من " جورجيا " وأوربا فكان من حسن طالع محمد على أن الألبانيين قاوموا النظام الحديد ولم يقبلوه لأنهم لو قبلوه لكونوا نواة الجيش الحديد لمحمد على ولقللوا آماله في النجاح .

المحاولة الثانية :

ولما عاد ابراهيم من حروب الوهابيين متحصرا فكر محمد على في انشاء النظام العسكرى الحديد ، وصادف عزمه هذا حضور " الكولونيل سيف " المعروف "بسيان باشا" الى القاهرة فعهد اليه محمد على في مهمة تكوين الجيش الحديد وكان " سيف " قد ترقى من جندى صغير في خدمة الجيش الفرنسى مدة الامبراطورية الاولى الى أن أصبح في سنة ١٨١٥ "ياورا" أو أمينا للشير "Ney" ولما انهزم نابليون في "واترلو" اشتغل "سيف" بالتجارة ، ثم قدم الى محمد على بخطاب توصية جميل فاخبره محمد على فوجد منه أخلص وأكفأ خادما له في جيشه الحديد واليه يرجع الفضل الأكبر في رفع ذكر مصر في عهد محمد على .



Legation d'Algerie

سليمان باشا الفرنسي

جهود الكولونل سيف :

ولما بدأ "سيف" في القاهرة بتدريب بعض أولاد الممالك الذين كانوا في خدمة محمد علي ومعهم إبراهيم ليكون مثلاً حسناً للطاعة والاستفادة بدأت تظهر علامات التذمر وأخذ العلماء يغرون الشبان بعدم الانصياع لتعاليم الفرنجة ، فرأى محمد علي أن خير طريقة لتلافي الفتنة وتنفيذ أغراضه هي أن يرسل "سيف" ومعه أربع بعثة أو أكثر من أولاد الممالك إلى أسوان فيدر بهم هناك بعيدين عن الدسائس والقال والقليل ، وكان معظم هؤلاء الممالك من الشبان النابيين اختارهم محمد علي ليكونوا بعد أن يتخرجوا نواة الجيش الجديد ، فاشتغل "سيف" بتعليمهم ثلاث سنوات باثناً في نفوسهم روح الأخلاق العسكرية الشريفة ضارباً لهم الأمثال دائماً بسيرة نابليون وسير قواده .

وقد صادف "سيف" صعوبة في أول الأمر في تعويدهم الصمت والرزانة في أثناء الحركات ، فنقم منه بعضهم وصمموا على قتله ونمى إليه الخبر ، فجمعهم في الصباح واتهرهم قائلاً : ان الشرف العسكري يأبى أن يعتمد الجندی الى طرق النذالة والجبن وإذا أراد أحدكم الانتقام فأمامه المبارزة والقتال . وصوب عليه بعضهم بنادقهم في حادثة أخرى فأخطأوه فأعمل فيهم السوط لأنهم لم يصيبوا المرمى وأمرهم بتعمير البنادق وتصير يدها نحوهم ووقف أمامهم ثابت الجأش فبهتوا عاراً ونحجلاً ورموا بنادقهم وتقدموا إليه صارخين بأعين يطلبون العفو . فعفا عنهم باسم ، وبعدها لم يقع منهم ما يخل بالنظام العسكري وامتثلوا أوامر رئيسهم وأحبوه حباً جما ثم ما لبث "سيف" أن اعتنق الديانة الإسلامية ظاهراً حسب ما أشار به محمد علي إذ الحقيقة أنه كان من الذين لا يهتمون بأمر الدين ، فزاد الاخلاص والولاء بينه وبين عساكره ولم تمض سنوات ثلاث حتى ضارعت جنوده أحسن الجنود الأوربية نظاماً وشجاعة واقدماً كذلك تمكن "سيف" من الرق السريع حتى وصل إلى أرقى مراتب الجيش .

استخدام السودانيين في الجيش :

ولما وجد الضباط الاكفاء فكر مجد على في جمع الجنود ، ولم يشأ أن يكون بينهم أتراك ولا ألبانيون لئلا يحرضوهم على الفتنة ، فعمد الى السودانيين وكان قد أرسل حملته الى السودان ، وجمع منهم ثلاثين ألفا وأتى بهم الى "بنى عدى" قرب منفوط و وكل أمرهم الى الضباط الذين تخرجوا في أسوان فبدءوا بتدريبهم في سنة ١٨٢٣ وما انتهت سنة ١٨٢٤ حتى كانوا قد تدربوا على التمرينات العسكرية اللازمة ، فاستعان بهم مجد على وأرسل منهم فرقا الى بلاد العرب وأخرى الى السودان وأرسل الباقي الى حرب "الموره" .

استخدام المصريين :

ولكن النتيجة لم تكن سارة أبدا ، لأن أبناء السودان لم يألفوا المعيشة الشاقة بعيدين عن أوطانهم ولم تقو أجسامهم الهزيلة على احتمال البرودة فرض منهم عدد عظيم ومات معظمهم في سنين قلائل . وأخيرا بدت له فكرة تكوين جيش من جنود مصرية ، وظهر في أول الأمر أن هذه المحاولة مملوءة خطرا ، وأبان له بعض أتباعه والمقرين منه أن الزراعة في البلاد لابد أن تتأثر من عواقب التجنيد ، وأن التجنيد بين قوم لم يألفوا الجندية منذ زمن بعيد سيكون أمرا مكروها جدا الكراهية لا يمكن أن يأتي بأقل ثمرة .

وأى نفع كان يرجى من قوم كانت مهمة من يحكمهم منذ الأزمان الغابرة أن يلبصقهم بالأرض وفلاحيتهم يرهقهم بالضرائب فيجرون ويزرعون ليقووا على دفع هذه الضرائب ؟ وهكذا كانت قواهم دائما منهوكة في الزراعة التي هي منبع ثروة الأهالي وسبب مدلتهم في آن واحد . غير أن مجد على لم يأبه لهذه الاعتراضات ونفذ مشروعه ، فقامت بعض حركات عدائية في الأقاليم ضده وأخذ الفلاح النشيط يوقع الأذى بنظرة وجسمه ويهاجر

الى بلاد العرب وبلاد الشام تهربا من نظام الجندية ، غير أن المصريين ما لبثوا أن رحبوا بالنظام الجديد بعد ما وجدوه فيه من تأنق في ملبس الجندي وسعة عيشة ومكافأة المجتهد منهم ومنزلة الجندي بين غيره من الناس ثم لما زادت أعمال الجيش أدخل محمد علي في خدمته غير سليمان بك من الضباط الفرنسيين فعاونوا على فتح مدارس حربية على النظام الفرنسي ففتحت مدرسة "المشاة" بدمياط ومدرسة "الموسيقى" بالقلعة ومدرسة "الفرسان" بالجيزة ومدرسة "المدفعية" في طره : فتعلم الطلبة فيها اللغات والرياضة والرسم والهندسة والحركات العسكرية حتى صاروا أحسن جنود أوروبا بشهادة أكابر الضباط الأجانب ، وكان اصلاح الجيش سبب الاهتمام بأمر التعليم والصناعة والصحة في البلاد ، وسنعود الى ذلك في محله .

أثر تكوين الجيش في المصريين :

أما مصر فنجنت من وراء الجيش فوائد أدبية ووطنية لا تقدر ، فالجيش كان عنوان وحدتها اذ القبطى والمسلم فيه سواء ، وأوجد في البلاد روحا نظامية قوية كانت مفقودة منذ قرون ، وقد أمن البلاد من مصائب الفئات الظالمة الفوضوية التي كانت تعيث في الأرض فسادا ، ولا ننسى الروح الوطنية التي تولدت على أثر تكوين الجيش اذ أخذ المصريون يتنافسون في مضمار النبوغ ودبت في قلوبهم روح الثقة والفخر : الثقة بقوة أبنائهم وجنودهم والفخر بكفاءتهم وانتصاراتهم ، ومن ذا الذي يمكنه أن يخلص في الزود عن بلاده وفي محاربة عدوها ويحرص الحرص كله على حريتها واستقلالها أكثر من أبناء البلاد أنفسهم الذين أظهروا من خلائق الصبر واحتمال المشاق ما جعلهم من أحسن الجنود .

يألها من فكرة علوية أتت بوافر الخير على مصر ، فان انتظام الفلاح في سلك الجندية بعد أن عاش قرونا طويلة مستعبدا في كسر بيته أخرجته من حالة الذل والجهن والمسكنة التي كان فيها وعلمه دروسا جديدة في النظام وأداء الواجب ، علمه الشرف الحقيقي والتنافس في سبيله ، علمه أن يضحى بنفسه في ميادين القتال من أجل مصر وملكها واستقلالها .

وكان محمد على يقضى معظم وقته ملازما للجيش الجديد ويشترك في رحلاته وتدريبه وتمريته ولقد قص محمد على مرة على معتمد انجلترا ما شاهده من بوادر الرقى الأدبى في جيشه الجديد فقال : ” جرح ذراع أحد الجنود جرحا بالغا أثناء التعليم العسكرى بسبب اهمال الجندى الواقف خلفه فلما طلب اليه الضابط أن يخرج من الصف ليضمده جرحه أبى وقال الآن وقد أصبحت جنديا فأنا اليوم غيرى بالأمس ، وما دامت تجرى في عروقي نقطة دم واحدة سأبقى في مكاني حتى انتهى من واجب اليوم “ .

هذه الروح الجديدة تفسر الانتصارات الباهرة التي صادفها الجيش المصرى الجديد في ميادين القتال سواء أكان في أوروبا أم أفريقية أم في آسيا ، واستمر محمد على يعنى بالجيش عناية خاصة، اذ أصبح في نظره مسألة حيوية في الدرجة الأولى من الأهمية ، لأنه علم أن اعتماده على حسن نيات الباب العالى نحوه أمر محفوف بالخطر وانه مهما قدم للباب العالى من الخدمات فلن يرحمه السلطان اذا ضعفت قوته أو قلت شوكته يوما ما .

حملة السودان

أسباب الحملة :

ماذا يعمل محمد على وقد عاد اليه جنوده الألبانيون متصرين من بلاد العرب؟ أيسمح لهم بالاقامة بالقاهرة فيعيدوا عهد الثورات والنهب والسلب ويشغلونه عن اصلاحاته وربما وقفوا أمام مشروع النظام الجديد موقفهم في سنة ١٨١٥ ؟ لاشك في أن حسن السياسة كان يميل عليه أن يرسل هؤلاء الأرنؤود الى ميدان جديد فيستريح من مشاغلهم ويقلل من عددهم ففكر في تجهيز حملة السودان ليطارد بقايا الممالك الذين استوطنوا إقليم ” دنقله “ ونصبوا أنفسهم فيه حكاما، وكان الناس يتحدثون في ذلك الوقت

ومحمد علي يعتقد أيضا أن في السودان مناجم غنية بالذهب والمعادن النفيسة، فظن الألبانيون أن هناك غنا عظيما يجب ألا يفلت من أيديهم فرحبوا بفكرة محمد علي .

هذا ، وأن حاجة محمد علي الى استيراد جنود جديدة لجيشه الحديد جعلته يطمع في فتح الأصقاع المجاورة لمصر كي يتمكن من ادماج شبان تلك البلاد في جيشه ، وأراد محمد علي من هذه الحملة أيضا أن يسطر سلطانه وأسواقه على سواحل البحر الأحمر الغربية بعد أن انتشر نفوذه وتجارته في شبه جزيرة العرب الى خليج العجم ، ولا تنسى اهتمام محمد علي وعنايته بأمر النيل وروافده التي يتوقف عليها رى البلاد وحياة أرضها الزراعية وأهلها فقد كان من أغراض الحملة حل اللغز الذي حير الناس منذ "هيردوت" وهو محاولة استكشاف منابع النيل والسير فيه الى أقصى نقطة ممكنة ، ولذلك أرسل محمد علي مع الحملة تشبها بنابليون علماء فرنسيين ليمدوا ابنه اسماعيل قائد الحملة بالمعلومات الجغرافية والخاصة بالتعدين .

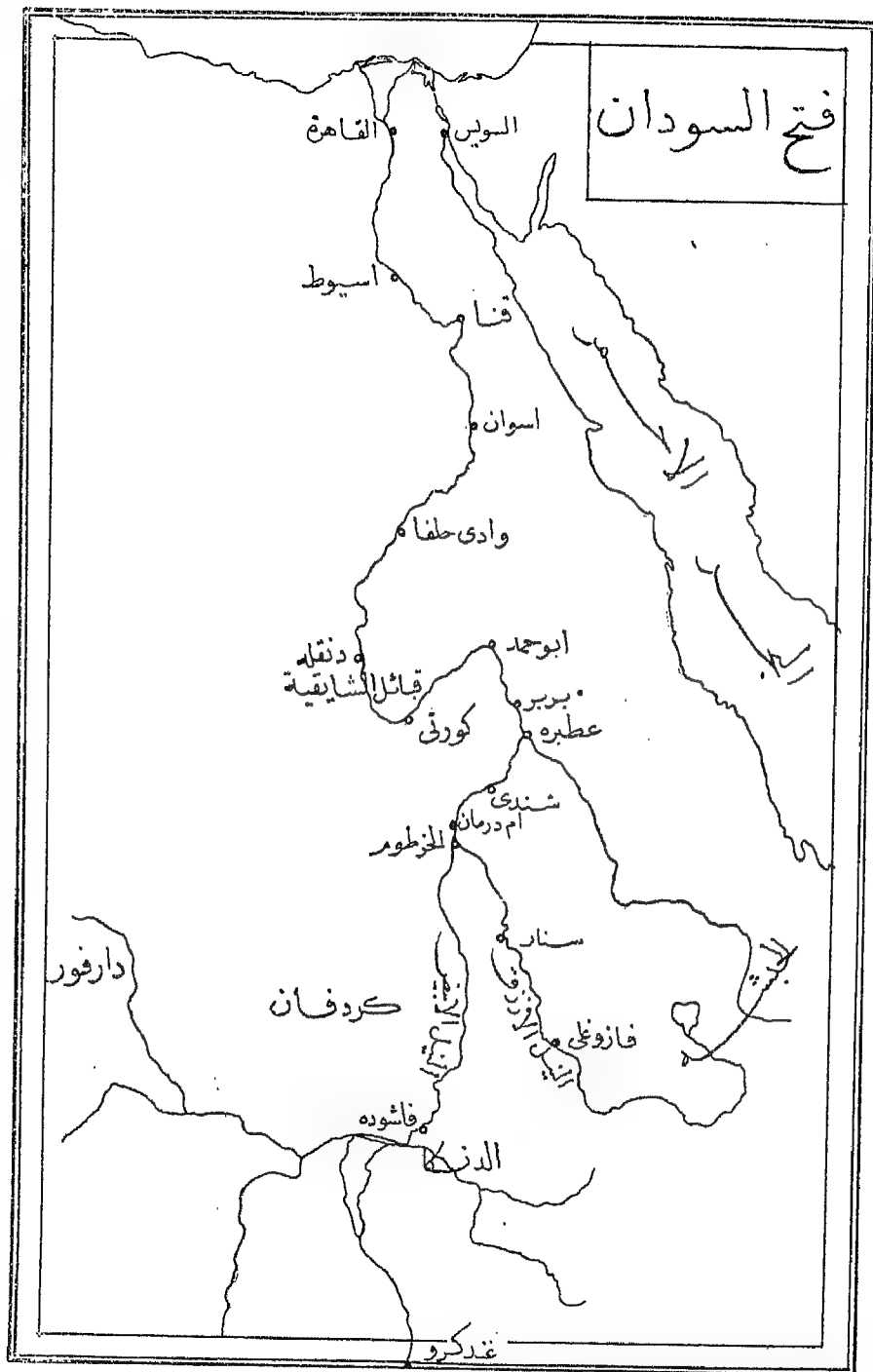
مهمة اسماعيل :

وبدأ محمد علي في اعداد الحملة في يونيه سنة ١٨٢٠ بجمع ٣٠٠٠ من المشاة و ٢٥٠٠ من الفرسان ومدفعية مركبة من ١٢ مدفعا ، وعين علي رأس الحملة اسماعيل ثالث أنجاله وكانت هذه أول مهمة حربية ذات شأن عهد فيها الى اسماعيل ، الا أن واجبه لم يكن عن الصعوبة كواجب أخيه "طوسون" من قبل لأن قبائل السودان كانت همجية لاتعرف استعمال الأسلحة النارية على العكس من العرب الذين كانوا على اتصال ببلاد الهند والعجم فكانت أسلحتهم على ذلك أرقى كثيرا من أسلحة السودانيين، كذلك كانت حال حكومة "سنار" المعروفة "بالدولة الزرقاء" التي لحقها الضعف منذ أواخر القرن الثامن عشر ، ولم يبق من الدولة العظيمة سوى عدد من الوزراء الذين ظلوا يتنازعون الحكم الى أن جاءت حملة اسماعيل فقدموا له المملكة غنيمة سهلة . أما الكردفان فكانت تحت حماية سلطان دارفور بالاسم فقط .

سير الحملة :

ولما كانت قبائل السودان من المسلمين السنيين لاشيعة ولا وهابيين أصحح محمد على الحملة عددا من العلماء ليبروا أغراض الحملة في نظر المسلمين وليراقبوا أعمال الجيش حتى لا يخرج الجنود عن الحدود المشروعة في الدين واضطر محمد على الى اصدار فتوى تحلل له فتح هذه البلاد الاسلامية حتى لا يحصل غضاضة أو تدمير بين جنوده المسلمين . وسارت الحملة عن طريق النيل ، وأما الفرسان فساروا بمحاذاة النيل ووصلت الحملة الى "دنفله" فذعر الممالك وفروا الى أقاصى السودان ، ولم تجتمع لهم قوة بعد ذلك ، ثم سارت الحملة جنوبا ولقيت من القبائل المعروفة "بالشقيقة" أو الشائفية مقاومة عظيمة اذ اجتمع منهم ثلاثون ألفا على الخيول والهججن وتأججت في رءوسهم نار الحرب فاستماتوا في الدفاع عن أوطانهم ولكنهم انهزموا انهزاما حاسما في "كورتى" ثم سقطت "شندى" و "بربر" وبعد ذلك سارت الحملة الى "سنار" فخضعت بدون كبير مقاومة .

وفي سبتمبر سنة ١٨٢١ حضر ابراهيم باشا على رأس حملة كحملة أخيه اسماعيل ، وحضر أيضا محمد بك الدفتر دار صهر الباشا على رأس حملة لفتح الكردفان ، فسار ابراهيم في النيل الأبيض الى تلؤل "دنكا" عند مصب نهر سوبا ، أما اسماعيل فسار شرقا في النيل الأزرق الى حدود الحبشة ومعه العالم الطيبى "كيار Caillard" الفرنسى ليفتش عن مناجم للذهب فلم ينجح الا قليلا ، وأخيرا عاد اسماعيل الى "سنار" وكان ابراهيم قد مرض ورجع بعد أن وصلت جنوده الى "دنكا" ثم كتب اسماعيل يطلب الرجوع الى مصر بعد أن بقى سنتين في السودان ، ولكنه قبل أن يصل اليه أمر الرجوع أحرقه الملك "نمر" صاحب "شندى" وكان اسماعيل قد أهانه فدبر نمر للانتقام وليمة دعا اليها اسماعيل ومن معه من الضباط والجنود فلما حضر اسماعيل دقت الطبول وأجريت الألعاب وفي نهاية الوليمة أمر نمر بجاء اتباعه بقش واحطاب كانوا قد أعدوها ووضعوها حول المنزل ثم اضرموها فيها النار فاحترق المنزل بمن فيه ومنهم اسماعيل فحلف



صهره "الدفتردار" الذى فتح الكردفان أن لابد من قتل ٢٠٠٠٠ فدية لاسماعيل وبالفعل نفذ يمينه وأكثرت فى القتل ، وفى سنة ١٨٢٤ رجع الدفتردار وعين "رستم بك" حاكما على السودان .

تقدير نتائج الحملة :

ويمكننا أن نقول أن حملة السودان لم تحقق مطامع الباشا الا قليلا لأن الذهب لم يوجد ، ولأن تجارة القوافل كانت قليلة وتستهزم عناية لا تثمر الا بعد سنين ، ولأن الجنود السود لم تنفعه فى شى بل اضطر الى أن يستبدل بهم المصريين ، ولكن يقابل ذلك أن أصبح البحر الأحمر بحيرة مصرية وضمن محمد على لمصر مراقبة موارد ماء النيل وفتح مجالا واسعا للمصريين للتجار والاستثمار ، وأسس محمد على "الخرطوم" فى سنة ١٨٢٢ واتخذها "الدفتردار بك" قاعدة للحكم فوسعها وبني فيها "دارا للصناعة" وبني البيوت وأنشأ السفن النيلية بكثرة وأصبحت "الخرطوم" محطة لتجارة السودان .

أشهر الولاة :

ومن أشهر الولاة الذين عينهم محمد على فى السودان "خورشيد باشا" (١٨٢٦) الذى قام فيه باصلاحات جملة ومد الفتوحات جنوبا واستولى على "فاشوده" وخلفه "أحمد باشا" المعروف "بأبي ودان" (١٨٣٧) الذى نظم الادارة وقسم البلاد الى مقاطعات ومديريات وعين حدودها وأدخل كثيرا من الأشجار والحيوانات المصرية فى السودان . وما فتئ محمد على يرسل البعثات العلمية للبحث عن المعادن من آن الى آخر وفى آخر الأمر سافر هو بنفسه وهو فى سن السبعين عام ١٨٣٨ متكيدا مشاقا عظيمة ، فأصلح الادارة ووصل الى حدود الحبشة وأعلن إلغاء تجارة الرقيق لا اعتقادا منه بضرورة ذلك بل ارضاء للدول الأوروبية ولكسب

مودة انجلترا . ولشدة اهتمامه بالاستكشافات الجغرافية أرسل أحد ضباطه
 "البكاشى البحرى سليم افندى" فى ثلاث رحلات مختلفة بين ١٨٣٨ — ١٨٤١
 وغاية ما وصل اليه حدود نهر سو باط عند خط عرض درجة ١/٢ ٤ شمالا .
 وكان "سليم قبودان" يكتب التقارير الوافية عن رحلاته ويرفقهها بجداول
 خاصة بالارصادات الجوية فكانت هذه التقارير أول المستندات التى
 ظهرت فيما يختص بداخل أفريقية (١) .

(١) ومن العلماء الفرنسيين الذين رافقوا سليم افندى فى رحلته الأخيرة "دارنوا" .

الفصل الثامن

اصلاحات محمد على الداخلية

العناية بالأرض :

إن أول واجب يتحتم القيام به على أية حكومة متنورة نصبت نفسها لحكم مصر هو حفظ الأراضي المزروعة والتي يمكن زرعها من عبث الصحراء المحيطة بالبلاد ، ولا يتأتى ذلك الا باستتباب الأمن وتنشيط الفلاحة المستديمة وبتوافر طرق الري وتوزيع الماء بالطرق التي تكفل سلامة المحصول .

وانا لنرى أن الماء والرمل عنصران أولهما مرادف للحياة وثانيهما للهلاك يتنازعا دائما السيادة في وادى النيل ، فتي قبضت على زمام الأمور حكومة ضعيفة ألفت الرمل قد انتصر على الماء وفاقه ، وما هي إلا سنوات قليلة حتى يحف الزرع ويقل الحرث والنسل وتكثر المجاعات وتعم الأوبئة والأمراض ، وما عهد مصر أيام حكم المماليك ببعيد ، قال نابليون : " لو بقى المماليك في مصر عشرين سنة أخرى لفقدت مصر ثلث أراضيها الزراعية " .

خطة محمد على الزراعية :

أما محمد على ففطن الى أهمية الزراعة في مصر وعلى ذلك منحها كل عنايته والتفاته وأحدث انقلابا هاما في نظام تملك الأرض والزراعة الذي وصفناه في عهد المماليك فنقل اليه أولا حقوق "الملتزمين" ثم الغى "الالتزام" نهائيا معتمدا على أن الأرض للحاكم ، ولكنه منحهم من المال راتبا سنويا مساويا تقريبا لقيمة دخلهم السنوى . وكان قد أخذ منهم قبل ذلك

بيانا عن ايراداتهم فقللوا قيمتها بقدر الامكان . أما أراضى "الوسية" التى ظهرت أحقية تملك أصحابها لها فنركها ، وعلى العموم ضم محمد على أراضى "الوسية" بالصعيد لقيام الملتزمين بثورة ضده وترك أراضى "الوسية" بالوجه البحرى لأصحابها . أما أراضى الأوقاف فانه احترامها من حيث المبدأ فقط ، وأما عمليا فانه عزل العلماء والمشايخ الذين كانوا نظارا عليها وعين نفسه ناظرا على تلك الأراضى وأخذ على نفسه تنفيذ الشعائر الدينية التى تتطلبها هذه الأوقاف وعين للمشايخ رواتب سنوية . أما العقار الموقوف والحدائق فلم يتعرض لها .

ولما حل محمد على مكان الملتزم وزع الأقطان على الفلاحين فأعطى كل فلاح من ثلاثة الى خمسة أفدنة ، وترك لمشايخ القرى قسما يبلغ ٤.٥٪ من مجموع أراضى القرية دون أن يفرض عليهم ضريبة ما . وذلك لقيامهم بضيافة عمال الحكومة ، وعرف هذا الجزء "بمسموح المشايخ" . وكان الفلاح يزرع الأرض بصفته مستأجرا ويسقط حقه فى فلاحها اذا عجز عن دفع الخراج ، ورتب لهم محمد على أجورا من جنس المحصول بمقدار السدس عادة ، وأمدهم بالآلات والمواشى والماء للرى . وكان المأمور يحدد المساحات الخاصة بزرع المحصولات المختلفة واذانضج المحصول قدرته الحكومة بالثمن الذى تحدده ثم تأخذ من المحصول قيمة الضريبة وتترك له الباقي أو تشتريه عادة لنفسها . وكانت الحكومة تودع ما تجعه من المحصول فى مخازن أو "شون" عمومية أعدتها فى جميع أنحاء البلاد وتنتظر الفرص المناسبة للبيع .

فوائد الخطة :

ويظهر أن هذا النظام كان الوحيد الذى يمكن أن يؤدي الى ثروة اقتصادية فى البلد يعتمد عليها الباشا فى اصلاحاته العظيمة . لأنه بذلك تمكن من تحسين طرق الزراعة ومراقبة الفلاح وتزويده بالنصائح اللازمة وامداده بالآلات ، وأمكن ادخال المحصولات الجديدة كالنيلة والدخان

والقطن والحريير والأفيون^(١)، ولو ترك الفلاح وحده مع ما هو معروف عنه من المحافظة على القديم والكسل والاعتماد على القضاء والقدر لحسرت الزراعة شيئا كثيرا . كذلك لو كان تركه يبيع محصوله لأخفق في السوق ولاشتراه الأجنبي بثمن بخس . أما محمد على فأمكنه أن يبيع هذه المحصولات في الأسواق الأوروبية فأحرز ربحا وافرا لولا ما وصل محمد على ولا وصلت مصر الى ما وصلت اليه من الرقي في عهده .

عيوب الخطة :

غير أنه يجب ألا ننسى ما جره هذا النظام من المصائب على الفلاح ، فقد كانت الحكومة تقدر المحصول تقديرا قهريا وتشتريه من الفلاح بثمن بخس ثم تباعه له أحيانا اذا احتاج لشيء منه بثمن مرتفع ، بل ربما تعذر عليه الحصول على قوته في حين أن مخازن الحكومة غاصة بأنواع المحصولات . وقد يكون بعضها فسد من استمرار تخزينه وتعرضه للجو ، هذا فضلا عما في هذه الخطة من تقييد لحرية الفلاح في العمل وتعويد الاعتماد على الغير وحرمانه من الانتفاع بثمرة جهوده .

هذه السياسة التي اتبعها محمد على في الزراعة جرت معها نظام الاحتكار فكما أنه صار المزارع الوحيد أصبح التاجر الوحيد ثم الصانع الوحيد أيضا وتشمل الاحتكارات جميع المحصولات التي كانت تشتريها الحكومة خاصة

(١) أدخل محمد على ما لا يقل عن ٣٨٠٠٠ آلة لرفع المياه وأنقذ من تعسدى الصحراء ١٠٠٠٠ فدان في الوجه القبلي أضافها الى الأراضي المزروعة . هذا عدا ما أقامه من القناطر وحفره من الترعة والمصارف وأدخله من الأشجار وخاصة شجرة التوت لتربية دودة القز واهتم إبراهيم باشا بإنشاء الجنائن ونشر زراعة الأزهار والفواكه .

لنفسها من الفلاح . ولا يشمل هذا كل ما ينتجه الفلاح بل هناك محصولات تركت له الحكومة حرية بيعها . وأهم المحصولات التي احتكرها محمد على القطن والأرز والصمغ والنيلة والأفيون والسكر والحرير .

الضرائب :

وكان المورد الثالث لثروة محمد على غير الأرض والاحتكار من الضرائب ، وأولها ضريبة الأرض أو "الخراج" أو "الميرى" وكان الملتزمون كما عرفنا يجمعون هذه الضريبة ويقسمونها ثلاثة أقسام : قسم للسلطان ويسمى "بالميرى" وقسم للكاشف ويعرف "بالكشوفية" وقسم للترم ويعرف "بالفائض" . وكان الملتزمون يتعسفون في جمع هذه الضريبة وغيرها من الضرائب الإضافية . أما في عهد محمد على فكانت جميع الأراضي ما عدا "الأبديات" والأراضي الموقوفة على الخيرات ، تدفع المال للحكومة ، ويختلف قدره على حسب جودة الأرض من ٦٠ قرشا الى ٤٠ قرشا الى ٢٤ قرشا للفدان الواحد . ولضمان مالية الحكومة كانت القرى تتضامن في دفع ضرائبها حتى اذا عجزت قرية عن دفع قسطها دفع الباقي عليها جارتها وهكذا .

وكثيرا ما منح محمد على كبار موظفيه في الجيش والادارة اقطاعات من الأرض أصبحت لهم ملكا خاصا ، وهي التي أطلق عليها "الأبديات" لبعدها عن الأراضي الزراعية المسكونة ، ولاحتياجها للعناية والاصلاح قبل زراعتها تركت بدون أن تجبي منها ضريبة .

أما الضريبة المعروفة "بفردة الروس" فكانت مفروضة على كل فرد مسلم أو قبطي بلغ سنه الثانية عشرة ، وتختلف بحسب ثروة الرجل فكانت

تتراوح بين ٥٠٠ قرش و ١٥٠ قرشا في السنة ، وكانت الحكومة تجبي غير هذه عوائد المكوس وعوائد على الذبح وعلى السفن الخ^(١).

*
* *

التجارة :

ولما زادت محصولات البلاد عنى محمد على بالتجارة ، وقد وجد في مركز مصر الجغرافى الفذ ما شجعه على العمل ، وكانت الحالة التجارية في مصر وفي موانى البحر الأبيض المتوسط على العموم في كساد وهبوط عظيمين بسبب انتقال الحركة التجارية الى موانى ساحل المحيط الاطلانتيق التى تتصل بأمريكا وبالشرق الأقصى ، وأصبحت الحال كذلك منذ أن ساح "فاسكوده جاما" حول رأس الرجاء الصالح فتحوّلت التجارة من مصر ومن حوض البحر الأبيض ونضبت منابع الثروة التى كانت تفيض على مصر من الشرق .

(١) ملخص ميزانية تقريبية لسنة ١٨٣٣ :

مجموع الإيرادات :	٦٢٠٧٧٨٠٧٥٠٠ فرنك
منها	٢٨٠١٢٥٠٠٠ » من ضريبة الخراج
	١٦٠٥٠٠٠٠٠ » من احتكارات الخبواب الخ
	٣٠٧٠٠٠٠٠ » الجمارك
مجموع المصروفات :	٥٠٠٠٠٠٠٠٠ »
منها	١٥٠٠٠٠٠٠٠ » للقسطنطينية
	١٥٠٠٠٠٠٠٠ » للجيش
	١٠٠٥٠٠٠٠٠٠ » للأسطول
	٥٠٠٠٠٠٠٠٠ » لموظفى الحكومة

(راجع كتاب نظرة عامة في مصر لكلوت بك الجزء الثانى صفحة ٢٠٨)

طريق التجارة البرى :

فلما تمت لمحمد على السيادة البحرية فى البحر الأحمر فكر جديدا فى إعادة طريق التجارة البرى بين الهند والشرق الأقصى وبين أوربا . فظهر البحر من لصوصه وقذف العرب فى قلوب عرب الصحراء الشرقية فأصبحوا لا يجرون أن يمسوا أحدا أو شيئا بسوء . ثم أُلشأ المواصلات بين مصر والسويس على ظهور الجمال ، وشيد المنازل على طول الطريق لراحة السياح ، ثم رأى ضرورة اتصال الاسكندرية بالنيل فحفر سنة ١٨١٩ أول قناة ذات شأن وهى "قناة المحمودية" التى تصل اسكندرية بفرع رشيد ، واستخدم فى حفرها الألوف من الفلاحين بطريق السخرة ، وبذلك صار فى الامكان تسيير السفن فى القاهرة الى الاسكندرية مباشرة ، وأمر بأخذ المكوس مرة واحدة فقط لا مرات متعددة كما كان يحصل فى البلاد التى تحت الادارة العثمانية ، وسهل الحركة بانشاء محطات للبريد بواسطة الهجن والخيول السريعة ، وتبادل الرسائل البرقية بواسطة الإشارات من فوق أبراج مرتفعة أقامها على أبعاد معينة بين القاهرة والاسكندرية .

ثم لم يمض إلا قليل حتى اخترعت البواخر فأحدثت انقلابا فى عالم التجارة ، وظهرت رغبة انجلترا فى أن تسهل مواصلاتها بأملها الشاسعة فى الهند وتتبع فى ذلك طريقا سريعا آمنا يقرب المسافة ، فلفت أنظار "الشركة الهندية الانجليزية" طريق مصر البرى فعمدت اليه أولا لنقل حقائب البريد والمسافرين بفضل مساعى الضابط "توماس واجهورن Thomas Waghorn" الذى أرسلته الشركة لدرس المشروع فرأى من محمد على أعظم مشجع له . وسارت أول باخرة للبريد من "بمباى" الى "السويس" ومنها الى الاسكندرية برا ثم من الاسكندرية الى مرسيليا بحرا ومنها الى انجلترا ، ولم يكن قطع هذا الطريق يستغرق أكثر من شهر .

وأخذت أهمية هذا الطريق تزداد على الرغم من التفكير فى انشاء طريق آخر يمر بالبصرة والفرات وحلب ، غير أن طريق السويس هو الذى تغلب



بوغوص بك يوسف
وزير الخارجية والتجارة لمحمد علي

في النهاية وأخذت أهميته تزداد تدريجاً إذ ما لبثت التجارة أن تحولت إلى هذا الطريق فاضطر محمد على إلى إنشاء مصلحة مستقلة خاصة بالطريق البرى وعقد اتفاقاً تجارياً مع إنجلترا تعهد فيه بنقل البريد الانجليزى مقابل مبلغ خاص تدفعه الخزانة الانجليزية ، فزادت ثروة مصر كثيراً مما كان يصرف داخلها من مصروفات نقل ومعيشة ومكوس ورواتب موظفين . وظلت الفكرة ترقى حتى ختمت بفتح قناة السويس سنة ١٨٦٩

وهذا المشروع بإضافته إلى فتوحات محمد على وللحصولات التي كان يتجر فيها قد فتح أمامه أبواب التجارة فربح أرباحاً وافرة وأصبح له في معظم الموانى الشهيرة وكلاء ينظرون في مصالحه التجارية والسياسية ، وكان ناظر التجارة والخارجية لحكومته رجلاً أرمنياً يدعى "بوغوص بك يوسف" الذى أخلص في خدمة محمد على إخلاصاً عظيماً فكان يشق فيه الباشا ويعهد إليه بدقائق مشروعاته السياسية والتجارية .

لوازم التجارة وتكوين الأسطول الجديد :

إلا أن التجارة لا تقوم إلا على شيئين أساسيين ، أسطول لحملها وحمايتها وأسواق لتصرفها فيها ، تلك سنة الأمم التجارية من قديم الزمان لا مندوحة عن اتباعها لأنها نتيجة طبيعية لمقدمات ثابتة . سار محمد على وفق هذا القياس المنطقي وعمل على الوصول إلى هذين الغرضين فبدأ ببناء الأسطول أولاً عند "بولاق" كما ذكرنا عند الكلام على حملة الوهابيين ، ثم لما اتسعت دائرة العمل أصلح النقص الطبيعي في ميناء الاسكندرية ، فأصبحت محطة تجارة مصر ومهد أسطولها العظيم ، ولقد جاء تكوين الأسطول المصرى متأخراً وعلى أثر انتهاء حرب "المورة" التي قضت على أسطوله وجعله مكون من خليط من السفن التي صنعت في الخارج واشتراها الباشا من "مرسيليه" و "ليفورنو" و "تريسته" و "جنوه" فلما عادت الحملة المصرية من "المورة" سنة ١٨٢٧ فكر محمد على في تكوين أسطول مصرى من جديد فقم له ذلك بفضل جهود مهندس فرنسى كان صاحب

معامل للسفن في "تولون" اسمه "سيريزى Cerisy" فهو الذى عهد اليه الباشا فى انشاء "دار صناعة" بحرية بالاسكندرية تبلغ مساحتها ٦٠ فداناً بواجهة على البحر يبلغ طولها نصف ميل، وبها حوض يسع أكبر السفن. وكان محمد على شديد الرغبة فى أن يكون له أسطول يغنيه عن شراء ما يلزمه من السفن من الخارج وأن يتم له ذلك بسرعة فوضع "سيريزى" مشروعه وشيد دار الصناعة البحرية حتى ضارعت الاسكندرية "تولون" وأدهشت كل من رآها من السياح ثم بدأ "سيريزى" بتمرين البحارة والصناع على الأعمال المختلفة الخاصة بالسفن وانشائها وتسييرها وجاهد فى سبيل ذلك جهاد الأبطال متغلباً على الصعاب والدسائس التى قامت ضده وأخيراً عاد الى فرنسا ١٨٣٤ وقام "بسون Besson" بإنجاز السفن اللازمة للأسطول الحربى ، وفى ٣ يناير سنة ١٨٣١ نزلت بالبحر أول سفينة من الأسطول الحديد ، وكان كلما تعلم المصريون عملاً من الأعمال استغنى عن العمال الأوربيين حتى لم يبق منهم إلا عدد قليل ، ثم جاء "موجل Mougel" المهندس الفرنسى الشهير فأنجز أعمالاً جديدة وأسس مدرسة للسلحة لتخريج الضباط البحريين . وأن ظهور الأسطول الحديد ودار الصناعة البحرية فى مدة أربع سنوات لدليل جديد على ما يمكن أن تتجزه النفس الطامحة الى العلى اذا كان الشعور مصحوباً بالإرادة والعمل ، قال الدكتور "بورنيج" فى تقريره أنه رأى الأسطول المصرى ورجاله وهو لا يختلف عن أى أسطول أوربى آخر إلا فى الملبس الرسمى^(١) .

ولما تم الأسطول تفرغ محمد على لإيجاد الأسواق اللازمة ، ولا يتيسر ذلك إلا بالهجوم والفتح ، فأعد جيشه لهذا الغرض وبلغ عدده فى النهاية ما يقرب من ٢٠٠,٠٠٠ جندي ، منهم ٤٠,٠٠٠ من غير النظاميين وهذا عدد هائل بالنسبة الى مجموع سكان مصر وقتئذ الذى كان يبلغ من ٢,٥٠٠,٠٠٠ الى ٣,٠٠٠,٠٠٠ .

(١) كان الأسطول يتركب من ٣٠ قطعة حربية ، منها ١١ سفينة كبرى على كل منها ١٠٠ مدفع أو أكثر و ٧ قطع على كل منها ٦٠ مدفعاً و ٣ بواخر . وعدد رجال الأسطول ١٨,٠٠٠ منهم ٨٠٠ ضابط .

حاجات الجيوش والأساطيل :

غير أن للجيوش والأساطيل مطالب وحاجات لابد من القيام بها إذا كان الغرض من تأليف الجيش وطنيا اقتصاديا. رأى محمد على حاجة الجيش الى مدارس مختلفة لتخريج مختلف الضباط والى مستشفيات للرضى والى معامل لتوريد ما يلزم من أسلحة ومؤن وذخيرة . والى مصانع لامسداد الجيش بما يحتاج اليه من أسلحة وملابس وأحذية وأغطية وأدوات مختلفة، ووجد في كل ذلك فرصة قد تعود بالنفع المادى والأدبى اذا تولى هو تقديم ذلك كله فعلت همته الشئ الى مستوى آماله العظيمة . ورأى الباشا بشاق نظره أن الاعتماد على الأجانب لا يمكن أن يؤدي الى قوة حقيقية فاستعان بهم ريثما يتعلم الوطنيون العمل ثم استغنى عن الأجانب تدريجا .

العناية بالتعليم :

وقد أراد أن يكون للوطنيين كل مزايا الأجانب فأرسل البعث العلمية والصناعية الى أوروبا لتلقى فروع العلم والعمل المختلفة ، وأرسلت البعثة الأولى في سنة ١٨٢٦ وبلغ عدد أعضائها ٤ وصار ١١٤ في سنة ١٨٣٣، ولما رجعت البعث أعانت محمد على كثيرا في تأسيس مشروعاته العظيمة ، وانبرى أفرادها لخدمة محمد على في مصالحه المختلفة ولو أنه لم يتقيد كثيرا باختصاصاتهم وترتيبات المسيو "جومار" رئيس البعثات في فرنسا وأحد علماء حملة نابليون ، بل عين منهم كما اقتضته حاجته . واهتم بكل درجات التعليم ألقى وثانوى وخاص ، وأسس مدارس على النظام الحديث لكل هذه الأنواع لأول مرة في البلاد، وكان يساق اليها الطلبة كما يساقون الى الجيش قسرا على الرغم من ترغيب الباشا لهم بايوائه التلاميذ واطعامهم وما كان يقدمه لهم من الكسب والرواتب الشهرية غير أن أساس اهتمامه بالتعليم لم يكن الرغبة الخالصة في تعميمه بين الأهالى ، بل كانت المدارس في نظره جزءا من نظام الجندية ، وكان الطلبة يعاملون معاملة الجنود ، وإدارة المدارس تتبع الحربية . فاهتم محمد على بالمدارس ما بقيت حاجته للجيش فلها

قل عدد الجيش بمقتضى "فرمان" سنة ١٨٤١ قل اهتمامه بالمدارس كذلك ، وعلى كل حال أوجد اهتمامه بالتعليم حركة علمية جديدة ونهضت اللغة العربية بعد أن كادت تقتلها العامية فعربت الكتب فى مختلف العلوم وألقى الأساتذة المصريون محاضراتهم بالعربية وأخرجت المطبعة الأميرية ببولاق عددا عظيما من المؤلفات العربية وأصدر الباشا صحيفة "الوقائع الرسمية" باللغتين العربية والفرنسية ابتداء من سنة ١٨٢٨ وكانت أنجح مدارس الباشا المدارس الخاصة بأساحة الجيش ومدرسة الطب ومستشفاهها وقد أنشئت أولا "بأبي زعبل" سنة ١٨٢٧ ثم أنقلت الى محلها الحالى ، وصرف "كلوت بك Clot" جهدا عظيما فى الاهتمام بحالة البلاد الصحية وادخال الاصلاحات وتعليم علم الطب مما خلد له أحسن الذكر فى تاريخ الصحة والطب بمصر . ومن أشهر المهتمين بأمر التعليم فى مصر "أدهم بك" الذى عين رئيسا لمجلس المعارف العالى ومعه نخبة من عظماء رجال العلم فى ذلك العصر (١) .

الاصلاحات الحكومية :

أما اصلاحاته فى نظام الحكومة فانه بعد أن مسح الأراضى فى سنة ١٨١٣ قسم مديريات مصر الى سبعة أقسام على كل قسم منها مدير ، أربعة بالوجه البحرى وثلاثة بالوجه القبلى ، وقسم المديريات الى مراكز وكل مركز الى أقسام وكل قسم الى قرى . وعلى رأس كل مركز مأمور . ولكل قسم ناظر ، وعلى رأس كل قرية شيخ يساعده "الصراف" و "الخلوى" . وكانت وظيفة المأمور مراقبة الزراعة وجمع الأموال والمحصولات وأنفار القرعة ، أما المدير فعليه تنفيذ أوامر الباشا ومراقبة الرى وأعماله . وكان يختار المديرين من الأتراك فى مصر وأما المأمورون فيعينهم من المصريين .

(١) ومن المدارس التى أسسها محمد على : المهندسخانة ببولاق سنة ١٨٣٤ ، والألسن بالأزبكية سنة ١٨٣٦ ، والصنائع سنة ١٨٣٩ ، والتجهيزية بأبي زعبل سنة ١٨٣٦ ، والمبتديان بالسيدة زينب سنة ١٨٣٩ ، وأما مدارس الجيش وهى : المشاة ، والفرسان ، والطبجية : فأُسست حول سنة ١٨٣١

أما القاهرة والاسكندرية ودمياط ورشيد والسويس فكان يحكم كلا منها حاكم أو محافظ وضابط .

وكان يساعد محمد على في القيام بإدارة البلاد "مجلس خاص" يعرف بالديوان العالى أو "الحديوى" ومن اختصاصه النظر فيما يقدم من الدعاوى والعرائض ، وكان المجلس يجتمع بانتظام فتعرض عليه أمور الحكومة كافة فيفحصها ويعرضها على الباشا .

وكون محمد على "مجالس خاصة" لكل ادارة في الحكومة ، فكان هناك مجالس للتربية والبحرية والزراعة والتجارة والأموال الفرنكية والمدارس والصحة . وفوق كل هذه المجالس "مجلس شورى الدولة" يجتمع فيه كل رؤساء الادارات المختلفة والمختصون والأعيان للنظر في شؤون الدولة الهامة . ولقد عرف محمد على من أول الأمر أن خير طريقة لتحسين الادارة هي توزيع الأعمال على وزارات مختلفة ، فاختار لكل وزارة رجلا كفئا يعينه المجلس الخاص ، وعلى الرغم من أن هذا النظام لم يصل في عهده الى حد الكمال فلا يغيب عنا أنه الى محمد على يرجع الفضل في توزيع أعمال الحكومة والعمل بحسن نية وبعزيمة صادقة على التقدم والارتقاء في الادارة ، هذا على الرغم من أن محمد على ظل طول عهده ينظر في جميع أمور الدولة بنفسه وظلت كلمته هي القانون والحكومة ، وبقي الحال كذلك في عهد خلفائه الى أواخر عهد الخديوى اسماعيل .

مشروع الاستقلال الاقتصادى :

على أن كل تلك الأعمال المدهشة والاصلاحات الهائلة التى قام بها محمد على لتضاءل أمام مشروع خطير اقترحه عليه قنصل السويد الذى ذكر لمحمد على أن أعظم مظهر للاستقلال الحقيقى هو الاستقلال الاقتصادى ، فبدأ أن مصر غنية بمحصولاتها الزراعية ، كذلك يجب أن تنتج معاملها كل ما يحتاج اليه محمد على لجيشه وأسطوله العظمين وما تحتاج اليه أسواقه وأملاكه من

المصنوعات، بدل أن تنظر مصر دائماً محتاجة الى مصنوعات أوروبا. ولا ينبغي أن المذهب الاقتصادى المعمول به فى تلك الأزمنة وهو المبدأ المعروف بحماية التجارة والصناعة يقضى بالتقليل من الواردات والاستغناء عن البضائع الأجنبية بقدر الامكان .

وأول مالفت نظره الى المصنوعات وجود المواد الغفل (الحام) بكثرة، وأولها القطن وكان قد أدخل زراعته فى الحقول بناء على اشارة المسيو "Jumel" النسيج الفرنسى الذى حضر الى مصر وأجرى عدة تجارب فى زراعة القطن من أحسن أنواعه الأمريكية فى سنة ١٨٣١، وكانت مصر كذلك تنتج التيل من الكتان والحرير وصبغة النيل وأصبغا أخرى تصلح لتجهيز النسيج ، كما أنه عني بتربية الأغنام وجلب الأصناف من الخارج لتحسين نوع الصوف الذى تنتجه البلاد ، لذلك صمم محمد على على انشاء المعامل المختلفة معتمدا على أن العمل فى مصر ميسور بأجور رخيصة، غير مكثرت بندرة المعادن فى البلاد وبعدم ملائمة الجو المحمل بالغبار الكثير الجفاف ، ولم يوقف محمد على عن مشروعه متى صمم عليه عدم استعداد الأهالى للقيام بالأعمال الصناعية الحديثة ولا عظم المبالغ والنفقات التى يتطلبها ، ولقد لجأ الى استيراد ما يلزمه من الفحم الحجري والحديد والصناع الفنين من أوروبا، وعلى ذلك أنشأ المغازل والمعامل والمصانع المختلفة وأصبح جو "بولاق" يدوى بصوت المطارق وأزيز الأنوال^(١).

(١) كان مصر ١٤٥١ دولارا بالغزل، و ١٢١ نولا، و ٢٠٠٠٠ عامل من عز الدين ونساجين وخرافين وحدادين وسباكين ونجارين . وأخرجت المعامل البفنة والشميت والشاش والأجواخ والطرايش والبنادق والأسلحة المختلفة ، وقطع العدد الصغيرة . وكانت مغازل القطن تخرج ما يقرب من مليون قطعة سنويا وأهم هذه المعامل فى بولاق والخرنفش وقايوب والحلة الكبرى الخ. وكانت هناك معامل للبنادق ومسابك للصلب ومعاصر للريت . وكانت هذه المصنوعات توزع فى أسواق مصر والخارج .

نقد المشروع :

ولقد أغنت هذه المصنوعات محمد على عن مصنوعات أوروبا ، ولكن كان مقضيا عليها في النتيجة بالفشل وخاصة بعد أن زال سبب تكوينها وهو الجيش اذ نقص عدده الى ١٨٠٠٠ منذ سنة ١٨٤١ . واننا اذا وازنا مقدار ما كانت تتكلفه مصانعه من النفقات بالفائدة التي كان يجنيها محمد على رأينا أن مزارمها كانت أكثر من مغائرها وأن ثمن السلعة في النهاية كان أرخص لو اشترى من الخارج مباشرة ، وكان محمد على على تمام العلم بهذا العجز في إيرادات مصانعه ولكنه استمر للنهية يستخدمها ويعتني بها رغبة منه في تعويد القوم الصناعة وتسيير الآلات الحديثة والظهور بمظهر المستقل وتشبهها بنظام فرنسا وانجلترا في ذلك الوقت وهو نظام حماية التجارة والصناعة . ولما كان محمد على هو المالك الوحيد لهذه المشروعات كانت الخسارة واقعة على خزانة الحكومة ، ولو أنها كانت لشركات أهلية لسببت تأثيرا سيئا عظيما . وقد فشل مشروعه الصناعي نهائيا لضخامته وغرابته في مصر ولأن المشروع كان لا يمكن أن يغنى عن بضائع أوروبا فالوقود والآلات اللازمة للصناعة نفسها كانت كلها ترد من أوروبا . ومن أسباب الفشل أيضا احتياج الزراعة في مصر لكل الأيدي العاملة ، ولكن ذلك لا يمنعنا من أن نقول أن قيام بعض الصناعات في مصر كعمل السكر والصابون والزجاج وبعض المنسوجات لازم وممكن ومفيد تمام الفائدة .

مشروع القناطر الخيرية :

بقى علينا عمل نهائى ختم به محمد على اصلاحاته وهو تشييد " القناطر الخيرية " وهى أعظم عمل نافع أنشئ في مصر لضبط مياه النيل باقامة سد عظيم ذى عيون قرب تفرع الدلتا . ولقد فطن محمد على لما يمكن أن يأتي به مثل هذا المشروع من جزيل الفائدة إذ ترتفع المياه في الترع على أثر حجز الماء في أحد الفرعين فتروى الأراضى بسهولة ، وكان اهتمام محمد على بالوجه

البحرى عظيمًا جدًا لا مكان زراعة القطن فى أراضيّه ، و بعد درس المشروع أصدر فى سنة ١٨٣٥ أمره الى المسير " لينان Linant de Bellefonds " لتنفيذ هذه الفكرة التى إن نجحت روت آلافًا من الأقدنة فى أوقات " التحريق " . غير أن مشروعًا كهذا كان يتطلب وقتًا طويلا لإنجازه لأن مالية الحكومة كانت لا تسمح بالانفاق على هذا المشروع دفعة واحدة ولأن تثبيت القواعد فى قاع الماء أمر يتطلب وقتًا وعناية ، ولكن تدرع محمد على ورغبته فى إنجاز العمل كى يتم فى عهده لم يمكننا " لينان " من تثبيت أساس البناء بالمثانة اللازمة فاضطر الى اصلاحه ثانيا ثم جاء المسير " موجل " وواصل العمل فى القناطر ولكنها لم تتم فى عهد محمد على الذى توفى سنة ١٨٤٩ وظلت الى أواخر أيام سعيد ، ومع ذلك فان ضخامة المشروع وفائدته الكبرى لما لا يبق مجالًا للبالغة ، وكفى أن مشروع القناطر هو الذى ولد فكرة خزان أسوان والخزانات الأخرى التى بنيت على النيل .

*
:

تقدير عام لأعمال محمد على :

بذلك أدخل محمد على طرق التمدن الحديث فى مصر بفضل اهتمامه بالجيش ومحافظاته وحاجاته ، ولا غرابة فى أن يدخل التمدن فى بلد على يد الجيش ففى البلاد الشبيهة بالتمدينة لا يمكن أن يدخل الرق والاصلاح على أيدي المجموع ولا يتسنى لغير الحاكم المتنور ذى المهمة العليا أن يرغم شعبه بالقوة على قبول الاصلاح ، ولما كانت القوة أول ما يتطلبه الحاكم المستبد لتأييد سلطانه نرى أن الجيوش والأساطيل كثيرا ما مهدت السبيل لاصلاحات عامة قد لا تتفق مع مصالح الجيش ذاته .

وفى مصر كان تكوين جيش نظامى داعيا لايجاد روح نظامية سرت فى كل طبقات المجتمع فتمتع الأهليون بنعم الأمن على الحياة وعلى الأملاك وأن ما قام به محمد على من جعل الحكومة مركزية قد أوجد وحدة قومية

حكومية بدل البقايا المتنافرة التي كانت من قبل . وكانت نتيجة ادخال النظام في أعمال الحكومة وجباية أموالها واهتمامها بالزراعة والتجارة والصناعة أن زادت إيرادات الحكومة زيادة ظاهرة أنفقتها محمد على في رفعة شأن مصر وشؤونها الخاصة كبناء القصور وتأثيثها بأخضر الأثاث . وقد كان لمحمد على هيبة واحترام عظيمين في قلوب شعبه ، ومع أنه كان حاكما مستبدا كان كريما رؤوفا يقبل النصائح والاقتراحات التي يبديها له غيره ، وقد لقي من الفرنسيين في كل مشروعاته كل تعضيد ومساعدة وإخلاص وإن أسماء " سيف " و " سريزي " و " كلوت بك " و " لينان " و " موجل " و " بسون " لتبقى على الدوام تذكارا لمنشئ مصر الحديثة ، وإنك لترى على العموم أن تسامح محمد على وترحيبه الأجانب وشغفه الزائد بتعرف كل ما يجد أمامه كان له أثر عظيم في تكوين شهرته التي طبقت الآفاق لأنه مامن رجل عرفه وعامله الا واقتنع بعبقريته ونبوغه وعطف على أمانيه السياسية ، ووصل الحال الى أن بعض معتمدى الدول وممثلهم كانوا مع حكومة محمد على مرتبطين بصلات ودية مادية جعلتهم يتفاوضون عن مصالح حكوماتهم الخاصة ولا يجرءون على الدفاع عنها أمام مصلحة محمد على .

وكان محمد على على علم دقيق بأحوال السياسة في أوروبا عارفا بتاريخ كل سياسى شهير فيها ، وكان المترجمون يطالعون له كل ما يكتب عن السياسة ورجالها من أوثق المصادر على الرغم من أنه لم يتعلم القراءة والكتابة الا متأخرا ومن العوامل التي كان لها أحسن وأسعد أثر في حياة محمد على لإخلاص أبنائه وأسرته له واحترامهم إياه وتضحياتهم بكل شيء في سبيل طاعة رئيسهم الأكبر وهنائه ، وهناك عامل آخر لولاه ما استطاع محمد على أن يجمع في شخصه كل هذه القوة التي ذاع صيتها والتي مكنته من احتلال أكبر أقاليم السلطان ثروة وأعظمها أهمية له ، ذلك أن الباب العالي كان على درجة عظيمة من الضعف والتفكك الداخلى بالرغم من جهود السلطان محمود الثانى في الإصلاح .

المجال واسع للناقد :

لقد أسهبنا في الكلام على أعمال محمد على وما أوجده في مصر من خير وإصلاح ، غير أن هناك أيضا مجالا واسعا للناقد الذي يريد التنقيب عن الجزء المظلم من صفحة محمد على ، فيجد في استبداد المديرين البعيدين عن رقابة الباشا ، وفي فقر وانهاك قوى الأهالي بسبب الاحتكارات والتجنيد ، وفي مقتل المماليك ، وفي تبديد الأموال من غير فائدة على المصانع الجديدة ، وفي قيام تجارة الرقيق في السودان ، تجدد في كل ذلك مجالا للانتقاد لا نهاية له ، ولكن من الظلم أن نحكم على محمد على بحسب مقاييس الغرب ونسير أعماله بخبارهم ، فنظام الاحتكار ونظام التجنيد كانا — وهذا مما يؤسف له — ضرورين على الرغم من ثقل وقعهما على الشعب ، ولم يكن منهما بد لصيانة مصر ومنعها من الوقوع تحت حكم الأتراك مرة أخرى من أجل ذلك اضطر محمد على للال والجيش وفضل أن تتحمل مصر آلام هذين النظامين على أن تسود فيها الفوضى ، ومع ذلك فان نظام الاحتكار لم يبلغ من أوربا الا حديثا ، وما من حكومة إلا وانتقدت سياستها بشأن أعدائها السياسيين أو بشأن جمع جنودها أو توزيع أراضيها وثروتها .

أما تجارة الرقيق فهذا نظام ألفه الناس في الشرق منذ قرون ولم يكن من السهل إلغاؤه إلا تدريجا ، ولقد أرسل محمد على خطا بالى حاكم السودان في أول ديسمبر سنة ١٨٣٧ قال فيه : " ليكن معلوما لك أن نظام الرقيق يحط من قدرى من نظر العالم المتحدين وخاصة في نظر الحكومة الانجليزية التي بين حكومتى وبينها علاقات ودية ، واني لا أريد أن أكسب من تجارة لا تشرفنى ، واذا كان الغاؤها يتطلب بعض توضيحات فأنا مستعد لتحملها " .

وفي الختام نرى أننا اذا راعينا الظروف الخاصة التي ظهر فيها محمد على وعرفنا عظم الواجب الذي أخذ على عاتقه القيام به وسط تلك الفوضى والجهل والظلام والدسائس السائدة بمصر وبتريكا ، وجب علينا أن نعد

نجاحه في حكم مصر وما خلده من آثار وإصلاحات وما لعبه في العالم السياسي الأوربي دليلا على نبوغ محمد علي ، ولا أدل على عطفه على مصر تلك البلاد التي تبناها وأصبحت في نظره كل شيء يستحق الوجود من أجله من تلك العبارة التي فاه بها للدكتور ”بورنيج“ المندوب الانجليزي :

”إن بلادكم لم تصل الى ما وصلت اليه من الرقي الحالى إلا بجهود أجيال كثيرة مضت وأن الطفرة محال في رقي الأمم وتقدمها ، ولكن يمكنني أن أقول اننى قد قمت ببعض الشيء لمصر وأصبحت الآن تمتاز عن ممالك كثيرة لا في الشرق فحسب بل في الغرب أيضا ، نعم يعوزنى شيء كثير لا زلت أجهله ، كذلك يعوز شعبي شيء كثير ولذلك ترانى الآن مرسلا الى بلادكم ”أدهم بك“ ومعه خمسة عشر شابا ليتعلموا ما تعلمه بلادكم فعليهم أن ينظروا الى الأشياء بأنفسهم وعليهم أن يمرنوا على العمل بأيديهم وأن يخبروا مصنوعاتكم جيدا ليعلموا وليكشفوا أسباب سببكم ورقمكم واذا ما مضوا زمنا كافيا بين أهل بلادكم عادوا الى بلادهم وعلموا الشعب“ (١) .

(١) تقرير الدكتور بورنيج ، أوراق برلانية : الجزء ٢١ من سنة ١٨٤٠

الفصل التاسع

ظهور المسألة الشرقية واستقلال اليونان

معنى المسألة الشرقية :

يريدون "المسألة الشرقية" الحالة السياسية الدولية التي قد تنتج على أثر انهزام تركيا انهزاما يؤدي الى انحلال أوصال الدولة وسقوط عرش الخلافة بالقسطنطينية ، ففي هذه الحالة ماذا يكون موقف دول أوروبا ازاء الدولة الغالبة ؟ أتلتزم الحيدة وتترك الغالب يستأثر بالغنيمة كلها أم تتحالف عليه وتزكي بذلك نار حرب أوربية عامة ؟ ثم ماذا يكون مصير الشعوب الخاضعة للدولة أيعترف باستقلالها أو تدخل دائرة الحماية الروسية ؟ وخصوصا ماذا يكون مصير البوغازات والقسطنطينية نفسها ؟ كل هذه أسئلة يتكون من مجموعها ما يعرف بالمسألة الشرقية . وعرفت بذلك لأن القسطنطينية خاصة وأملاك تركيا عامة واقعة في طريق الشرق ومن استولى عليها كأنه قبض على مفتاح الشرق . وظاهر أن المسألة الشرقية لم تولد ولم يظهر لها أثر حين كانت تركيا متغلبة ظافرة في حروبها بل الأخرى إذ ذاك أن توجد "مسألة غربية" حيث كانت تركيا تهدد وجود المجر والنمسا .

ولكن منذ أواخر القرن السابع عشر بدا ضعف تركيا الحربى وتوالت انهزاماتها أمام النمسا والروسيا ففقدت بذلك المبرر الوحيد الذى كان يدعوها لاحتلال أملاكها وهو فوقانها الحربى .

حالة الدولة العثمانية :

ذلك لأن الدولة العثمانية قامت بالسيف ولا تزال الصفة الحربية عنوانها الى اليوم ، فبالسيف فتحت فتوحاتها وبفضل ما استولت عليه من الأملاك

أصبحت الدولة في صفوف دول أوربا العظمى ، غير أنه من سوء حظ الدولة أن فتوحاتها كانت غربية عنما في صفات كثيرة فلم يربطها بأملاتها إلا روابط ضئيلة ، فلا دين يجمع بينهما ولا لغة ولا جنسية ولا تقاليد ، فأصبحت فتوحاتها على ذلك سريعة الانشلام مهددة في كل وقت بالثورات الداخلية .

فلما انحطت الدولة العثمانية من مركزها الحربي وهى الدولة الحربية قبل كل شىء ضاع نفوذها الأدبي ولم تقو على مطالبة رعاياها بالاخلاص الى السكون والطاعة ، ولما لم يكن في مقدور السلطان تأييد سلطانه في أملاكه أو مزج هذه الأملاك في جسم الدولة بأية طريقة اكتفى الباب العالي من أملاكه بدخل سنوى يجمعه ممن تنتهى اليه المساومة من بين الباشوات ، وبعض أفراد ينتظمون في سلك الجيش أو في البحرية ، ولم يعد يفكر في شىء من الاصلاحات أو الأنظمة اللازمة لحفظ أملاكه . على هذا تركت الولايات العثمانية في حالة شبه استقلالية يحكمها في الغالب ولاية طغاة .

على أنه لغاية القرن الثامن عشر كانت الدولة العثمانية لا تزال ظاهرة أمام العالم الأجنبي بمظهر القوى الثابت وذلك بفضل أنظمتها التي كانت تتيحها عن أنظار أوربا حتى لم تعرف عن داخليتها إلا قليلا ، نعم كان البناء قائما في نهاية القرن الثامن عشر ولكن البنيان كان من صخور نخرة واهية توشك أن تنهار اذا ما هبت عليها العاصفة ، وسرعان ما هبت العاصفة من الغرب ، فان زوابع الثورة الفرنسية وحروب نابليون التي لفتحت أوربا فأيقظت أهلها من سبات عميق قد صدمت كذلك سياج الدولة العثمانية المفككة العرى فتغلبت الأفكار القومية والاستقلالية على شعور رعايا السلطان المسيحيين في أوربا .

ومما زاد في خبال الدولة ما كانت عليه الحكومة المركزية من الضعف وما كان يتأجج في داخلها من نيران الثورات ومن المذابح والمظالم وخاصة بعد ثورة الانكشارية ضد السلطان سليم الثالث سنة ١٨٠٦ في القسطنطينية

ولم تكن الثورات مقصورة على عاصمة الخلافة بل كانت عامة في جميع أنحاء الدولة ، فقام الوهابيون في بلاد العرب وأخذوا يمدون سلطانهم حتى استولوا على مكة والمدينة ، وقام عثمان باشا المعروف ”ببشان أوغلو“ والى ”ودين“ فأخضع إقليم بلغاريا وانتصر على جنود السلطان واضطره الى تعيينه واليا على هذا الاقليم في سنة ١٨٠٧ . وقام سكان ”الجليل الاسود“ ضد الباب العالي وانتهى الأمر بأن أعلن السلطان عدم تدخله في شؤون الجليل ، وقام على باشا حاكم ”يانيه“ الذى أخضع البلاد المجاورة له حتى أصبح المسيطر على اقليم ”ايروس“ . وقام ”قره جورج“ في سنة ١٨٠٤ في بلاد الصرب وعقد جمعية وطنية أعلنت استقلال الصرب الداخلى فخارب الصربيون جنود الانكشارية وانتصروا عليهم وأخرجوهم من باغراد في سنة ١٨٠٦ وأصبح ”قره جورج“ الحاكم المطلق .

خطة نابليون في الشرق وخطة روسيا :

كل هذه الحوادث جعلت الخطب يتفاقم في بلاد تركيا ، وجعلت نابليون يأس من مواصلة سياسته الأولى التى بدأها سفيره القائد ”سبستيانى“ والتي كانت تقضى بتقوية تركيا حتى تكون حليفة قوية لفرنسا يعتمد عليها ويستخدمها ضد روسيا وانجلترا ، وكانت روسيا لا تفتأ تذكر قضية ”بطرس“ وخطة ”كترينة الثانية“ وتبحث الفرص لتحقيق أمانيتها في احتلال القسطنطينية وسواحل البحر الأسود ، ولم تكن الفرصة أكثر ملاءمة منها في سنة ١٨٠٧ ، وكان نابليون في ذلك الوقت منتصرا في واقعة ”فريدلند“ على روسيا وبروسيا فتقابل القيصر والامبراطور نابليون في ”تاست“ واتفقا بشأن المسألة الشرقية اتفقا سرا بمقتضاه تشترك فرنسا مع روسيا في تجزئة الدولة العثمانية كما أن روسيا تشترك مع فرنسا في اعلان الحصر البحرى على انجلترا ، وبدأت فعلا مفاوضات التجزئة ولكن نابليون أصر على أن تسبق القسطنطينية وبلاد الروم الى الشرق تابعين للدولة العثمانية ، وأصر القيصر على أخذ القسطنطينية فلم تأت المفاوضات بنتيجة ، هذا الى أن انجلترا كانت بالمرصاد في البحر .

وبينما كان نابليون يعد العدة ضد إنجلترا والدولة جاءت الأخبار بانكسار جيوشه في أسبانيا وقيام الشعوب ضده في شبه جزيرة الأندلس ثم في النمسا والمانيا ، وفي هذه الأثناء قامت الحرب بين روسيا وتركيا سنة ١٨٠٩ واستمرت ثلاث سنوات انتصرت في أثنائها روسيا كالمعتاد ، ولكن لما رأت روسيا بوادر النزاع بينها وبين نابليون بدأت مفاوضات الصلح مع تركيا ، وعلى الرغم من تدخل نابليون في المسألة والحاحه في إيقاف مفاوضات الصلح لم يصغ الباب العالي لنصحه متذكرا ماعمله نابليون في "تلس" ومتجاهلا سير السياسة العامة في أوروبا لأنه لو لم يعقد الصلح لاضطر القيصر الى ابقاء جزء عظيم من جيشه في البلقان وما أمكنه مقاومة حملة نابليون الشهيرة في روسيا ، ولكن القيصر فطن لهذا فلم يتشدد وعجل بعقد معاهدة "بخارست" في مايو سنة ١٨١٢ فنزل القيصر عن حماية البغدان والأفلاق وأصبح نهر « البروت » هو الحد الفاصل بين روسيا والدولة العثمانية .

مؤتمر فيينا والمسألة الشرقية :

ولما انعقد مؤتمر الدول في "فيينا" سنة ١٨١٥ لم يتعرض ساسة أوروبا للمسألة الشرقية رغم أنها من المسائل التي كان يتوقف عليها ضمان السلم العام في أوروبا الذي من أجله انعقد المؤتمر ، وخشى "الاسكندر" الذي كان صاحب النفوذ الأول في المؤتمر أن تعرض المسألة أمام مؤتمر فيينا فتفقد روسيا حرية العمل بمفردها في حل المسألة التي كانت تعتبرها كأنها مسألة داخلية خاصة بالروسيا دون غيرها من الدول فعمل على اقضاء المسألة عن بحث المؤتمر .

الاسكندر الأول وسياسة روسيا :

وكان قيصر روسيا اسكندر الأول رجلا شاذا اعتقد منذ كارثة "موسكو" أنه مرسل من لدن الله للقضاء على قوة نابليون ، وجعل منذ

ذلك الوقت يسيطر على اتجاهات السياسة الأوروبية العامة ، وكان الاسكندر لا يستقر على قرار بشأن سياسته فبينما تراه يحبذ الأفكار الدستورية ويعمل على تأييدها في بولنده وفرنسا ، تراه آونة أخرى يعضد مشروعات "مترنخ" وينصر السياسة الرجعية في كل مكان ، وكانت سياسة الاسكندر حيال الدولة كسياسة قياصرة الروس منذ بطرس الأكبر وهى التعجيل باضعاف الدولة العثمانية والعمل على اضمحلالها ، واذا كان لم يتيسر للاسكندر تحقيق أغراضه في سنة ١٨١٢ بعد انتصاره الباهر فذلك لأن نابليون كان يعد حملته الشهيرة ضد روسيا ، فلما سقطت دولة نابليون واستتب السلام في غرب أوروبا عاد الاسكندر الى مواصلة مشروع القيصرة "كترينة الثانية" وكانت أسباب النزاع بين روسيا وتركيا متوافرة بفضل الحقوق التي كسبتها روسيا على رعايا السلطان المسيحيين فقد فسرت معاهدة "بحقوق فينر دجه" سنة ١٧٧٤ بأن لها حق حماية الرعايا المسيحيين دينيا وسياسيا أينما كانوا ، مع أن نص المعاهدة لا يقضى الا بأن يكون للروسيا حق حماية كنيستها بالقسطنطينية وغيرها التي من جنسها ، ولم تكن روسيا تعد نفسها حامية للمسيحيين فحسب بل كانت تعتبر أن الواجب يقضى عليها بتخليص هؤلاء الأقوام من حكم العثمانيين .

ولقد هال الباب العالي أن يرى قيصر روسيا يقدم وثيقة "المحالفة المقدسة" وفيها ظهرت الدول المسيحية كأنها أسرة واحدة يجب أن تعمل على حسب تعاليم الكتاب المقدس ، فظهر لتركيا عزلتها عن باقي ممالك أوروبا فخافت أن يكون المقصود من مثل تلك الوثيقة إثارة حرب صليبية من جديد ، فكتبت تستفهم من حكومتى لندره وفيينا فأجابتاها بأن تستفهم من القيصر فطمأنها ، ولكن الحقيقة لم تخف عن أنظار الباب العالي الذي رأى الخطر يهدده لاحتفاظ القيصر بجيش عظيم يبلغ ٦٠٠.٠٠٠ جندي ، مع أن الدول كانت قد أنقصت جيوشها الى النصف منذ سنة ١٨١٦ ، ودل القيصر على نيته ضد الباب العالي بتعزيده للثورة في الصرب وبايوائه "قره جورج" في سنة ١٨١٣ بعد استعادة السلطان لنفوذه وبمساعده "ميلوش ابرونوفتش"

الزعيم الصربي الثانى الذى نال من الباب العالى حق الاستقلال الداخلى للصر ب سنة ١٨١٧ بعد أن قتل "قره جورج" منافسه .

كذلك أدخل القيصر فى خدمته كثيرا من اليونانيين أمثال "كابودسترياس" والأخوين "إبسلنتى" وساعد اليونانيين على تأليف جمعية سرية تدعى "بالهتيريا فيلىكى" أى "جمعية الأخوان" التى أخذت تعد العدة للثورة ضد العثمانيين على مثال جمعية "الكربونارى" فى إيطاليا بالنشر والتحرير ، كل هذا كان يعمل به القيصر علانية ، غير أن إنجلترا والنمسا كانتا على حذر وحاربتا سياسة روسيا بقدر ما فى وسعهما ، لأن النمسا كانت لا يسعها أن ترى روسيا تبسط حمايتها على الشعوب الساكنة على سواحل الدانوب قريبا من أملاكها فلم تساعد أهالى البلقان على الثورة ضد الأتراك . وأما بريطانيا فكان من رأى ساستها أن حفظ كيان الدولة العثمانية أمر ضرورى لدوام السلم فى أوربا ولمعارضة روسيا فى سبيل تقدمها نحو الشرق والبحر الأبيض المتوسط ، وسيظهر هذا الخلاف جليا عند نشوب ثورة اليونانيين .

ثورة اليونانيين

حالة اليونانيين العامة :

كان اليونانيون أكثر الأجناس الخاضعة للسلطان عددا وأقربهم إليه منزلة وكان الباب العالى ينحصرهم بوظائف ومزايا سامية وكان فلاحو اليونانيين أسعد حظا من زملائهم فى أوربا إذ لم يكن نظام رقيق الأراضى معروفا فيها فى حين أن آثاره كانت باقية فى روسيا وبروسيا وبولنده ، وكان السلطان يعين ولاية من العثمانيين يدعون الى مشاورتهم فى شؤون الإدارة أعيان اليونانيين والأتراك ، وكان يترك توزيع الضرائب وجبايتها فى أيدي

سكان كل قرية فكانوا ينتخبون عددا من بينهم لتقرير الضرائب وتوزيعها على السكان وكل ما كان يهم الباب العالي هو وصول المال للخزانة والوصول على العدد اللازم من بحارة الجزر اليونانية للاحاقهم بالاسطول العثماني .

امتيازهم الديني :

أمامن الوجهة الدينية فكانت سياسة السلطان دائما في كل فتوحاته ترك كل ملة وشأنها ، ولما كان المذهب المسيحي السائد في تركيا أوربا هو الأرثوذكسى وفق الكنيسة اليونانية ، خص الباب العالي اليونانيين بإدارة الشؤون الدينية في جميع أنحاء الدولة فكان يعين منهم "بطريقا" عاما مقره القسطنطينية ، وكانت هذه الوظيفة من أسنى الوظائف في الباب العالي اذ كان للبطريك اليونانى نفوذ على كافة الكنائس المسيحية في الدولة العثمانية ماعدا بلاد الصرب وكان له حق تعيين الأساقفة ولهؤلاء حق عقد محاكم خاصة لمحاكمة المسيحيين ، وقد أوصلهم حذقهم في السياسة الى أعلى الوظائف في الدولة العلية فكان لهم أربع وظائف وقفا عليهم وهى وظيفة "كاتب سر الأسطول" و" مترجم الباب العالي" و" حاكم الافلاق" و" حاكم البغدان" .

حالتهم التجارية :

أما حالتهم التجارية فقد بلغت شأوا بعيدا منذ معاهدة "قندرجة" سنة ١٧٧٤ التى بمقتضاها فتح البحر الأسود للتجارة الروسية ، وانتفع اليونانيون بمزايا هذه المعاهدة فأخذوا يصنعون السفن التجارية العظيمة ويسلاحونها بدعوى الدفاع ضد غزوات لصووس البحر ، فأخذوا يتاجرون مع الممالك البعيدة تحت الراية الروسية أو تحت الراية الانجليزية ، وقد زادت تجارة اليونانيين وسفنهم أثناء حروب نابليون والحصار البحرى ، فأصبح اليونانيون ذوى تجارة واسعة في شرق البحر الأبيض المتوسط ، ومن دلائل اتساع حركة التجارة اليونانية ظهور ميناء "أودسا" على البحر الأسود في سنة ١٧٩٣ وهجرة اليونانيين اليها بكثرة حتى أصبحت ملجأ لجماعة من أثريائهم .

حالتهم الأدبية :

كذلك ارتقت حالة اليونانيين الأدبية فبدأوا يتعلمون في البلاد الأجنبية ويتلقون دروساً جديدة نهبت عقولهم وجعلتهم يضمرون التخلص من نير الأتراك . وظهر من بينهم المصلح الشهير "كوريس" (١٧٨٤ — ١٨٣٢) الذى إليه يرجع الفضل في وضع اللغة اليونانية الحديثة ، فانه رأى أنه لا يكلل الشعور القومى بدون رابطة اللغة ورأى أن اللغة اليونانية في ذلك الوقت خليط عقيم عن اللغات الأجنبية المجاورة مع أن اللغة اليونانية القديمة كانت من أفضل اللغات فأخذ "كوريس" ينقى اللغة من الغريب السوقي ويستبدل به اليونانى العريق ، وهكذا أخذ يصلح اللغة ويزيد عليها ويدمج القديم في الجديد وأخرج مؤلفات جديدة وأحيا الآداب القديمة فأعاد ذكرى مجد اليونانيين القدماء وجعل لهم لغة ذائعة معروفة .

من ذلك يتبين أن اليونانيين قبل الثورة لم يكونوا مستعبدين بل كانوا في الحقيقة شبه مستقلين ، وأنهم وصلوا الى درجة عظيمة من الثروة والرقى وخاصة في مركز نهضتهم وهو قسم "الفنار" في القسطنطينية حيث كانت دار البطريق التى نشأ حولها طائفة "الفناريين" المعروفين ويليهم فى الرقى يونانيو البغدان والأفلاق وأودسا .

تكوين جمعية الاخوان :

غير أن هذا الرقى كان باعثاً على تحريك الهمم ضد سيادة الأجنبي وخاصة بعد ما علموه من نجاح الثورة الفرنسية وظهور نابليون الذى أصبح مثالا يقتدى به فى الثورات التى قامت عقب سقراطه مطالبة بالاستقلال ، كذلك شجع اليونانيين على القيام بالثورة ما علموه من قيام على باشا حاكم "يانيه" وغيره فى أنحاء الدولة ، ولكن المسئول مباشرة عن تنظيم حركة الثورة ضد الأتراك هو جمعية "الهتيريا" أو جمعية الاخوان وهى جمعية سرية أسست فى "أودسا" و "قينا" فى سنة ١٨١٤ لما علم اليونانيون بأن مؤتمر

”فيدنا“ سيمهل البحث في المسألة الشرقية ، وأخذت دائرة الجمعية تتسع تدريجاً حتى انضم الى صفوفها في غضون ست سنوات كل يوناني ذي مكانة .

قيام الثورة وأغراضها :

وكانت هذه الجمعية تتاجر باسم قيصر روسيا ووزيره اليوناني ”كابودسترياس“ فلما اجتمع أعضاء الجمعية لتبادل الآراء في أمر اعلان الثورة في ولايات البلقان والافلاق لقربها من روسيا وأعلنوا أنهم يريدون استقلال أمارات البلقان وطرد العثمانيين خارج أوروبا وتجديد الدولة البورنطية ، كانت الآمال معقودة على أن يكون القيصر عضداً للحركة ، فلما أرادوا انتخاب رئيس لقيادة الحركة خابروا ”كابودسترياس“ وزير القيصر في الأمور الخارجية فأبى علماً منه برغبة القيصر عن ذلك فوقع انتخابهم على ”اسكندر ابسلتي“ وكان ضابطاً في الجيش الروسي في خدمة القيصر أيضاً ، فأعلن الثورة في ”ياش“ في ٦ مارس سنة ١٨٢١ ونادى في الأهالي المسيحيين بالقيام ضد الأتراك وأصدر التماساً للقيصر يطلب التعضيد ، ولكن آمال ”ابسلتي“ كان مقضياً عليها من المبدأ ، لأن شعوب البلقان كانت حائرة على اليونانيين وخاصة في رومانيا حيث كانت الديانة ”كاثوليكية“ وعلى ذلك لم يكن من مصلحة الرومانيين والبلغاريين مثلاً أن يساعدوا في تكوين امبراطورية اغريقية جديدة ، لذلك لم تصادف دعوة ”الهيترين“ قبولا من الفلاحين في رومانيا كما كانوا ينتظرون .

فشل الثورة في البلقان :

أما القيصر اسكندر الأول فقد جاءه خبر قيام ”ابسلتي“ وهو في مؤتمر ”ليباخ“ يتناقش مع الدول بشأن اخضاع الثائرين في ”نابلي“ وإعادة صاحب الحق الشرعي فيها الى ملكه ، وكان اسكندر في تلك الآونة قد غير أفكاره السياسية الحرة وتلقى السياسة الرجعية عن أستاذها ”مترنخ“

وصار له أعظم معين في سياسته ، فما كان ينتظر أن يكون اسكندر عدوا للثورات في غرب أوربا وعضدا لها في شرقها وقريبا من أملاكه ، لذلك لما بلغه خبر قيام ”إبسلتي“ بش الخبر أولا ولكن مازال به ”مترنخ“ حتى كتب يستعجن عمل ”إبسلتي“ ويبرئ نفسه منه ، كذلك أصدر ”البطريق“ اليوناني بالقسطنطينية قرار الحرمان ضد ”إبسلتي“ ، وفي الوقت نفسه أرسل السلطان جيشا لقمع الثورة فعبهر الدانوب وهزم الثوار ففر ”إبسلتي“ الى داخل حدود المجر حيث اعتقل ومات .

قيام الثورة

تبادل الفظائع من الجانبين :

هذا ما حصل من اليونانيين في شمال البلقان ، ولكن الثورة لم تقتصر على ذلك بل امتدت الى الجنوب أيضا أى في شبه جزيرة ”المورة“ مهد اليونانيين الأصليين فقاموا في ١٨٢٢ ، وكان القصد من هذه الحركة الخروج من نير العثمانيين وإعلان استقلال اليونان فقط ، ولما شق اليونانيون عصا الطاعة أتوا بفظائع مروعة ضد العثمانيين وخاصة من كان منهم في داخلية البلاد ، فلما وصل خبر هذه المذابح الى مسامع الأتراك ثارت نفوسهم وانتقموا لأنفسهم شر انتقام فأعدم السلطان محمود الثاني البطريق اليوناني في صديحة عيد الفصح وأعدم غيره من الأساقفة اليونانيين ، وظل الجانبان يتبادلان وتنافسان في صب العذاب على رعوس الأبرياء ، ثم استولى الثوار على ”تريبولتا“ مقر الحكم ١٨٢٢ ومثلوا بالأتراك شر تمثيل فقابلهم الأتراك بالفتك بسكان جزيرة ”شيوس“ .

عجز السلطان عن قمع الثورة :

ثم أعد الباب العالي جيشا بقيادة ”خورشيد باشا“ الذي كان حاكما على مصر في سنة ١٨٠٤ وبعد أن أخضع على باشا والى ”يانية“ سار جنوبا

ووقف جزء من الجيش أمام ميناء « مسولنجى » وسار جيشه مخترقاً مضيق « ترموبيل » ولكنه أهمل تحصين المرتفعات من ورائه ، فلما قابله « كولكترونس » رئيس « الكلفت » أو الصبابت اليونانية الجبلية ، وأحد زعماء الثورة اضطر الجيش الزاحف الى التفهقر فوجد اليونانيين محصنين فى المرتفعات ، فدحر الجيش بأكله وانتهى خورشيد باشا بعد هذه الهزيمة ، كذلك ظهر فى البحر ملاحو جزر الارخبيل بقيادة « ميوليس » و« نكاريس » فهزموا الأتراك وأغرقوهم هم وسفنهم أينما عثروا بهم وسرعان ما زالت سلطة الأتراك من الأرخبيل ، فلما جاء يناير سنة ١٨٢٣ أعلنت اليونان استقلالها برياسة « ماوروكرداتس » و« ديمترى ايسلتى » أنى اسكندر ايسلتى ، ولكن المنافسة بين الوطنيين كانت شديدة فأدى ذلك الى ضعف الحكومة الوطنية .

طلب المساعدة من محمد على :

ولما لم يكن لدى السلطان جنود لقمع الثورة ولى وجهه شطر محمد على باشا بإشارة سفير النمسا التى كانت تريد القضاء على الأفكار الثورية وعدم اعطاء الروسيا فرصة للتدخل ، وأرسل السلطان لمحمد على أمراً بذلك فى ١٦ يناير سنة ١٨٢٢ وعينه حاكماً على « كريد » ثم على « الموره » فأذن محمد على للأمر ورحب بفرصة يظهر فيها للعالم قوته البرية والبحرية ويبرهن مرة ثانية أنه أقدر من السلطان فى ميادين القتال ، فأرسل قوة الى « كريد » أولاً ثم جهز حملة مكونة من ١٧٠٠٠ جندى سافرت على ٩٩ سفينة منها ٢٣ قطعة حربية ونقلية و ٣٦ تجارية استؤجرت لنقل العدد والذخائر ، وقد جعل الرياسة لابنه ابراهيم باشا ورياسة الأسطول لصهره محرم بك .

خطة الحملة المصرية :

وذهب الأسطول أولاً الى جزيرة « رودس » فانضم الى الأسطول العثمانى وشجعه على الخروج والمخاطرة ، واقتحم الارخبيل على الرغم من

تعقب سفن اليونانيين لهم وكان الأسطول أقوى أسلحتهم ولكن ابراهيم اضطر — بعد أن رأى ضعف الأسطول العثماني وتحاذله عند كل موقعة — الى اللجوء الى جزيرة "كريد" وبقى بها مدة أصحح فيها أحواله وانتهاز فرصة منازعات اليونانيين بسبب يأسهم من تعضيد أوربا لهم بعد أن منوا أنفسهم بذلك زمنا طويلا . فخرج ابراهيم في فبراير سنة ١٨٢٥ منتهزا فرصة بعد سفن اليونانيين عن مياه كريد ونزل بميناء "مودن" .

وكان نزول الجنود المصرية على أرض "المورة" فاتحة عهد جديد اذ كان مستحيلا على اليونانيين مقاومة جيوش ابراهيم المدربة على النظام الحديث فأخذت انتصارات الأتراك والمصريين تتوالى سنة ١٨٢٥ و ١٨٢٦ واخضع ابراهيم "كورون" ثم "نوارين" و "تريبولترا" وحاصر "نوبليا" مركز قيادة الثورة ، ولكنه ارتد عنها ولم يبق من "المورة" غيرها كذلك كان رشيد باشا يحاصر "مسولينجى" فلما أعياه فتحها طلب الى ابراهيم باشا المساعدة : فتقدم ابراهيم بعد استئذان أبيه وكان اليونانيون مستميتين فى الدفاع عن هذه الميناء ولم يتمكن ابراهيم من فتحها الا بعد حصار دام من أول الأمر خمسة عشر شهرا وسقطت فى أبريل ١٨٢٦ بعد أن هلك ثلاثة أرباع سكان المدينة وثلث القوة المصرية . وبعد "مسولينجى" سقطت "أثينا" (يونيه ١٨٢٧) وبذلك خضعت اليونان ولم يبق لهم الا بعض جزر الارخبيل و "نوبليا" عاصمتهم فانحطت حالتهم الأدبية وتنازعوا أمرهم بينهم ولم ينقذهم من الفناء الا شيثان : تدخل أوربا وضعف تركيا الداخلى ، وكان السلطان قد قضى على جنود الانكشارية عن آخرهم فى سنة ١٨٢٦ لما شاهده من فوقان الجنود المصرية ، وبدأ بتنظيم جنود جديدة لايرجى صلاحها للحرب الا بعد سنين .

تدخل الدول

السياسة السائدة فى أوربا :

لما ظهرت حركة الاستقلال اليونانى كانت المبادئ السياسية فى أوربا لا تتفق البتة مع أمانى الثوار اليونانيين ، فبادئ المحالفة المقدسة صريحة بشأن الشعوب التى تتور ضد ملوكها وحكوماتها ، ولم يكن ينتظر من المؤتمر الدولى فى أوربا أو من ممثله " مترنخ " أن يجذب الثورة ضد السلطان ، فالثورة ضده لم تخرج عن كونها ثورة ضد صاحب الحق الشرعى على أى حال ، على الرغم من أن السلطان لم يكن من الموقعين على المحالفة المقدسة ولا من المشتركين فى المؤتمرات الدولية .

وكانت الدول فى أول نشوب ثورة اليونان مشغولة بمسألتى إيطاليا وإسبانيا وما حصل فيهما من التغيرات الحكومية ، فكان اهتمام الدول ومن بينها روسيا بشأن الحالة فى الغرب عظيما ، فلما قام اليونانيون رأيت الدول أنه وإن كان الأمر يقتضى التدخل فى جانب صاحب الحق الشرعى وهو السلطان وفاقا للمبادئ الموضوعة منذ سنة ١٨١٥ فعلى الأقل يجب عليها أن تلزم الحيادة حتى تأتى الحرب بنتيجة فعلية . نعم كان الروس والاسكندر متحفزين للوثوب على عدوهم القديم تعصيذا لآخوانهم فى الملة ، وبالفعل أرسل " الاسكندر " انذارا نهائيا للباب العالى وسحب سفيره من القسطنطينية ولكن " مترنخ " " وكسلى " وزير خارجية انجلترا سكا من روع الاسكندر وأوضحا له الخطر الذى قد يحدث على أثر دخول الاسكندر فى جانب الثوار ضد السلطان ، فأذعن لسياستهما ولم يشأ الدخول فى جانب الثوار وخاصة لما رأى أن أفكار الثوار متجهة نحو الاستقلال ، وظل كذلك الى أن مات فى ديسمبر سنة ١٨٢٥

خطة إنجلترا :

كذلك مات "كسارى" وزير خارجية إنجلترا متحرا في سنة ١٨٢٢ وخلفه في وزارة الخارجية "جورج كاننج" وكان سياسيا جريئا صريحا ، من خطته مناوأة مؤتمر الدول ومنعه من التدخل في الشؤون الداخلية للدول الصغيرة ، فأدت حدة سياسته تدريجيا الى عدم اشتراك إنجلترا مع دول وسط أوربا في قراراتها وجعلته يعلن اعتراف إنجلترا باستقلال مستعمرات أسبانيا في أمريكا سنة ١٨٢٤

أما سياسته ازاء المسألة اليونانية فانه مع عطفه على الثوار لم يتدخل فعليا في جانبهم وكان يعلل نفسه بأن اليونانيين لابد أن ينتصروا على الأتراك نهائيا فتستقل اليونان من غير تدخل الدول .

خطة النمسا :

أما "مترنخ" الوزير الأكبر للنمسا فلم تكن له الا سياسة واحدة في الشرق وفي الغرب وهى سياسة المحافظة على القديم واتحاد الحركات القومية والدستورية واحترام الحقوق الشرعية واصحابها سواء كان صاحبها "فرديند السابغ" ملك أسبانيا أو "مجمود الثانى" سلطان تركيا ، لذلك كانت مساعدة النمسا للأتراك ضد الثوار اليونانيين أقرب من تقيض ذلك وخاصة لاتصال البلقان بأملاك النمسا. أما سياسة فرنسا فكانت حكومة ملكها "شارل العاشر" تريد اكتساب ثقة الشعب ملكيين وجمهوريين بالدخول في جانب اليونانيين انتصارا للشعوب الضعيفة من جهة وتأيدا للمسيحيين ضد الأتراك من جهة أخرى . أما بروسيا فكانت سياستها هى عين سياسة مترنخ ، لأنها لم تكن لها مصالح ذات شأن في البلقان ، هذه هى سياسة الحكومات .

عطف شعوب أوروبا :

أما شعوب أوربا فكانت منذ الساعة الأولى تعطف على اليونانيين فتألفت جمعيات "أصدقاء اليونان" في كل مملكة أيدت الثوار بالمال وبالذخائر وبالرجال المتطوعين ، ومن أشهرهم اللورد "بيرون" الشاعر الانجليزي الذي مات أثناء حصار "مسولينجي" والكونونيل "فابيير" الفرنسي . ولا غرابة في ذلك فاليونان في نظر أوربا أم الحكمة ومنبع العرفان ، وهي البقية الباقية من المدينة القديمة ذات الفضل العظيم والأثر المحمود في مدينة أوربا الحديثة ، وهي البلاد التي انبثق منها نور الحرية والديمقراطية الأولى ، فكان حقا على أوربا أن تسدد جزءا ولو صغيرا من دينها السابق .

غير أن الرأي العام في أوربا كان وقتئذ وفي هذه المسألة يعمل مدفوعا بعواطفه ولا يعلم الحقيقة التي لا مرء فيها وهي أن اليونانيين الحديثين قوم قد امتزجوا بالأمم الصقلية وتطبعوا بطباعها فكانوا الى الفطرة أقرب منهم الى المدنية ولم يتميزوا عن باقي الأمم السلائية في شيء ، فان البيئة الجغرافية واحدة وقد أثرت في الجميع على السواء ، اللهم الا اليونانيين الذين رحلوا عن بلادهم وتعلموا وامتزجوا بالأمم الأخرى فانهم حقيقة كانوا ذوى ثروة ونشاط ومقدرة .

على أن عطف شعوب أوربا على اليونانيين لم ينقذهم من الاذعان لسلطان ابراهيم باشا والعثمانيين ، وكان مجد على قد أرسل المدد لابنه ابراهيم فخافت حكومات أوربا أن تكون عاقبة تغلب المصريين في بلاد اليونان أن ينقرض اليونانيون وتثبت أقدام المصريين في تلك البلاد ، فأصبح التدخل لابد منه وخاصة من ناحية روسيا .

خطة القيصر نيقولا الأول :

وكان القيصر "نيقولا الأول" الذي خلف القيصر اسكندر أقوى مراسلا من سلفه مقسدا ما حازما ولم يكن من رأيه التمسك بمبادئ المخالفة

المقدسة لأنه لم يتقيد تكلفه بقرارات سنة ١٨١٥ وما بعدها. وكان من رأيه الصريح التدخل ضد الأتراك فأرسل انذارا نهائيا بشأن شروط لمعاهدة "بوخارست" لم ينفذها الباب العالي، ولم يقو على التصريح بذكر المسألة اليونانية، فلما علم "كاننج Canning" بذلك خاف أن يؤدي الأمر الى تدخل الروسيا بمفردها في حل المسألة فيكون لروسيا النفوذ الأكبر في البلقان فأرسل الدوق "ولنجتون Wellington" سفيراً لدى الروسيا ليعمل على توحيد غرض الحكومتين، فاتفقا مبدئياً في ٤ أبريل سنة ١٨٢٦ على أن تمنح اليونان الاستقلال الداخلي وتبقى السيادة لتركيا.

ومقابل هذا الاتفاق سعت إنجلترا لدى الباب العالي بأن يسرع في الاتفاق مع القيصر على تنفيذ شروط معاهدة "بوخارست" وفعلوا ووفق على ذلك باتفاق "أكرمان" سنة ١٨٢٦ وبمقتضاه أصبح للروسيا حق في ولايتي الدانوب لا يقل عن حق تركيا، وأخذت الروسيا بعض بلاد في جنوب القوقاز، وأصبحت الملاحة حرة في البحر الأسود، ووافق السلطان على ما نالته الصرب من الاستقلال الداخلي.

ولكن المسألة اليونانية كانت تتطلب النظر فيها بسرعة، فعمدت إنجلترا والنمسا الى نصح الباب العالي بقبول الاتفاق المبدئي (أبريل سنة ١٨٢٦) بين إنجلترا وروسيا ولكن الحكومة العثمانية أبدت بدل الموافقة لومها للدول، لأنها لم تراعى مبادئ المحالفة المقدسة، ولأنها شجعت الثوار على الخروج على صاحب الحق الشرعي، وأنكرت عليهم حقهم في التدخل في مسائل الدولة الداخلية، وكانت الروسيا تتحين الفرص لإعلان الحرب والتدخل في المسألة فعدت اصرار السلطان على عدم الاتفاق مع الدول مبرراً للحرب، كذلك اتخذت الوزارة الانجليزية منذ تولى "كاننج" رياستها موقفاً هجوماً، فلم تشأ أن تستسلم لمأطلة الباب العالي، وعلى ذلك سرعان ما تم الاتفاق بين روسيا وإنجلترا وفرنسا في معاهدة لندره سنة ١٨٢٧

معاهدة لنדרه (١٨٢٧) :

أما النمسا فقد أعلنت مبدأها الذي لا تحيد عنه وهو أنها لا تتدخل أبداً بناءً على طلب الثوار، وأن خير طريق لحل المشكلة هو أن تنصح للسلطان ودياً بأن يمنح اليونانيين مطالبهم ، لذلك لم يتحرك ”مترنخ“ وترك الدول الثلاث توقع المعاهدة ، وفي مقدمتها يقولون : ”إنهم عقدوا هذه المعاهدة لمنع الأضرار التي لحقت بمتاجرهم في الشرق واجابة لدعوة الثوار وتلبية لنداء الانسانية ، وبمقتضى هذه المعاهدة تقرر أن تفصل اليونان عن تركيا نهائياً وأن تبقى السيادة لتركيا من غير أن تدفع اليونان الجزية وأن تعلن الهدنة بين المتحاربين تنفيذاً لشروط المعاهدة وإلا تدخلت الدول بالقوة ، ولم يمهل الباب العالي إلا شهرين للجابة“ .

موقف الحلفاء وموقعة نوارين :

ولما رأى الحلفاء ما ينتظر من عناد الباب العالي واصراره على عدم الاذعان ، قرروا سرا أن يرسلوا بعض أساطيلهم الى شواطئ اليونان استعداداً للتدخل بالقوة ، بحذاء أمير البحر ”كدرنجتون Codrington“ أولاً على رأس الأسطول الانجليزي وألقى مراسيه عند ”نوارين“ ثم جاء الفرنسيون بقيادة أمير البحر ”ريني Rigny“ والروسيون بقيادة ”هيدين Heyden“ وبدأت المفاوضات في الحال مع ابراهيم باشا وكان واقفاً بأسطوله العثماني المصري داخل خليج ”نوارين“ . أما الثوار فحين جاءهم خبر ابرام المعاهدة عدوه انتصاراً باهراً لهم بعد أن كانوا قد وصلوا الى حالة سيئة للغاية وخاصة بعد أن سقط حصن ”أثينا“ عقب ”مسولنجي“ فدبت في نفوس الثوار روح جديدة ورحبوا بالمعاهدة حال عرضها عليهم ، أما الباب العالي فإنه بايعاز من النمسا توقف وامتنع عن الاعتراف بالمعاهدة فتمدد باستعمال القوة ، ولكن لم يجد ذلك نفعا وفات الوقت من غير رد أو تساهل

من قبل الباب العالي فوقف الأسطول المتحد أمام ميناء "نوارين" واتفق مبدئيا على أن تبقى الحالة كما هي حتى تصدر أوامر جديدة . ولكن حصل سوء تفاهم بين الأسطولين أثناء غياب إبراهيم داخل المورة وكانت تعليمات أمير البحر "كدرنجتن" تقضى باستعمال القوة اذا دعت الحالة فدارت واقعة "نوارين" في ٢٠ أكتوبر سنة ١٨٢٧ وقضى على الجزء الأعظم من الأسطول العثماني المصري في ثلاث ساعات فتشجع الثوار وأخذوا يستردون مكائتهم .

أثر الموقعة :

أما خبر موقعة "نوارين" في تركيا فقد أتى بعكس المطلوب منه ، فان الباب العالي استشاط غضبا عند سماعه بالكارثة وطلب تعويضا كبيرا من الدول الثلاث ، ودعا السلطان اجتماعا عاما من كبار الأمة وقرأ عليهم منشورا نسب فيه للروسيا خاصة التحريض والمؤامرة ضد الباب العالي ودعا المسلمين الى قتال روسيا عدوة تركيا ومسببة محنها ، فلم يسع القيصر الا اعلان الحرب في سنة ١٨٢٨ ، أما في إنجلترا فقد حدث تغير في سياستها بسبب موت "كاننج" في أغسطس سنة ١٨٢٧ وهو صاحب سياسة الهجوم وجاء بعده "ولنجتون" وهو من المحافظين الذين من سياستهم الحرص على بقاء كيان تركيا ، لذلك لم تواصل الحكومة الانجليزية سياسة "كاننج" فتسعى في تنفيذ معاهدة لندره سنة ١٨٢٧ ، بل أبدى الملك "وليم الرابع" رسميا في خطبة العرش (يناير سنة ١٨٢٨) أسفه على ما حصل في واقعة "نوارين" مشيرا الى هذه الحادثة بقوله "الحادث النحس (The untoward event)" لذلك قصرت إنجلترا مساعدتها في المسألة اليونانية على أن تكون أدبية فقط ، أما فرنسا فأرسلت جيشا يبلغ عدده ١٥٠٠٠ بقيادة المارشال "ميزون Maison" لمراقبة اخلاء "المورة" من الجيوش المصرية .

خطة محمد على بعد الواقعة :

أما محمد على فقد كسب لنفسه مركزاً بين الدول لم يكن ليحلم به ، اذ اضطرت الدول الى مفاوضات مباشرة ، ولا بد أن تكون الدول قد دهشت لما رأته من استعداد وموارد الباشا ، ولما أنس محمد على من الدول رغبة في مصادقته ، رأى أن اصراره على المقاومة وانها كقواه واضعافه لمركز مصر واستهدافه للخطر من أجل السلطان ليس من السياسة في شيء لذلك لما دخلت الجنود الفرنسية "المورة" بقيادة "ميزون" في أغسطس سنة ١٨٢٨ لم يقع بين الجانبين نضال أو كفاح وتضاف إلى الجيوش وتحابا .

مركز مصر في نظر الدولة :

وكانت المفاوضات في غضون ذلك دائرة بين محمد على وأمير البحر الانجليزى ويتضح منها جليا مقدار تحسين محمد على لمركزه الدولى ، فقد كتبت اليه الحكومة الانجليزية تبدي عظيم أسفها على ما لحق الأسطول المصرى من الخسارة بسبب واقعة "نوارين" وتبدي رغبته في أن يكون علاقاتها دائما ودية مع الباشا ، ثم أفضت اليه الحكومة بأن الأخبار الواردة حديثا تدل على أن الباب العالى قد يستمر في مقاومة الحلفاء الى درجة الدخول في حرب علنية ، فاذا دخلت إنجلترا في حرب ضد تركيا فان حكومة إنجلترا تعتبر مركز محمد على كما يأتى :

"إن جلالة الملك ، من غير تدخل منه في العلاقات بين الباشا والسلطان الذى يعترف له الباشا بحق السيادة ، مستعد للاعتراف لسموه بالحيدة التامة متى تعهد هو أيضا بمراءاتها مراعاة تامة اذا ما نشبت الحرب بين الحلفاء والدولة" (١) .

(١) سجلات وزارة الخارجية بلندن (مصر) : من "وزارة الخارجية" الى "سولت"

في ٧ ديسمبر سنة ١٨٢٧

لذلك لم يتردد محمد علي ووقع على اتفاق الاسكندرية في ٦ أغسطس سنة ١٨٢٨^(١) وأرسل يأمر ابراهيم بالخلعاء عن "المورة" من غير انتظار لأمر السلطان فتم ذلك ، وفي ٢٩ ديسمبر وصل محرم بك الى الاسكندرية ومعه باقى الأسطول وهو ٣٨ قطعة و ٢٤٠٠٠ جندي ، وأصبح محمد علي في حالة سلم مع دول أوربا وترك الباب العالى وحده أمام روسيا .

الحرب الروسية التركية (١٨٢٨) :

وكان القيصر قد أعلن الحرب على تركيا في أبريل سنة ١٨٢٨ ولم تكن تركيا على استعداد تام بسبب تغيير نظام الجندية ، ومع ذلك قد انتصر الاتراك سنة ١٨٢٨ على قيصر روسيا أمام حصون "شمالا" و "سلسريا" على نهر الدانوب ، ولكن عاد القيصر فعين الجنرال "ديتش Diebitch" الذى ترك حصون الدانوب دون أن يستولى عليها واحترق البلقان بقوة صغيرة فدخل "أدرنة" ولم يكن معه الا ١٥٠٠٠ جندي ، فلو أن السلطان واجهه بجيش أيا كان عدده لدارت الدائرة على الروس بلا مرأى ، ولكن اضطربت أعصاب وزراء الباب العالى لما علموا باقترب الجنود الروسية من أسوار القسطنطينية فلم يشاءوا الا الصلح ، وعجلت روسيا بعقد معاهدة "أدرنة" سنة ١٨٢٩ وبها وافق السلطان على قرار معاهدة لندره بشأن

(١) وهالك ملخص نص الاتفاق الذى تم بين أمير البحر كدرنجتن ومحمد علي :

(١) يتعهد محمد علي برد جميع الرقيق اليوناني الذى أرسله جنوده الى ممتلكاته بمعد واقعة "نوارين" وقبلها .

(٢) يتعهد أمير البحر كدرنجتن بارجاع الأسرى المصريين وبرد سبعينين مصريين في مياه "مودون" .

(٣) تحلى الجنود المصرية بلاد المورة على سفن مصرية يرسلها محمد علي ويحرسها الخلفاء . وهذا اتفاق غريب في بابه لأنه عقد مع تابع للسلطان باعتباره دولة مستقلة وشروط الاتفاق مخالفة كل مخالفة لرغبة صاحب السيادة .

اليونان . وأصبح النفوذ الروسى عظيما فى مجالس الباب العالى . قال الوزير الروسى " نسلرود Nesselrode " : " قد كان يمكن روسيا أن تقضى على الدولة العثمانية ، ولكن بقاء هذه الدولة تحت حماية روسيا أنفع لها سياسيا وتجاريا من ضم هذه الأملاك أو تجزئتها وتحويلها الى حكومات مستقلة لا يمضى عليها زمن طويل حتى تنافس روسيا فى الثروة والقوة والتجارة " (١) .

هذا يفسر عدم انتصار روسيا لمطالب أهل البلقان الكاملة فى الاستقلال ليظل البلقان تحت نفوذها ، وخشيت الدول أن يزداد نفوذ روسيا فى اليونان بعد معاهدة أدرنه وكان " كابودسترياس " وزير روسيا اليونانى السابق رئيسا للحكومة اليونانية المؤقتة فسعت إنجلترا وفرنسا لدى الباب العالى فى أن تستقل اليونان استقلالاً تاماً . وتم ذلك فى سنة ١٨٣٠ باتفاق الدول الثلاث .

امتناع محمد على عن مساعدة السلطان :

ويلاحظ أن محمد على لم يتقدم لمساعدة السلطان فى هذه الحرب على الرغم من الحاح الباب العالى عليه بارسال جزء من جيشه . غير أن محمد على لم يسعه ازاء هذا الطلب الا أن ماطل واعتذر ببعيد المسافة بطريق البرين مصر وميدان الحرب ، ولعدم وجود أسطول لنقل جنوده ولوقوف أساطيل الحلفاء بالمصايد . ثم اعتذر بتفشى الوباء فى مصر وفى الشام ، وعلى ذلك اكتفى بارسال مليون ريال للباب العالى . ولم توقع الدول على محمد على قوانين الحصر فظلت موانيه مفتوحة وتجارته سائرة كالمعتاد . ولم يضطهد الأروام فى مصر كما حصل فى جميع أنحاء الدولة فى ذلك الوقت .

(١) راجع المسألة الشرقية " لدر بول " صفحة ١٠٨



ابراهيم باشا

الرقيق اليونانى وشدة ابراهيم :

أما شدة ابراهيم فى "المورة" فيظهر أن كتاب الافرنج قد غالوا فيها مغالاة تتفق مع عواطفهم نحو اليونانيين ، والحقيقة أن ابراهيم عامل اليونانيين على حسب الاجراءات الحربية التى كانت تتخذها أية دولة متمدينة فى ذلك الوقت . واتهمته أوربا كذلك بارسال أهل اليونان كرقيق الى مصر ، ولكن ذلك غير صحيح ، فقد كتب قنصل انجلترا العام الى وزارة الخارجية فى هذا الموضوع يقول : "أن الرقيق اليونانى الذى أرسل الى مصر لم يكن أرسله ابراهيم باشا ولا دخل له مطلقا فى وجود هذا الرقيق بمصر اذ القانون العسكرى العثمانى يجعل الأسير عبدا لآسره لا للقائد العام" فيظهر أن عددا عظيما قد باعته الجنود المصرية الى تجار الرقيق وهؤلاء أرسلوه الى مصر ليبيع فيها . ويبلغ عدد الرقيق بمصر ٣٠٠٠ وقد اشترت الجمعية الأغريقية المسيحية نصفهم والباشا يجتهد فى تحرير عدد عظيم من الباقين (١) .

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية (مصر) : من "سولت" الى "وزارة الخارجية"

فى ١٢ أغسطس سنة ١٨٢٦

الفصل العاشر

بين الباشا والسلطان

أثر تجزؤ الدولة :

إن تجزؤ الدولة العثمانية بهذه الطريقة وانفصال أملاكها عنها لم يكن بالشئ الغريب ، إذ ليس من المدهش أن تتساقط الحجارة من البناء المتداعى المنهار ، لذلك يمكننا أن نقول إن انفصال الصرب وأمارات الدانوب ، واليزنان عاجلا أو آجلا كان عملا طبيعيا لم يكن منه مناص لأنه لم يكن الا نتيجة لحركات داخلية قام بها أهل هذه الأقسام أنفسهم يحركهم الشعور القومى أولا والتحرير الأجنبي ثانيا ، وليس هناك معنى فى أن تبقى الأقوام تحت سيطرة من لا قدرة له على المحافظة عليها .

غير أن الدول بمساعدتها هذه الأقسام على الانفصال من جسم الدولة سواء كان ذلك بالتحرير أو بالمساعدة الفعلية قد أخرجت مركزها أيما إخراج . ويظهر أن حب الدول "للكلفت" المورة والبلقان على العموم قد أنساها أهل الشرق وولاته ، نسوا أنهم باذلالهم السلطان وبشدهم أزر النافرين عليه قد وضعوا مثلا جديدا يجتذيه غيرهم من رعايا السلطان . ولعلمهم تخيلوا أن أهل الشرق دون أهل الغرب تفكيرا وشعورا وتعاموا فى ذلك على الحقيقة الظاهرة وهى أن رعايا السلطان مسلمين كانوا أو مسيحيين شرقيين أو غربيين كان نصيبهم من ظلم الولاة وعسفهم واحدا متماثلا .

نسيت الدول أنه اذا جرت على قاعدة وطبقها على مسألة أو أكثر كان حقا عليها وعدلا أن تطبق القاعدة فى الأحوال المتماثلة التى قد تنشأ فى الدولة فى المستقبل ، وانه اذا لم تتبع القاعدة الأولى يكون جزاؤها الازدراء وعدم الاكتراث .

لم يرغب الدول على العدول عن خططها العدائية ضد السلطان الا محمد علي، الذي أجبر الدول على أن تردد النظرية القديمة القائلة بحفظ كيان الدولة العثمانية . ولم يكن محمد علي أول من قام يعارض الباب العالي عقب الثورة اليونانية، فقد سبقه على باشا حاكم "يانية" في أول عهد الثورة وتمرد ولاية "بغداد" و "عكا" و "اشقدره" ولكن لم يكن في قدرة واحد من هؤلاء أن يجرّد السيف طويلا ضد السلطان . محمد علي هو وحده الذي قدر له أن يضرب قلب الدولة ويغرم السلطان على الاتفاق معه على حسب شروطه الخاصة . كل ذلك على مرأى من الدول وضد رغباتها الأكيدة.

*
* *

خطة محمد علي الأولى :

ولما انتهى محمد علي من حروبه في بلاد العرب والسودان والمورة ظافرا كان اسمه قد طبق الآفاق وصار ذكر منجد مكة والمدينة على لسان كل المسلمين، وأصبح محمد علي في مركز يمكنه من معارضة السلطان اذا شاء ذلك ولكن محمد علي كان له من النظر السياسي الصائب ما جعله يحافظ على علاقته بالدولة العثمانية ، ألم يكن له من ذلك ضمان صيانة أملاكه التي لم تكن الا جزءا من الدولة العثمانية المقول بضرورة حفظ كيانها واستقلالها ؟ ولقد وجد محمد علي من مركزه في الدولة حصنا متيعا مكنه من مواصلة سياسته التي كانت أبدا ترمى الى علو منزلته وامتداد نفوذه في الدولة تحت ثوب اخلاصه الشفاف .

ولما انتهت الحرب اليونانية وانسحبت الجنود المصرية من "المورة" وتمكنت أوروبا من تنفيذ كلمتها في مصلحة اليونان ساء السلطان من محمد على عدم مساعدته للدولة في حربها ضد الدول واكتفاؤه عند نشر الحرب الروسية التركية بارسال اعانة مالية بدل حملة عسكرية ، لذلك اشتد حنق السلطان على محمد علي واضطرت في صدره نيران الحسد لما ظهر به محمد

على من القوة ، وأخذ يوقع بين محمد على وابنه إبراهيم ، ولم يكافئ محمد على على خدماته بشيء مما وعد به إلا حكم جزيرة "كريد" . ومن مظاهر العداء أن السلطان أشار على محمد على في سنة ١٨٣٠ أن يترك الاسكندرية ودمياط ورشيد ليتسلم حكمها قبطان باشا ، ومن مظاهره أيضا أن عين السلطان خسرو باشا صدرا أعظم رغم العداء المستحكم بين خسرو ومحمد على (١) كل ذلك أوغر صدر محمد على ضد الباب العالي وجعله يفكر في مشروعات كلها طمع وأناية .

مراجعة محمد على لخطته :

وأخذ محمد على يراجع خطته السياسية نحو الباب العالي ؛ فبينما كان الباب العالي يواصل الحرب ضد روسيا كان محمد على يعد العدة لأجل ما عسى أن يحصل في المستقبل ، فلما عادت الحملة من "المورة" واستقرت الجنود بمصر شرع إبراهيم باشا يهيء عقول الضباط لاستقبال السياسة الجديدة ضد الباب العالي . فقد قال في خطبة له أثناء وليمة للضباط :

"ماذا استفدنا أنا وأتم من السلطان ؟ ألسنا في الحقيقة كلنا أولاد محمد على الذي ربانا وعلمنا ! ألم نأكل جميعا من خبزه ؟ إن مصر حق لمحمد على ، حق اكتسبه بالسيف ولا تعرف لنا ملكا غيره" (٢) . وفي تلك الأيام زار مصر "الأمير بشير الشهابي" حاكم لبنان ونزل ضيفا مكرما عند الباشا ولا بد أن يكون قد دار بين الاثنين اتفاقات ودية ، ويظهر أن محمد على كان يتأهب للتحفز إذا حدث ما يبرر هذا العمل .

(١) راجع "المقتطف" مايو سنة ١٩٢٥ وما بعده "مقالات الدكتور اسد رستم" مز

(٢) سجلات وزارة الخارجية (مصر) : من فصل إنجلترا العام ٨ يناير سنة ١٨٣٢

خلق السلطان محمود الثانى :

أما لدى الباب العالى فلم تكن دلائل الشقاق والاستعداد أقل منها عند الباشا . وقد ساعد على اذكاء نار الخلاف ما كان فى خلق السلطان محمود الثانى من الشذوذ . فقد كان محمود الثانى سلطانا مستبدا سريع الانفعال ، تارة شديد البطش ، وأخرى شديد الكآبة والحزن ، يقابل تذبذبه بين القسوة واللين عناد شديد يتولاه فى ظروف معينة . وكان يعهد بحكمته الى أتباعه الذين يشملهم باحسانه فكان يولى ويعزل ويسجن كما شاءت تقلبات أهوائه . ومع ذلك كان محمود الثانى حقيقا سلطانا قويا يريد لأمره كل خير وصلاح ، ولكن لسوء حظه لم يسلك الطرق المناسبة التى توصله الى أغراضه إذ اتبع طرقا قهرية همجية خالية مما يجذبها ويقر بها لدى الشعب . لذلك لم يصادف محمود الثانى فى أكثر اصلاحاته الا المعارضة الشديدة والاختفاق ، فكان محمود الثانى يتأكل قلبه حسدا من محمد على لأن هذا نجح حيث أخفق هو . ومن شدة حسده لمحمد على أن دعاه لحرب الوهابيين ، ثم لحرب المورة لعله بذلك يفنى جزءا كبيرا من قوته وثروته ، ولكن للدهر سخرية غريبة فبدل الضعف الذى كان يرجوه السلطان لمحمد على من جراء الحروب الطاحنة التى اشتبك فيها ناله منها الفخار والصيت الذائع ، ولم يحزن السلطان منها الا الخسارة والذلة ، لذلك أصبح محمود الثانى وقلبه مفعم بالضغينة بحب الانتقام من محمد على .

بين محمد على ووالى عكا وفكرة ضم الشام لمصر :

لما قام النزاع بين عبد الله باشا والى عكا ومحمد على بسبب عدم اذعان الأول لأوامر الباشا ، اذ رفض أن يصدر اليه الأخشاب اللازمة لأسطوله وأن يعيد اليه بعض المصريين الفارين من القرعة العسكرية والضرائب ، اشكى عبد الله الى الباب العالى فعضد السلطان الوالى وشجعه

على معارضة رغبات الباشا ، فعزم محمد على على أن يتخذ من هذا التحرش سببا لتنفيذ مشروعه . أراد محمد على كغيره من كبار الفاتحين أن يوسع رقعة ملكه على حساب جيرانه الضعفاء ، وكان يرى في بلاد سوريا جزءا متما لمصر وبدونه لا تأمن مصر من غائلة العدو المهاجم من الشرق ، ورأى الباشا أن مصر بلد عديمة الغابات تلزمها الأخشاب من أحراش سوريا للوقود ولبناء أسطولها التجارى الحربى ، كما أنها فى حاجة لما تنتجه سوريا من ثروة معدنية وزيوت وحراير وجلود وأحجار مما كانت تحتاجه معامل محمد على . وكان قد أفهمه مستشاروه من الفرنسيين — وهم الاخصائيون فى مسائل الحدود — أن حدود مصر الطبيعية من جهة الشرق هى جبال ” طوروس “ على أبواب آسيا الصغرى لا صحراء العرب . وفى الحقيقة لم تعد الحكومات القوية التى استولت على مصر طريقة لضم الشام الى أملاكها . وليس هناك أدنى شك فى أن محمد على كان مقتنعا بصحة دعاوى القائلين بضم جميع بلاد سوريا ، غير أنه كان فى بادئ الأمر متواضعا فى طلبه فلم يصمم الا على ولاية عكا ^(١) .

واتهمز الباشا فرصة اشتباك السلطان فى ثورة قامت فى ” البوسنة “ فقدم انذارا نهائيا للباب العالى يهدد فيه عبد الله والى ” عكا “ بالعقاب وباستعمال القوة ضده اذا لم يذعن لطلباته ، وخاف السلطان مغبة هذا الانذار بسبب قيام الثورات الداخلية فى بلاده ففتح بابا للاتفاق مع محمد على ، ولكن ما كاد يرسل الباب العالى رسله اليه حتى بلغته أخبار نزول حملة ابراهيم باشا الى الشام وكانت قد انحدت الثورة فى ” البوسنة “ فلم يجد الباب العالى بأسا من تحدى محمد على ومنازلته .

قيام الحملة :

وفى ١٤ أكتوبر سنة ١٨٣١ قامت طلائع الحملة من مصر بطريق ” العريش “ ، وفى ٨ نوفمبر احتل الأسطول وعلى رأسه القائد العام ابراهيم باشا

(١) راجع مقدمة كتاب ” نفارة عامة فى مصر “ لكاوت بك .

ميناء "يافا" وفي ٩ ديسمبر بدئ حصر "عكا" وفي هذه الأثناء كان قد وصل مندوب من قبل السلطان إلى الاسكندرية وهناك أوضح له محمد على خطته بكل صراحة ، قال محمد على : "بعد أيام قلائل ستقع "عكا" في يدي فإذا رضى السلطان وقفت عند هذا الحد ، وإذا لم يوافق زحفت جنودى على "دمشق" فإذا وافق السلطان على أن أضمد دمشق وقفت عند ذلك وإن لم يرض أخذت "حلب" فإذا لم يوافق السلطان فمن يدري ماذا يكون ؟" فعرف المندوب اصرار محمد على وفهم استعداداته لتنفيذ أغراضه للنهائية فنصح للباب العالى بالاذعان لطلب محمد على ، وكان جزاء صراحته أن سحب من اسكندرية وسجن ، وأخذ السلطان يعد جيوشه بكل هممة لمزاولة حرب لم يكن لها على استعداد .

سقوط عكا وأثره :

ولكن قبل أن يتأهب الجيش التركى للعمل بقيادة حسين باشا الذى عينه السلطان قائدا للجيش وواليا على مصر بدل محمد على ، كان قد سقط حصن عكا فى ٢٧ مايو سنة ١٨٣٢ فى أيدي المصريين بعد حصار طال ثمانية شهور تقريبا ، وإذا ذكرنا أن نابليون تفهقر أمام حصن عكا أدركنا أهمية هذا الانتصار لآبراهيم باشا ، ولكن يجب أن نذكر أيضا أنه لم يكن هناك أسطول معاد يعمل ضد آبراهيم فى ميناء "عكا" كما كان يعمل "سدنى سمث" ضد نابليون .

سير الحملة :

وكان لسقوط عكا وانتصار محمد على دوى نبه العقول من غفوتها فقام الناس ضد العثمانيين مرحبين بالجيش المصرى أينما حلت ، وتشجع الأمير "بشير" فأعلن صراحة انضمام أهل الجبل لمحمد على ، وأتى الناس من كل فج يعلنون قبولهم للحكم المصرى ، وبينما كان آبراهيم يحاصر "عكا"

كانت قد استولت الجنود المصرية على "بيت المقدس" و"وطرابلس" و"بيروت" ولما سقطت "عكا" أرسل محمد علي مندوبا للمفاوضة مع الباب العالي بشأن شروط الصلح طالبا "فرمانا" بتوليته "سوريا".

خطة الباب العالي وانهمام جيوشه :

وكان السلطان في ذلك الوقت قد أرسل قرارا بعزل محمد علي من مصر وابنه من مكة وقرارا آخر بطردهما خارج القانون ، فلما علم محمد علي بذلك أرسل من قبله واليا على دمشق ودخلها ابراهيم باشا بلا مقاومة ثم اقترب من "حمص" وهزم الأتراك شرهزيمة ، ودخل "حماة" وتقهقرت جيوش السلطان الى "أنطاكية" ولما اقترب حسين باشا القائد العام من حلب وصدت في وجهه الأبواب ورحل الى الاسكندرونة فدخل ابراهيم باشا حلب في ١٥ يولييه بدون مقاومة وتقابل هو وجيوش حسين باشا في مضيق "بيلان" بين أنطاكية واسكندرونة فانهمز حسين باشا وترك جيوشه ومؤنته وكل شيء وفر الى "اطنة" أو "اذنة" أما ابراهيم فدخل أنطاكية في أول أغسطس. ثم فتح محمد علي باب المفاوضات للصلح ولما لم يصله الرد عزم على أن يسير نحو القسطنطينية بعد أن يتمكن ابراهيم من الاستيلاء على مفتاح جبال الطوروس التي تفصل بلاد الشام عن آسيا الصغرى^(١) . ويظهر أنه كان في نية محمد علي الأولى أن يقف عند هذا الحد. ولكن لما تكرر رفض السلطان لشروط محمد علي التي كان يقدمها عقب كل انتصار اضطر ابراهيم الى أن يعبر الجبال وينزل في سهول آسيا الصغرى واحتلت الجنود المصرية إقليم "اطنة" على الساحل بناء على أوامر محمد علي .

انحياز الرأي العام الى ابراهيم :

ولما شعر القوم بوجود قوات محمد علي بينهم انبعثت في قلوبهم الحماسة العظيمة وانهاالت على ابراهيم رسائل الترحيب وطلبات التخليص من يده

(١) سجلات وزارة الخارجية (مصر) : من المعتمد "باركر" الى "المرستون" في ٨ يونيو

الأتراك . فكتب سكان اقليم "قسطموني" الكائن في الركن الشمالى لآسيا الصغرى يقولون : "نحن سكان هذا القسم قد قررنا أن نهجر حزب الحكومة التركية التى عجزت عن صيانتنا والدفاع عنا ، ولما كنا نرغب فى أن نتمتع بالسعادة والسكون الشاملين للأقسام التى خلعت نير الحكومة ودخلت تحت حكمكم فنتمس أن تقبلوا خضوعنا وأن تشملونا بحمايتكم ورعايتكم" .

موقعة قونية :

فتشجع ابراهيم باشا بهذا الشعور الذى ظهر من جانب الأهالى وجاءه المدد من مصر فتقدم الى الداخل واحتل موقعا حربيا فى غاية من المنعة عند "قونية" وكان قد هجرها الأتراك عند سماعهم بقدوم ابراهيم باشا فقضى ابراهيم فصل الشتاء يدرب جنوده فى الجهات المجاورة استعدادا لمقابلة الجيش العثمانى بقيادة رشيد باشا زميل ابراهيم فى حصار "مسولنجي" فى حرب المورة .

وكان رشيد بك قد أخضع العصاة فى ألبانيا والبوسنة فكسب بذلك رضا السلطان الذى علق على تعيينه للقيادة أهمية عظمى . وفى ٢١ نوفمبر سنة ١٨٣٢ دارت رحى القتال عند "قونية" وهزم الجيش العثمانى شر هزيمة وأسر القائد العام . وقد كانت خطته فى أول الأمر أن يتحصن فى نقطة معينة ليحول دون وصول ابراهيم باشا قرب القسطنطينية وعند هذه النقطة ينتظر المهاجم ، ولكن السلطان أرسل إليه أوامره بالتحرك لمقابلة المصريين وكان عدد الجيش العثمانى ضعف عدد الجيش المصرى فكانت النتيجة وبالا على الجيش والسلطان اذ أصبح الطريق الى القسطنطينية أمام قوات محمد على .

المسألة الشرقية والدول :

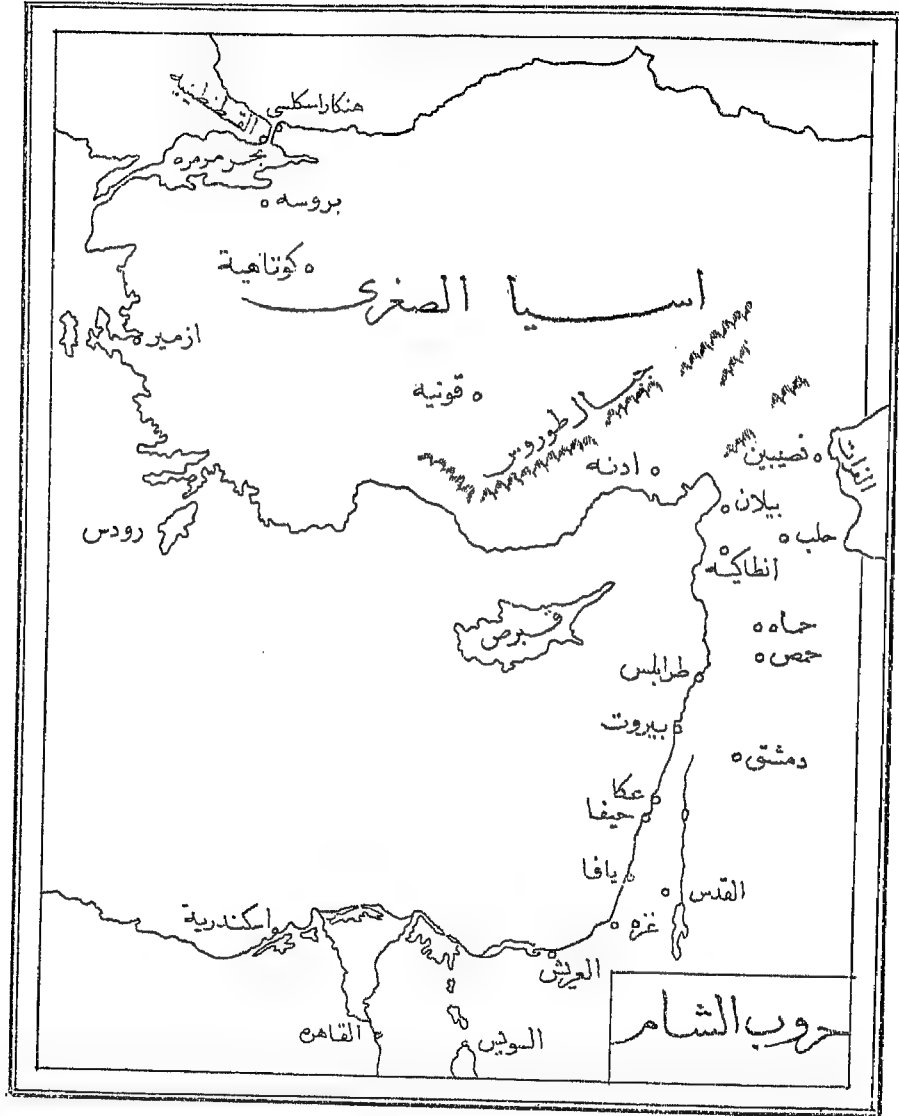
كان أثر انتصارات ابراهيم باشا السريعة المتوالية أن أثارت مخاوف السلطان محمود ، ولما لم يكن هناك ولاية يرجى منهم المساعدة ضد محمد على اجتهد السلطان بمساعي وزيره خسرو باشا أن يكسب دول أوروبا الى جانبه وذلك بأن يشوه سمعة محمد على لدى الدول ، ولم تكن دول أوروبا تعلم عنه الا قليلا ، ولو أن ساسة أوروبا لم تنس حماسه المصريين وهم يحاربون في المورة ، أما ” بالمرستون “ وزير خارجية إنجلترا فانه لم ينس قط أن المصريين أخذوا معهم الى مصر ٣٠٠٠ من الرقيق اليوناني بصفة أسرى .

غير أن الدول مع شدة رغبتها في حفظ كيان الدولة العلية ومساعدة السلطان لم يكن وقتئذ متفرغة للنظر في مشاكل الدولة ، فكانت مسألة ثورة الأراضي المنخفضة وثورة بولندة وحروب اسبانيا الداخلية والاصلاحات النيابية في إنجلترا تشغل بال ساسة أوروبا .

طلب المساعدة من إنجلترا أولا :

وكان الباب العالي قد طلب الى سفير إنجلترا السير ” استراتفورد كاننج Stratford Canning “ عقد محالفة بين تركيا وبريطانيا العظمى الغرض المباشر منها اخضاع محمد على ، ووعد الباب العالي أن يمنح إنجلترا أى امتيازات معقولة مقابل ذلك ^(١) وأردف الباب العالي ذلك بأن أرسل سفيره في النمسا ليفاوض إنجلترا خاصة في ارسال مدد بحرى تقوم تركيا بنفقائه ولو كانت إنجلترا أجابت الطلب لحال المدد البحري دون استيلاء ابراهيم باشا على ” عكا “ بسهولة ولعرقل مساعي محمد على بالشام ، غير أن الوزارة البريطانية

(١) سجلات وزارة الخارجية تركيا (سرى وخاص) : من السير ” استراتفورد كاننج “ فى ٩



قررت رفض ارسال المسدد مخالفة في ذلك رغبة الوزير " بالمرستون " واضطرت الوزارة أن تعلن فيما بعد في مجلس العموم أنه لم يكن من المستطاع في حين اشتغال القوات الانجليزية في هولندة والبرتغال ارسال قوة بحرية تناسب مركز بريطانيا البحرية (١) .

ورد الوكيل السياسى لدولة بريطانيا أمام الاسانة قائلا : " ان المسألة أصعب مما يتصوره الباب العالى وأن الحكومة البريطانية ستحتاج الى وقت تجيب فيه ، ولكنها في الوقت نفسه سترسل الى محمد على في أقرب فرصة معبرة عن الأسف الذى سببته خطته وعلى أملها في أن يعقد الصلح مع السلطان مباشرة ، وأن الحكومة أرسلت معتمدا سياسيا "كولونيل كامبل" لأجل التشديد على محمد على بعقد الصلح وتفهمه بأن العبث بوحدة الدولة العثمانية لا يمكن أن يحدث بدون أن تتحرك إنجلترا (٢) .

طلب المساعدة من روسيا :

ففت في ساعد السلطان وزاد يأسه لما علم بتهديد ابراهيم للقسطنطينية واضطر أخيرا الى أن يتنزل فيرسل في طلب الصلح من محمد على ، وبألت الأمر وقف عند ذلك بل طلب المعونة من روسيا بعد أن أخفقت مساعي الباب العالى لدى إنجلترا التي زودته بالقول دون العمل .

أما روسيا فوجدت في المحنة التي وقع فيها السلطان فرصة لتأييد نفوذها ووضع حمايتها الأدبية على البوغازات كذلك لم يكن من مصلحة روسيا أن ينتصر محمد على ويتفوق على السلطان فتنشأ حينئذ حكومة قوية في القسطنطينية تحول دون بلوغ روسيا لأمانها ، فقد كتب " نسلرود " وزير روسيا الى سفيره في الاسانة يقول : " إذا انتصر محمد

(١) حياة بالمرستون : الجزء الثاني ص ٣٥٨

(٢) مجلات وزارة الخارجية : الى " مندفل " في ٥ ديسمبر سنة ١٨٣٢

على فان النفوذ الفرنسى يزداد فى القسطنطينية فتصبح هذه المدينة مأوى للذين يتآمرون ضد حكومة روسيا ، لذلك ترى روسيا فى عهد على جارا قويا ظافرا بدلا من جار ضعيف مقهور (١) .

حضور المندوب الروسى :

وعلى ذلك أوفدت الى القسطنطينية فى ٢٢ ديسمبر مندوبا خاصا وهو القائد "مورايفف" Muravieff ، فعرض على الباب العالى المساعدة الفعلية ضد محمد على وفى ١١ يناير وصل المندوب الى الاسكندرية ليهدد محمد على باسم القيصر نيقولا بالويل والثبور وعظائم الأمور اذا لم يقبل شروط الصلح المقدمة من لدن السلطان بوساطة المندوب خليل باشا الذى أوفده السلطان فى ٧ يناير لمفاوضة الباشا ، فوجى على من تدخل روسيا ويقول "سنت جون" وهو شاهد عيان أن الباشا تأثر وجمع ٥٠٠٠٠ من المصريين لحضور صلاة جامعة أمام قصره داعين الله بنصر الباشا ورجوع جنوده ظافرين سالمين (٢) .

وقوف ابراهيم عند كوتاهية ونزول المدد الروسى بالبسفور :

غير أن محمد على كان على علم تام بيجرى السياسة فى أوروبا فلم يتزعزع أمام تهديد روسيا ، ولما عرض خليل باشا شروط الصلح رفضها باحترام وأدب ، ولكن لكى يرضى روسيا أرسل الى ابراهيم يأمره بالوقوف وهو فى طريقه الى "بروسه" فوقف عند "كوتاهية" بعد أن رفض الوقوف بناء على رغبة "دى فارن De Varennes" المعتمد السياسى لفرنسا بالقسطنطينية قائلا أنه لا يقف ولا يتحرك إلا على حسب أوامر ورغبات

(١) البسفور والدردينيل لفرنانوف : ص ٣٠

(٢) مصر ومحمد على لسنت جون : الجزء الثانى ص ٥٢٤

أبيه ، وعندئذ كان السلطان قد طلب إلى روسيا إرسال المدد خوفا على عرشه أن يسقط من جراء الفتن الداخلية التي كان يؤجج نارها محمد على باشا فلبت روسيا طلبه ، وفي ٢٠ فبراير رست القوة البحرية الروسية في "البسفور" أمام "ترابيا" حيث دار السفار الانجليزية ، فاشتد قلق إنجلترا وفرنسا من تدخل روسيا الفعلي وانفرادها بالعمل ، وسارع سفير فرنسا الجديد أمير البحر البارون "روسين Roussin" إلى الاحتجاج أمام الباب العالي ونصح لوزير الخارجية بأن يجيب طلبات محمد على في الحال حتى لا يعرض المملكة للخطر الذي لا بد أن ينجم من وجود الجنود الروسية بين الأهالي .

خطة الدول :

وكانت الدول في هذه الآونة ترقب الأحوال وهي صامتة أثناء عراك محمد على والسلطان فلم تتحرك قيد أنملة لايقاف الحرب ، ولكن لما كسب محمد على الواقعة بدأت الدول تتكلم حتى اذا ما ظهرت روسيا بمفردها في الميدان أوجس باقي الدول خيفة وبدأ الساسة يتكلمون . وأنه من السهل تلخيص سياسة الدول إزاء المسألة الشرقية .

كانت الدول تعتبر المحافظة على كيان الدولة ضرورة سياسية لازمة لتأييد السلم العام في أوروبا . ولما كان تهديد ابراهيم للقسطنطينية يعد عبثا بكيان الدولة وجب على الدول التدخل ، ولكن حال دون ذلك موانع : (أولها) اشتغالها بأحوالها الداخلية كما ذكرنا ، (ثانيها) انتصارات محمد على السريعة التي لم تكن في الحسبان ، وثالثها أن الدول كانت تميل إلى جعل النزاع بين محمد على والسلطان مسألة داخلية لا ينبغي أن تعقدها الدول بتدخلها .

غير أن رسالة القائد "مورافيف" وقبول السلطان لمساعدة روسيا أثارا الشكوك في قلوب الدول الأخرى ، حتى "مترنخ" نفسه — على الرغم من تفاهم القيصر معه — لم يوافق على وجود الأسطول الروسى بالبسفور ، أما إنجلترا وفرنسا اللتان كانتا في حالة اتفاق ودى فانهما نظرتا إلى الحالة

السياسية بعين الاهتمام العظيم وكانت سياسة إنجلترا التقليدية ترمى الى التمسك بالمحافظة على الدولة العثمانية ، أما فرنسا فكانت لها سياسة مزدوجة ترمى الى نصرة الدولة العثمانية من جهة والى تقوية حكومة مصر الناهضة من جهة أخرى . غير أنه بسبب تدخل روسيا بمفردها فى المسألة انضمت إنجلترا الى جانب فرنسا نصيرة محمد على وأصبح لفرنسا الشأن الأول أمام "الرئيس افندى" وزير الخارجية العثمانية ولعب "دى فارن" وأمير البحر "البارون روسين" دورا هاما فى المخابرات التى جرت بين الباب العالى من جهة ومحمد على وإبراهيم من جهة أخرى .

ارسال معتمدين سياسيين لمحمد على :

أما إنجلترا فانها سارت وفق فرنسا فى جميع أدوار هذه المسألة وزادت بأن أرسلت سفيرا ممتازا أمام الباب العالى وهو اللورد "بنسنبي Ponsonby" ولما رأت ما وصل اليه اسم محمد على وحكومته من الصيت بادرت فأرسلت الى مصر معتمدا سياسيا فى شخص الكولونيل "كامبل Campbell" ليؤكد لمحمد على ما يشعر به جلالة الملك نحو سموه من الاحترام والاعتبار الشخصى ويساعد فى توثيق الروابط الودية التى تربط البلدين . كذلك أرسل "مترنخ" الكولونيل "بروكش فن استن Prokesch Von Osten" ليعبر عن اعجاب الامبراطور بتفوق عقلية محمد على ويقوى العلاقات التجارية والودية بين البلدين (١) .

ويظهر أن الباب العالى بتسويده صحيفة الباشا أمام الدول ومداومة الشكوى من نمو قوته قد قدم لمحمد على أجل خدمة ، إذ بذلك جذب عقول الدول نحو محمد على رمز القوة الناهضة الزاحفة ، والقوة فى عرف الدول مستودع جميع الفضائل .

(١) مصر ومحمد على لسنة جون : ص ٥٣٢

وبينما كان محمد على يستقبل الوفود ومعتمدى الدول ومندوبيها الذين ساقهم حب الاستطلاع الى مصر حيث الرجل العصامى العبقري الذى كاد يقيم فى الشرق ما رسمه نابليون فى مخيلته سنة ١٧٩٨ ، كانت المفاوضات تدور بنوع من القلق والشدة بين الباب العالى وسفراء الدول بشأن الشروط التى يجب التسليم بها حتى تزول أشد أزمة وقع فيها السلطان ، وكان "البارون روسين" المعين حديثا سفيرا لفرنسا لدى الباب العالى قطب هذه المفاوضات من يوم نزوله بالسفارة .

البارون روسين سفير فرنسا :

كان البارون روسين رجلا مستقل الرأى صريحا معجبا بنفسه ومقدرته ولكن لقلّة تدريبه فى أعمال السياسة كانت تعوزه الحنكة السياسية والنظر الصحيح ، وكانت فكرته الأساسية فى المسألة الشرقية محاربة مطامع روسيا فى القسطنطينية فى كل وقت ، ولذلك كان ظهور القوة الروسية أمام البسفور فى نظر "روسين" بمثابة اعلان للحرب على فرنسا ، فكان من المحتم عليه مع مؤازرة انجلترا له ازالة كل ما يمكن حدوثه من النتائج السيئة من جراء وجود الاسطول الروسى ، غير أنه فى بدء عمله تسرع ولم يسدد خطاه فبدأ بأن تعهد لدى الحكومة العثمانية بأن يقبل محمد على شروط الصلح التى قدمها الباب العالى بواسطة خليل باشا التى بمقتضاها نزل السلطان لمحمد على عن أربعة أقسام فى سوريا وهى صيدا وطرابلس وناپلس وبيت المقدس ، وفى مقابل هذا يتعهد الباب العالى برفض المساعدات الأجنبية^(١) واتبع ذلك بأن كتب الى محمد على تبريرا لتعهدده كتابا جافا هو بمثابة تهديد بالحرب قال فيه :

"إن اصرارك على طلباتك وادعاءاتك التى أعلنتها ستجر على رأسك عواقب وخيمة أرجو أن يردعك الخوف منها . ان فرنسا ستمسك

(١) سجلات وزارة الخارجية (تركيا) : من مندفيلى ٢١ فبراير سنة ١٨٣٢

بالتعهدات التي أبرمتها وأن لها القوة وأنا ضمين صدق إرادتها . وإلى
لأرجو أنك لا تضطرننا إلى اللجوء إلى الضرورة القاسية باستعمال القوة
ضد مملكة نحن من مشيديها وضد عظمة وانتصار نحن من أخلص المعجبين
بهما . وزيادة على ذلك فقد كلف "ياوره" الحامل لكتابه أن يهدد
محمد على شفاهيا بأنه إذا رفض الشروط فإن إنجلترا وفرنسا تشتركان
في ضرب الاسكندرية . وقد أرسل كتابا بهذا المعنى إلى ابراهيم باشا غير
أن الحكومة المصرية قابلت الرسالتين بما يستحقانه من السخرية ، فان
محمد على قد صمم على أن يمد نفوذه إلى سوريا جميعها وإلى "أطنة" في آسيا
الصغرى . وكان محمد على عالما بأن له من القوة ما يمكنه من تنفيذ أغراضه
في أقاليم تحتلها جنوده ، زد على ذلك أنه كان يعلم علم اليقين بأن اقترابه
من القسطنطينية لا بد أن يحدث حربا أوربية عامة ، من أجل ذلك تذرع
محمد على بالثبات وتمسك بمطالبه إلى النهاية ، أما عن رسالة "البارون
روسين" فان قنصل فرنسا باسكندرية ومسيو "بوالسكت" المندوب
الخاص من قبل فرنسا قد خففا من وطأتها وكتب محمد على إلى البارون
يرفض شروط السلطان رفضا جميلا بقوله : "اسمح لي ياسيدى السفير أن
أسألك بأى حق تدعوننى لأن أضحي نفسى ، ان الشعب معى وما على إلا
أن أرفع أصبعى فأثير الثورات فى "الروملى" و "الأناضول" وما دام
الشعب معى ففى مقدورى أن أعمل كل شئ ، وأن دعوتك لى بأن أنخل
عن الأقاليم التى أحتلها هى بمثابة الحكم على بالاعدام السياسى ، غير أنى
وافق أن فرنسا وإنجلترا لا يخلان بالانصاف" وختم محمد على خطابه بعزمه
على التمسك بمطالبه (١) .

(١) مذكرات جيزر : الجزء الرابع ص ٤٦

مساعي الصلح :

ولأجل أن يتبع القول بالعمل أرسل محمد علي فصائل من الجند الى سوريا وأمر ابراهيم بالزحف على القسطنطينية اذا لم يقبل الباب العالي شروطه بعد مرور خمسة أيام من وصول خليل باشا الحامل لشروط محمد علي ، وأمره بمواصلة الزحف حتى تجاب طلباته (١) .

فلما وصلت الأخبار الى القسطنطينية زاد رعب السلطان ، وكتب الباب العالي يطلب الى سفير روسيا الاسراع باحضار القسم الثاني من المدد الروسي ، فوقع الخبر على "روسين" وقعا أليماً أعاد إليه رشده السياسي فحرف حقيقة الحالة وأنه لا يمكن أن يغادر الروس البسفور بمجرد انسحابه من القسطنطينية أو بضرب سواحل الاسكندرية ، وعرف أنه إذا ما تم الصلح بين السلطان والباشا فإن روسيا لا يمكنها أن تبرر وجودها على سواحل البسفور وتضطر حينئذ الى الجلاء ، لذلك عمد "روسين" ومعتمدو الدول السياسيون الى نصيح الباب العالي باجابة طلبات محمد علي وبعد مفاوضات دارت بشأن استئناف القتال ، وجد الباب العالي أن لا فائدة البتة من حرب قد تجر معها الانهزام وخسارة كل شيء ، فقرروا أن يذهب المسيو "دى فارن" وكيل فرنسا السياسى الى "كوتاهية" قاعدة ابراهيم الحربية ويعرض عليه شروط السلطان القاضية بمنحه جميع سوريا ، ويفهمه بأن رفضه لهذه الشروط مما يغضب فرنسا كثيرا (٢) .

فسافر "دى فارن" فى ٢٠ مارس ولما عرضت الشروط على ابراهيم باشا طلب اضافة "ديار بكر" و "ارفا" وميناء واحدة على الأقل فى إقليم "اطنة" فرجع "دى فارن" فى ١٥ أبريل سنة ١٨٣٣ وقال ان ابراهيم لم يسعه الا الاذعان لنصيحة إنجلترا وفرنسا وأنه متأكد من أن الباب العالي

(١) سجلات وزارة الخارجية (تركيا) : رسالة نمرة ٦٠ فى ٢٧ مارس سنة ١٨٣٣

(٢) سجلات وزارة الخارجية (تركيا) : من مندوفيل ٣١ مارس سنة ١٩٣٣

لا يضمن عليه باقليم "اطنة" وأنه قد أصدر أوامره بالجللاء من وراء جبال الطوروس على الرغم من أوامر والده الصريحة بعدم الجللاء ما لم تجب مطالبه (١).

حرج مركز السلطان وصلاح كوتاهية :

ولكن لما علم بأن الباب العالي لم ينزل عن "اطنه" بعد أن وافق على ذلك مبدئياً أوقف حركة الجللاء وانتظر سير الحوادث . وأخيراً عجل السلطان بتسوية المسألة على الرغم من حضور قسم ثالث من المدد الروسى وذلك لأن الأحوال الداخلية في الدولة كانت في حالة مزعجة : فان إبراهيم باشا كان يحتل جزءاً كبيراً من "الأناضول" فأصبحت القسطنطينية مهددة بالمجاعة في أى وقت ، وقد زاد في ارتباك الحالة الاقتصادية وجود المدد الروسى الذى أصبح عدده أكثر من ٣٠,٠٠٠ ، زد على ذلك الاضطراب السياسى الكامن الذى سببه استعانة السلطان بعدو الأتراك القديم ، هذا إلى أن ضغط سفراء فرنسا وإنجلترا قد جعل السلطان يجيب إبراهيم باشا الى مطالبه وذلك بأن عينه محصلاً لاقليم "اطنة" وكانت قد نشرت الجريدة الرسمية الأقسام الأخرى التى عين عليها محمد على واليا فتم الصلح بذلك بين محمد على والسلطان ، ويعرف هذا الصلح باتفاق "كوتاهية" وفي ١٦ مايو سنة ١٨٣٣ دوت مدافع حصون الاسكندرية بمائة طلقة لإعلانا بعقد الصلح بين الباشا والسلطان .

*
* *

نتيجة الصلح وتفوق روسيا :

غير أنه ما كاد يتم هذا الصلح حتى أوقد شرارة كادت تضرم نار حرب دولية . وذلك أن السلطان محمود تعلم من تجاربه الحديثة درساً جديداً

(١) سجلات وزارة الخارجية (تركيا) : رسالة نمرة ٧٠

وهو أنه لما اشتدت الأزمة وانهمزت جيوشه ولى وجهه نحو أصدقائه يطلب المساعدة الفعلية فلم يسعفه أولئك الذين طالموا إخلاصهم له إلا بالكلام والقول الجميل . أما روسيا فلما وجه إليها الطلب أجابته على الفور بالجيش والأساطيل ، من ذلك عرف السلطان الناحية التي يجب أن يولى وجهه شطرها إذا ما اضطر لطالب المساعدة .

وفي يوم ٦ مايو عقب تسوية صلح كوتاهاية أرسل القيصر سفيرا فوق العادة وقائدا عاما للقوات الروسية في الدولة العلية هو الكونت "أرلوف Orloff" ليحفظ التوازن أمام نفوذ أمير البحر "روسين" الذي جلب على نفسه بخبط القيصر نيقولا بسبب سلوكه في الأزمة الأخيرة. وكان الكونت "أرلوف" من أكثر المقربين للقيصر إخلاصا ، ومهمته الظاهرية مراقبة اخلاء الجنود المصرية لآسيا الصغرى والاطمئنان على سلامة العاصمة ، ولما كان إبراهيم قد بدأ في الجلاء فعلا عمد الكونت الى الاشتغال بالجزء الهام من مهمته فأخذ يقنع وزراء السلطان بأن لا سلامة للباب العالي إلا بقدر المعونة التي يمكن روسيا أن تمد بها تركيا ، وأخذ يواصل الاجتماع بالوزراء كل يوم حتى كاد يغطي على نفوذ "روسين" و "بنسني" وأخيرا في ١٠ يولييه انسحبت القوات الروسية بعد أن غادرت الجنود المصرية الأراضي العثمانية .

عقد معاهدة هنكار اسكسكى :

غير أنه قبل انسحاب القوات بيومين كان قد تم التوقيع على معاهدة "هنكار اسكسكى" وهي مخالفة هجومية دفاعية خاصة بين السلطان والقيصر ، وقد حفظ الباب العالي أمر هذه المعاهدة سرا فلم يبح "الرئيس افندى" بشيء عنها لسفيري إنجلترا وفرنسا ، فأقلق هذا الأمر بال هاتين الدولتين وجعلهما ينظران الى هذه المعاهدة نظر المستريب بعد أن علما بعقد المعاهدة بطريق غير رسمي ، وأهم ما في هذه المعاهدة شرط سرى فخواه أنه في مقابل المساعدة الحربية التي يتعهد القيصر بتقديمها للسلطان لا يريد القيصر أن

يطالب السلطان بمساعدة فعلية ، ويكتفى منه بإغلاق ” البوغازات “ عند الحاجة في وجه السفن الحربية لأية دولة ، وليس في هذا الشرط شيء يغير السياسة القديمة التي يتبعها الباب العالي منذ زمن بعيد وهي إغلاق البوغازات وقت الحرب ، غير أن اللغز هو في جملة ” عند الحاجة “ (١) وبدون هذه الجملة لا أهمية للمعاهدة أبدا ، فبفضل هذه الجملة تتمكن روسيا من الدخول الى البحر الأسود والخروج منه متى شاءت ويمكنها اذا ما أعلنت الحرب على أية دولة أن تقفل أمامها البوغازات وتصبح بمأمن من أى هجوم بحرى ، وينتج من ذلك أن تصبح تركيا تحت أمر روسيا وحراسة للبوغازات حفظا لمصالح روسيا . وقبول الباب العالي للمعاهدة مثل هذه برهان على حالة الضعف والاستكانة والخوف الشديد التي وصلت اليها الدولة العثمانية . فلا يستغرب إذن قول محمود الثانى في حالة ثورانه الفكرى : ” ما ذا يهمنى من أمر الدولة جميعها ، ما أهمية القسطنطينية لى ؟ انى أضحي الاثنين معا للرجل الذى يحمل لى رأس محمد على ! “ (٢)

احتجاج إنجلترا وفرنسا :

أما إنجلترا وفرنسا فلم يدهشا لعقد مثل هذه المحالفة بين روسيا وتركيا لأن دلائل الأحوال في الأزمة الأخيرة كانت تشير الى احتمال وقوع شيء مثل هذا ، وكانت نتيجة ظهور هذه المعاهدة أن زادت عرى الوفاق بين الحكومتين توثقا فقدما احتجاجاتهما في القسطنطينية وسنت بطرسبورج وذكرنا في الاحتجاج المقدم للكونت ” نسلرود “ كبير وزراء روسيا : ” ان المعاهدة غيرت علاقات تركيا والروسيا وصبغت صبغة جديدة لا يسع الحكومتين ازاءها الا أن تضرب عنها صفحا وتعمل كما لو كانت هذه المعاهدة غير موجودة “ .

(١) Au besoin

(٢) مذكرات جيزو : الجزء الرابع ص ٥٠

فقال الكونت "نسلرود" في جوابه : "إن المعاهدة دفاعية محضة ولا يقصد منها إلا المحافظة على كيان تركيا ، أما من جهة تغيير العلاقات بين تركيا وروسيا فإن المعاهدة قد استبدلت علاقات مبنية على العداء والريبة بعلاقات غيرها سداها ولحمتها الاخلاص والمودة ، وأن القيصر موطد العزم على التمسك بتعهداته للدولة على حسب المعاهدة فيعمل كما لو لم تعلن تصريحات الحكومتين" (١) .

اتفاق النمسا وروسيا :

أما موقف النمسا فكان في جانب الاعتدال أثناء هذه الأزمة ، إلا أن "مترنخ" كان لا يميل الى اتفاق المبادئ الحرة بين إنجلترا وفرنسا ولذا اتجه نحو "نيقولا" قيصر روسيا الذي باح له بما في قلبه نحو الدولة العثمانية وحفظ الحالة السياسية الحاضرة فتشجع "مترنخ" بتفاهمه مع القيصر وأنحى باللائمة على إنجلترا وفرنسا وأعلن أنه لو كان موقع النمسا موافقا لما تردد في تقديم المساعدة للسلطان بنفسه ، غير أن هذا لم يمنع "مترنخ" من أن يلوم القيصر على عقده معاهدة ظاهرها يزيد على نفعها الحقيقي ، وانتظر "مترنخ" فرصة ينسخ فيها المعاهدة بغيرها بغايات هذه الفرصة عند اجتماعه بالقيصر في "منشنجراتز" حيث عقد اتفاقا سريا لحفظ كيان الدولة ، وخفى الاتفاق أن روسيا والنمسا تتعهدان بمنع عهد على من مدنفوذه الى الولايات الأوربية وإذا ما حصل انقلاب في النظام الحكومي في القسطنطينية فإن روسيا والنمسا تتفقان سويا على كل نقطة من حيث النظام الجديد (٢) وليس في هذا الاتفاق شيء يخالف أفكار إنجلترا وفرنسا ، ولكن كره القيصر نيقولا للمبادئ الحرة السائدة في حكومتى الغرب الدستوريتين جعله يعضد هذا الاتفاق مع النمسا سرا من غير أن يعلم به

(١) سجلات وزارة الخارجية (روسيا) في ٢ نوفمبر سنة ١٨٣٣

(٢) سجلات وزارة الخارجية (النمسا) "سرى" في ١٤ يولييه سنة ١٨٣٤

انجلترا وفرنسا فأصبحتا بعد ذلك تسيئتان الظن بسياسة القيصر نيقولا وأغراضه ويعدانه أعدى أعدائهما الى أن انثلم الاتفاق الودى بين انجلترا وفرنسا فانضم نيقولا الى جانب "المرستون".

أمانى القيصر نيقولا :

ومع ذلك فلم يدر فى خلد نيقولا أن يعمل على إسقاط الدولة وقتئذ أو أن يغير فى مركزها السياسى ، بل إن غاية ما كان يريده هو أن تبقى الدولة حافظة لمركزها واقفة ساكنة لا تتقدم ، وعلى القيصر أن يحميها من الحركات الخارجية أو الداخلية التى ربما تثير الدولة من رقادها . وبهذه السياسة الحكيمة الخفية كانت حكومة القيصر تؤمل أن تصبح الدولة العلية تحت سيطرة روسيا من غير أن تضطر الى فتح أو اعلان حرب ، وعلى الرغم من أن اتفاق "منشجراتز" قد نسخ معاهدة "هنكار اسكاسى" كانت الدول قد بدأت تتخوف من أن تجد روسيا مسوغا للدخول اذا فتحت المسألة الشرقية من جديد .

الفصل الحادى عشر

اتفاق الدول ضد محمد على

خطب وليم الرابع ملك إنجلترا خطبة العرش فى فبراير سنة ١٨٣٤ فقال :
 ”انه منذ أن عقد الصلح بين السلطان ومحمد على لم يطرأ شىء يعكس صفو
 السلام ، وأنه يعتقد أن لا يحصل شىء من ذلك “. ثم قال : ” وستكون
 مهمة حكومتى منع حدوث أى تغيير فى علاقات الدولة العثمانية بدول
 أخرى يكون من شأنه التأثير فى سلامتها واستقلالها “. أعلنت الحكومة
 ذلك ليطمئن الذين يخشون على سلامة الدولة العثمانية من تدخل روسيا ،
 غير أن الأحوال فى الشرق كانت تنذر بغير ذلك اذ كان السلم مهددا فى كل
 ساعة ، وذلك لأن محمود الثانى أجبر على الازعان لمطالب محمد على ، فكان
 يضمير فى نفسه الانتقام منه وعلى ذلك لم يكن صلح ” كوتاهية “ فى الحقيقة
 إلا هدنة مسلحة .

وليس بعجيب أن تكون الحالة كذلك لأن شروط الصلح لم تكن
 حاسمة للنزاع القائم بين محمد على والسلطان ، فالشروط مبهمه لا يمكن أن
 يطمئن لها بال أحد ، ولو كانت الدول أعلنت سيادة السلطان على جميع
 ولاياته وقصرت محمد على أن يكون حاكما وراثيا على مصر وحاكما
 مؤقتا على ولايات آسيا مثلا لما تزعزع السلام مرة أخرى ولما اضطرت
 الدول الى الوقوع فى أزمة سياسية خطيرة فى سنة ١٨٤٠ ، ولكن الدول
 راعت فى ذلك الوقت تلا فى الخطر الداهم من جراء تدخل روسيا فضمنت
 بذلك السلام فى أوربا وتركت الشرق مهددا .

معا كسة انجلترا لروسيا :

نعم كانت فرنسا تود أن تكون العلاقات بين محمد علي والسلطان قائمة على أساس متين دائم . ولكن انجلترا لم تنظر الى أبعد من البسفور فقصرت كل جهودها على فصل تركيا من روسيا ولم يعدم " بالمرستون " وسيلة لاستفزاز روسيا ، فمن ذلك أنه أرسل السير " استراتفورد كاننج " سفيراً أمام حكومة " سنت بطرسبورج " على الرغم من عدم ميل القيصر الى هذا التعيين ، ومن ذلك أيضاً أنه أمر سفيره بالقسطنطينية بأن يدعو الأسطول الانجليزي في البحر الأبيض داخل الدردنيل اذا طلب السلطان المساعدة (١) وعلى العموم أصبحت العلاقات متوترة بين انجلترا والروسيا الى درجة توقع الناس معها الحرب .

قيام سوريا وتحرك الباب العالي :

وفي ذلك الوقت قامت ثورة في سوريا على أثر ادخال ابراهيم باشا نظام القرعة العسكرية وجمع السلاح من الأهالي فشغل محمد علي وكان السلطان يترقب الفرصة للانتقام منه فلما قامت الثورة في مايو سنة ١٨٣٤ فكر السلطان في إرسال أسطوله لمعاينة محمد علي ، واستطلع رأى انجلترا وفرنسا في ذلك فكان جوابهما أن عرش الخلافة يصبح في خطر اذا جازف السلطان بحرب ضد محمد علي . ولما أبى محمد علي دفع الخزية في سنة ١٨٣٤ فاتح الباب العالي سفير روسيا بقصد تطبيق معاهدة " هنكار سكاكي " فتقدم روسيا المساعدة اللازمة للسلطان ضد الوالي الدائر ، فكان جواب روسيا : " إن روسيا لا تستطيع ذلك لأن المعاهدة دفاعية محضة ولا يمكن روسيا تقديم المساعدة مادام الباب العالي هو البادئ بالعدوان وعلى ذلك نصحت له روسيا بالعدول " (٢)

(١) سجلات وزارة الخارجية (تركيا) : من " بالمرستون " الى البحرية ٣٠ يناير سنة ١٨٣٤

(٢) سجلات وزارة الخارجية (تركيا) ٢٣ أغسطس سنة ١٨٣٤



بالمستون وزير خارجية انجلترا

اتحاد الثورة :

ثم جاء تصريح "بالمستون" بأنه إذا بدأ السلطان العداء وهزم في الحرب فإن إنجلترا وفرنسا لا يمكنهما حمايته من محمد علي كما فعلتا سابقا^(١) وكتب "بالمستون" إلى البحرية الإنجليزية ينهبها إلى أن يستعمل القائد العام للأسطول البحر الأبيض حكمته ونفوذه في إيقاف الحرب بين الأسطولين العثماني والمصري ، وإذا لم ينجح في ذلك فليذكر أن إنجلترا في حالة صلح مع الجانبيين وليزيم الحيدة التامة فلا يشترك بأي حال من الأحوال في الحرب . ولكن ما كادت تصل هذه الرسائل إلى المسؤولين حتى وصلت الأخبار بأن الثورة هدأت في الشام وأن محمد علي بفضل مساعدة الأمير بشير وغيره من زعماء الجبل أصبح قابضا على ناصية الحالة فهدأت مخاوف أوروبا وزال كل أمل للسلطان في الانتفاع بمشاغل محمد علي .

فلما استتب الحال في سوريا رجع محمد علي ورأى أن يخلص نفسه من سيادة السلطان عليه لما رآه من سوء النية ودس الدسائس في سوريا فأراد أن يسبر سياسة أوروبا بشأن اعلانه الاستقلال ، فكتب سفراء إنجلترا وفرنسا والنمسا إلى حكوماتهم بذلك بجاء الرد بالرفض ونصحته إنجلترا بالعدول عن تنفيذ مشروعه لأن حالة أوروبا السياسية لا يمكن أن تسمح له بتحقيق أمنيته^(٢) فأرجأ محمد علي موضوع الاستقلال لفرصة أخرى ، وسعت فرنسا في سنة ١٨٣٦ في توطيد دعائم الصلح بين الباشا والسلطان بحل مرضى ولكن حبط مسعاها ، وذلك لأن الباب العالي كان قد فقد كل ثقة في فرنسا على أثر احتلالها للجزائر وحمايتها لسواحل إفريقيا الشمالية وخاصة في مدة وجود "تير Tiers" على رأس الوزارة ، فكانت هذه السياسة من جانب فرنسا مدعاة للنفور بين إنجلترا وفرنسا ، ولدخول تركيا في أحضان إنجلترا .

(١) سجلات وزارة الخارجية (تركيا) : من "بالمستون" في ٢٣ أغسطس سنة ١٨٣٤

(٢) سجلات وزارة الخارجية (تركيا) : من "بالمستون" في ١ نوفمبر سنة ١٨٣٤

اعتماد تركيا على إنجلترا :

وكانت إنجلترا تظهر شدة التمسك بمصالح الدولة العلية ولذلك صار لسفيرها في القسطنطينية اللورد "بنسني" الكلمة النافذة لدى الديوان العالي . وكان اللورد "بنسني" شديد الكره لروسيا ولكن كرهه لمحمد علي كان أشد وأنكى ، إذ كان محمد علي في نظره بثرة في جسم الدولة تمتص ماء حياتها وعونا لروسيا في تنفيذ أغراضها من الدولة ، وكان كلما أعلن "بنسني" عدم ارتياح حكومته من تسوية "كوتاهية" — وهذا بعكس روسيا التي كانت تشدد دائما في بقاء الحالة كما هي — زاد اعتماد تركيا على الحكومة الانجليزية التي ما فتئت تنصح لها بتنظيم جيشها وأسطولها فعين الباب العالي الضابط البروسى "فون ملتكه Moltke" لاصلاح الجيش وعين ضابطا من الانجليز لإصلاح الأسطول ، وأخذ "بنسني" يث أعوانه في سوريا للتجسس على قوة محمد علي ولتحريك الرأى العام ضده .

بوادر الاستعداد :

كذلك عين السلطان حافظ باشا وهو من المقربين الحربيين حاكما على ما بين النهرين ، والغرض من ذلك تكوين جيش وتدريبه بالأراضي المجاورة ودس الدسائس ضد الحكومة المصرية ، وعلى العموم لم يترك "بنسني" ولا الوزير "بالمرستون" فرصة تمر من غير إيذاء محمد علي . مثال ذلك أنه في سنة ١٨٣٨ أرادت إنجلترا أن تضرب محمد علي في نقطة حيوية من موارد ثروته وذلك بعقد معاهدة تجارية بينها وبين الباب العالي بمقتضاها زادت ضريبة الواردات الى ٨٪ وحرمت بمقتضاها احتكار التجارة بجميع أصنافها ، وكان يظن أن هذا الشرط يشل حركة محمد علي المالية ، ولكن الباشا

لم يتوان قط في قبول المعاهدة من غير اهتمام ، وصرح "لكامبل" معتمد إنجلترا السياسي بمصر بأن المعاهدة ستكون سببا في زيادة ثروته زيادة تفوق ما كانت تجلبه له محتكراته (١) .

محمد علي يحاول كسب رضا إنجلترا :

قبل محمد علي المعاهدة التجارية كسبا لرضاء إنجلترا لأنه كان شاعرا بعدم صداقتها له ، ولقد اجتهد بكل الطرق الممكنة في إرضاء حكومة إنجلترا لتقلل من حدتها ضده ، فأرسل البعثات الى معاملها ودور صناعتها البحرية ، وساعد مساعدة لا تقدر في نجاح طريق التجارة بين البحر الأحمر والأبيض ، كذلك اضطر أن يطأطئ رأسه أمام رغبة إنجلترا في احتلال "عدن" سنة ١٨٣٩ وما كان محمد علي ليسمح لأية دولة باحتلال هذه الميناء التجارية الحصينة . كل هذا أثر في سياسة "المرستون" بعض التأثير خفف من غلوائه وأرسل مندوبا برلمانيا وهو الدكتور "بورنج Bowring" ليكتب تقريرا ضافيا عن حالة مصر وإصلاحات محمد علي ، ورفض الدخول في معاهدة هجومية مع الترك ضد محمد علي ، وفوق ذلك أعلن استعداد له لبقاء شروط "كوتاهية" بأن كلف سفيره "بنسني" أن يشدد على السلطان في تفهيمه "أنه وإن كانت إنجلترا ترى من المحتم عليها مساعدة الباب العالي ضد أي هجوم من جانب محمد علي فإن المسألة تتغير اذا بدأ السلطان بالمهاجمة" (٢) .

ولكن بينما كانت علاقات محمد علي بالدول آخذة في التحسين كانت علاقاته بالسلطان لا تبعث على الرضا وحسن التفاهم ، فقد وضع السلطان الانتقام نصب عينيه بعد إهانة "كوتاهية" ، ولم ينجح في سنة ١٨٣٤

(١) تاريخ حياة المرستون : الجزء الثاني ص ٢٥٧

(٢) أوراق برلمانية : من "المرستون" في سنة ١٨٣٩

أجل اليوم لتاريخ آخر ، وقصر همه على ابتزاز الأموال من محمد على بقدر ما يمكن فبلغت الأموال التي سحبتها السلطان في سنة ١٨٣٧ أكثر من نصف مليون ريال^(١) .

ارتباك محمد على المالى بسبب مركزه السياسى :

كل هذا زاد في ارتباك محمد على المالى وكلف الخزينة المصرية فوق طاقتها ، ولو كان هناك فائدة من دوام الصرف لأجاب محمد على طلبات السلطان من غير تامل ، ولكن الدلائل كانت تنبئ بوقوع الحرب لا محالة . وكانت عيون محمد على تعلمه بكل ما يدور في الحكومة العثمانية في حينه . من ذلك أصبح مركز محمد على مههددا من كل جهة فالجيش العثماني فيما وراء النهرين يهدد سوريا وحدود مصر نفسها وأصبح من المحتم لإعداد جيش وأسطول ليكونا على استعداد لمقابلة الطوارئ . فزادت بذلك نفقات محمد على زيادة عظيمة امتصت ثروة مصر وأثارت سخط الناس وغيرت حالة مصر من رغد وهناء الى خوف وانهماك في إنتاج ثروة ضائعة في سبيل إيقاف تعدى الأتراك على مصر .

محمد على يطلب استقلال مصر :

لذلك عزم محمد على في سنة ١٨٣٨ على أن يضع حدا لمركزه وكان قد انتهى في ذلك الوقت من اخضاع نجد ودانت له شبه جزيرة العرب سياسيا وتجاريا فأعلن معتمدى الدول رسميا في اجتماع خاص بعزمه الثابت على إعلان استقلاله قائلا : " لا يمكننى أن أرضى بترك ما شيدته من المنافع والمرافق الحيوية بمصر طول هذه السنين مما كلفنى أموالا طائلة كدور الصناعة البحرية والاسطول والبواخر والمصانع وعددها وعمالها والمدارس المتعددة والبحاث والمعاهد العلمية التى أنشأتها على النمط الأوروبى والمناجم التى فتحتها

(١) راجع رسالة توماس واجهورن في سنة ١٨٣٧

في سوريا لاستخراج الفحم والحديد والقنوات والطرق التي رسمتها بمصر وسوريا — لا يمكنني ترك كل هذا للفناء في يد الباب العالي بعد موتى . وإن قلبي لينفطر كلما ذكرت أن ثمرة أتعابى ضائعة ومصيرها للفناء وأن أولادى وأسرتى ستترك بعد موتى تحت رحمة الباب العالي “ (١) .

جواب الدول :

بخفاء جواب الحكومة الانجليزية : ” بأن الحكومة ترى من المستحيلات تنفيذ مشروع، مجد على وترى من نتائج المحققة الدمار للبasha “ . وأجابت فرنسا : ” بأنها علمت بمزيد الدهشة والأسف عزم مجد على إعلان استقلاله . وأن الحكومة الفرنسية ستضع كل العقوبات ضد تنفيذ هذا المشروع “ (٢) أما ” مترنخ “ فقال : ” أن صفو السلام في أوروبا لا ينبغي أن يعكر “ . وعثا حاول البasha بعد ذلك أن يطلب من الحكومة الانجليزية اتخاذ التدابير اللازمة للحفاظ على السلم في الشرق . وقال بلا جدوى إن مالية مصر لا يمكن أن تتحمل نفقات التسليح باستمرار واحتمال الضرائب الزائدة التي اضطر إلى وضعها . ولما لم تجبه الحكومات إلى طلبه ترك مسئوليته ما يقع من الحوادث على عاتق الدول وسافر إلى السودان مع أنه قد كان بلغ السبعين من عمره ليقف على مناجم الذهب التي كان ينفق عليها وأخبر ” كامبل “ أنه إذا رجع ومعه كثير من الذهب فإنه يستغنى عن الجيوش وعن الأصحاب في معاملة الباب العالي (٣) .

رغبة السلطان في الحرب :

غير أن السلطان لم ينتظر وصول ذهب مجد على وانهز فرصة تغييه بالسودان وأخذ يحشد قواته على حدود سوريا ، وذلك لأن موقفه إزاء

(١) سجلات وزارة الخارجية (مصر) : من ” كامبل “ إلى ” بالمرستون “ ٢٥ ماي سنة ١٨٣٨

(٢) سجلات وزارة الخارجية (مصر) : من ” بالمرستون “ إلى ” كامبل “ ٧ يولييه سنة ١٨٣٨

(٣) سجلات وزارة الخارجية (مصر) : من ” كامبل “ إلى ” بالمرستون “ ١٢ يولييه سنة ١٨٣٨

الوالى كان موقفا مهينا للغاية . فأى ملك أو سلطان يرضى بأن يبرم صلحا مع تابع له بشروط خاصة تحط من قدره؟ وإذا كانت الظروف قد اضطرت السلطان إلى أن ينزل عن هذه الأقاليم ألا يكون من أول واجباته التخلص من هذه الرقبة غير الشرعية متى سنحت له فرصة ؟ على أن السلطان كان أخذاً في الشيخوخة ، وكان كلما كبر نما حبه للانتقام من ذلك الذى غطى اسمه على اسم السلطان ، وامتدت ممتلكاته من جبال طوروس شمالاً الى النيل الأبيض جنوباً ومن خليج العجم شرقاً الى جزيرة كريد غرباً ، وهذا يشمل مصر والسودان ، والشام واطنه وكريد وبلاد العرب بما فيها المدن المقدسة . كل هذه البلاد كانت تحت حكمه ، وكان العالم الإسلامى فى جميع الانحاء ينظر إلى بطل الاسلام وفاتح المدن المقدسة بعين الاحترام والولاء . بل كان هناك رجال فى قلب الدولة يعملون على ائزال السلطان الموالى لاروس عن عرش الخلافة واعلان عهد على نائباً للخلافة .

ولقد كان السلطان شاعراً بكل هذا ، ولذلك أجتهد فى تخليص نفسه من هذا المركز الذليل ، فاستعد للحرب على الرغم من نصيحة كل أصدقائه ، ودهشت حكومات أوروبا لما علمت بأن السلطان سيكون البادئ بالعدوان بعد أن كانت الفكرة سائدة بأن عهد على هو الذى سيضرب الضربة الأولى لأنه الجانب الأقوى ، ولقد عرف عهد على ذلك فأكد لمعتمدى الدول عزمه على ألا يبدأ بالعدوان . وأخيراً بدأت الحرب وذلك بعد أن عبر الجنود الأتراك نهر الفرات وهو الحد الفاصل بين الجانبين . أما فى القسطنطينية فإن سفراء الدول حذروا الباب العالى من الحرب ، وأعلن سفير روسيا أن حكومته لن تساعد السلطان فى حربه ضد عهد على ، وصرح باقى السفراء بمثل هذا الا سفير إنجلترا فإنه سلك سبيلاً آخر .

مقدرة السفير بنسنى :

كان اللورد "بنسنى" سفير إنجلترا سياسياً بارعاً وله خبرة وقادرة غريبة فى تكييف التعليمات التى ترد اليه من حكومته بحيث يجعلها توافق أغراضه

وآرائه^(١) ومن سوء الحظ أن كانت أفكار بالمرستون وبنسني متفقة في النهاية ، غير أن بنسني كان يزيد على بالمرستون بميله الى استخدام الطرق السرية للنجاح في مشروعاته . فعلى الرغم من الأوامر الصريحة التي وصلت اليه أخيرا تؤكد عليه بأن يبدي النصيح للسلطان لتجنب الحرب ، كتب بنسني الى حكومته يقول : ” انه نصيح للسلطان بأن يؤخر كل شيء ان لم يكن في الامكان ترك كل شيء نهائيا “^(٢) وصرح للحكومة العثمانية بأن الأسطول الانجليزي لن يعترض سير القوات العثمانية . وقال انه يرجو أن يكون الباب العالي قد أخذ الضمانات الكافية للنجاح . فتشجع الباب العالي بهذه الارشادات الخفية وصادق ما كان يكتبه حافظ باشا من التقارير المكذوبة عن حالة الجيش العثماني ، ورأى السلطان أنه في كتبا الحالتين لا يخسر شيئا لأنه اذا انتصر في الحرب فيها واذا هزم فان إنجلترا وروسيا لا يمكنهما أن يسمحا لمحمد علي بالقضاء على الدولة .

الحرب الشامية الثانية :

وقف الجيشان وجهها لوجه وكان الجيش المصري بقيادة ابراهيم باشا على أرض مصرية عند ” عيتاب “ والجيش التركي عند قرية ” نصيبين “ وكانت القوات تكاد تتكافأ ٦٠٠٠٠ مصري و ٨٠٠٠٠ تركي ، الا أن المدفعية التركية كانت تفوق المصرية فوقانا ظاهرا . وكانت أوامر ابراهيم صريحة في عدم البدء بالعدوان وعلى الرغم من تحرش القوات التركية فانه تحمل كثيرا حرصا على تنفيذ أوامر والده^(٣) .

حقا لقد كان محمد علي يتوق الى محاربة السلطان ولكنه كان مصمما على أن يبدأ السلطان الهجوم أولا وذلك كسبا لرضا الدول ، ولكي يبرهن

(١) الحرب في الشام لتاثير : الجزء الثاني ص ٣١

(٢) أوراق برلانية : من ينسني الى بالمرستون ٥ أبريل سنة ١٨٣٩

(٣) أوراق برلانية : من ابراهيم باشا الى حافظ باشا ٨ يونيو سنة ١٨٣٩

على شعوره السامى أخبر معتمدى الدول بأنه مستعد لسحب جنوده الى جنوب دمشق اذا عبر الأتراك نهر الفرات ثانية ، واذا ضمنت الدول المحافظة على السلام فانه يسحب جنوده من سوريا جميعها ويقبل شروط الصلح^(١).

ولكن السلطان كان مصمما على الحرب فبدأ حافظ باشا بالعدوان وذلك بإثارة الفتن بين قبائل سوريا وتوزيع الأسلحة عليهم وأخيرا بمهاجمة بعض فرق الجيش المصرى فى أرض داخل حدود سوريا^(٢) فلما كتب ابراهيم لوالده بما حصل كتب اليه مجد على بأن يرد هجوم الأتراك وأن يعبر الحدود اذا اقتضى الحال ذلك وقال فى رسالته: "كلما صبرنا وكظمنا شعورنا مراعاة لرغائب الدول تقدم العدو ، واذا صبرنا أكثر من ذلك عجّزنا عن صده" فبدأت الحرب وأصبح مستقبل الخلافة العثمانية معلقا .

*
* *

اتفاق انجلترا وفرنسا ضد روسيا :

أخفق ممثلو الدول فى التشديد على السلطان بضرورة مراعاة اتفاق "كوتاهية" وكذلك أهملوا الإجابة عن مطالب محمد على المعقولة فتج من ذلك أن أصبحت الدول أمام خطر طامس عملوا على تجنبه منذ معاهدة "هنكار سكسى" ذلك الخطر هو اثاره المسألة الشرقية وفتحها من جديد واحتمال وجود الأسطول الروسى فى البسفور . ولم يكن بين الدول من يحسن الظن بنيات روسيا غير النمسا ، أما باقى الدول فقد كان جل همهم عدم ايجاد ظروف تنتحل منها روسيا عذرا لتقديم المساعدة على حسب شروط المعاهدة . وكانت حكومتا انجلترا وفرنسا متفتتين على منع روسيا من التدخل بمفردها ، فمن أجل ذلك أصدرتا التعليمات اللازمة لأسطوليها

(١) أوراق برلمانية : من "كشليخ" الى "سولت" ٧ يونيه سنة ١٨٣٨

(٢) » » : من "كابل" الى "بسنين" ٦ يونيه سنة ١٨٣٨

بأن يجرأ إلى الشرق الأدنى ويسعى جهدهما في إيقاف الحرب بين السلطان ومحمد علي ، ثم كتبنا إلى سفيريهما بالقسطنطينية تعلمانهما بأنه إذا دخل الأسطول الروسي البسفور لأى سبب كان ، وجب أن يسمح للأسطولين الفرنسى والبريطانى بالدخول أيضا^(١) ، وبلغ الاتفاق بين إنجلترا وفرنسا درجة عظيمة حتى صرح "بالمستون" لسفير فرنسا بالإنجلترا : "بأن أعمال الحكومتين أصبحت أشبه بمعاملة عضوين في وزارة واحدة" .

اقتراحات الدول بشأن الحالة :

كان هذا الاتفاق نتيجة خوف إنجلترا الشديد من انفراد روسيا بالعمل . وكانت أعمال روسيا في وسط آسيا وتحريضها للأفغان والعجم ضد إنجلترا مما ملأ قلوب البريطانيين خوفا على ممتلكاتهم في الشرق وحنقا على روسيا التى أصبحت منذ عقد معاهدة "هنكارسكسى" الحامية الوحيدة للسلطان ، فاعتقد "بالمستون" أن الفرصة قد سنحت أخيرا للقضاء على هذه المعاهدة ليحل محلها مؤتمر دولي ينظر في المسألة الشرقية بجزئياتها^(٢) .

أما فرنسا فانها كانت تريد عزلة روسيا التى كانت تعارض في عرض المسألة الشرقية على مسامع مؤتمر مكون من أعدائها . وعارضت النمسا في تنفيذ مشروع يضر بمصلحة حليفها روسيا واقرحت أن يصرف النظر عن مؤتمر لابد أن ينضم اليه مندوب عثمانى ، واقترح "مترنخ" أن يعقد سفراء الدول في "قئينا" اجتماعات يتذاكرون فيها في الحالة ، فوافقت الدول على هذا الاقتراح وكتبت الى سفرائها بالقسطنطينية بقبول التعليمات التى يرسلها سفراء حكوماتهم في قئينا^(٣) .

(١) أوراق برلمانية : "بالمستون" الى "بنسني" ١٨ يولية سنة ١٨٣٩

(٢) مذكرات حيزو : الجزء الرابع : من "بوركني" الى "سولت" ٢٥ ماي سنة ١٨٣٩

(٣) أوراق برلمانية : رسالة نمرة ٨٣ في ٢٩ يونيو سنة ١٨٣٩

مساعي فرنسا لوقف الحرب :

ولكن رأت فرنسا أن عقد اجتماعات السفراء في فيينا لا يفيد السلم العام شيئاً وأن الدماء ستراق في الشرق اذا لم تتخذ تدابير فعالة فأرسل المارشال "سولت (Soult)" رئيس الحكومة الفرنسية ملحقين عسكريين أحدهما الى القسطنطينية والثاني الى اسكندرية لأخذ الأوامر اللازمة الى قواد الجيوش المتحاربة بايقاف الحرب أينما وصلتهم الرسالة وفعلاً نجح الضابط "كالير" المرسل الى محمد علي فأخذ الأوامر الى ابراهيم بالوقوف، ولكن قبل أن يصل الى معسكر ابراهيم كانت الجيوش قد اشتبكت في واقعة "نصيبين" في ٢٤ يونيه سنة ١٨٣٩ حيث دحر الجيش العثماني عن آخره في ساعات قليلة بالمدفعية والركبان فقط ولم تشترك المشاة في الموقعة قط^(١). وقال سفير ألمانيا في القسطنطينية أن سبب الهزيمة هو أن حافظ باشا خالف نصائح الضباط البروسيين وفضل حرب العراء على حرب الخنادق. ولم تصل أخبار الهزيمة الى آذان صاحبها السلطان محمود الثاني الذي قضى نحبه في الثلاثين من شهر يونيه وبفضل مساعي الوزير خسرو كتبت الأخبار حتى نصب السلطان عبد المجيد بن محمود ولم يبلغ سنه اذ ذاك السادسة عشرة من عمره فتم ذلك بلا سفك دماء أو قيام ثورات كالمعتاد .

نكبات الباب العالي :

غير أن الكوارث ما فتئت تتوالى على الدولة الواحدة تلو الأخرى ففي اليوم الذي وصات فيه أخبار هزيمة "نصيبين" الى القسطنطينية قام أمير الأسطول العثماني "أحمد باشا فوزي" وخاف مغبة حكم خسرو باشا وخلييل باشا فأدار دفة الأسطول نحو الاسكندرية ولم يطلع فوزي أحداً على عزمه إلا بعض الضباط المقربين وترك باقي البحارة ومن بينهم الضباط الانجليزى "واكر Walker" على جهل تام بما ينوى عمله .

(١) أوراق برلمانية : من "هملتن" الى "المريستون" ٢٤ يوليه سنة ١٨٣٩

وقد اتضح فيما بعد أن الأسطول الفرنسي بقيادة أمير البحر "لاند" قاطع الأسطول العثماني في الطريق وعرف قصد أمير البحر أحمد فوزي فاستحسن الفكرة وطلب اليهم أن يحترسوا من مقابلة السفينة الانجليزية "فانجار"، ولما اقترب الأسطول من الاسكندرية استعد البحارة للحرب ولكن بدل دوى المدافع سمعوا طلقات السلام والترحيب من طوابي الاسكندرية والأسطول المصري ووضع أحمد فوزي الأسطول العثماني طوعا بين يدي محمد علي وهو في نظره القوة الوحيدة التي يمكنها المحافظة عليه، فأصبحت الدولة في مدة أسبوعين فاقدة جيشها وسلطانها وأسطولها ولم يبق لها من أساليب الحماية إلا رعاية الدول وحكمة محمد علي.

وقد أبدى خسرو باشا حكمة سياسية في أول الأمر بأن أرسل رسولا الى محمد علي مهتمته الظاهرة اعلان تولية السلطان الجديد ولكنه في الحقيقة كان يحمل شروط الصلح مع محمد علي وفخواها أن تجعل حكومة مصر وراثية في أسرة محمد علي، غير أن محمد علي اعتمد على انتصاراته وطلب حكومة سوريا زيادة على مصر ورجع عاكف باشا المندوب العثماني محملا بالهدايا.

عداء بالمرستون لمحمد علي :

ولما وصلت أخبار الكوارث التي أصابت الدولة العثمانية الى مسامع الحكومات الأوروبية استولى عليها القلق وأبدت الاهتمام بالأمر وحنق "بالمرستون" حنقا شديدا على محمد علي لظفره في الحرب وساءه أن تقع تركيا بين برائن محمد علي وفي قبضة روسيا، فأضمر لمحمد علي منذ ذلك الوقت العداء والمعارضة الشديدة لمصلحته. من ذلك أنه صرح في البرلمان بلاتردد بأنه لما كانت بلدة "نصيبين" واقعة خارج إقليم محمد علي فإنه لا يمكنه أن يفهم كيف يكون السلطان هو المهاجم^(١)

وكتب "بالمرستون" الى سفيره في فيينا يقول : "ان التصار محمد علي في واقعة ٢٤ يونيه لا يمكن أن يخول له أى اعتبار خاص من جانب الدول

(١) مجموعة هنسارد : ٣٠ أغسطس سنة ١٨٣٩ و ٢٠ مارس سنة ١٨٤٠

الخمس بل قد يؤدي انتصاره الى عكس ما يتصوره لأن الواقعة قامت على الرغم من نصائح وتصريحات الدول^(١).

وقد كان أكثر ما ساء "بالمرستون" خضوع الأسطول العثماني لمحمد علي ، ففاتح في الحال الحكومة الفرنسية بشأن الاشتراك لنزع الأسطول التركي من أيدي محمد علي . وفعلا كتب "بالمرستون" للبحرية الانجليزية عن الخطة اللازمة لأجل ذلك حتى جاءه جواب الحكومة الفرنسية يذكره بأن أى عمل عدائى ضد محمد علي من شأنه أن لا يسهل المشروع الذى تسير فيه انجلترا وفرنسا معا فأمسك من العمل^(٢) .

خطة فرنسا :

أما فرنسا فان سياستها كانت فى مصلحة محمد علي منذ انتصاره ، وأصبح من واجبه الأديبى تسوية الحالة بأحسن الشروط له . غير أن علاقة تركيا بأوربا كانت تتطلب من فرنسا اهتماما خاصا ، وكان جل أمانى السياسة الفرنسية أن تجمع دول أوربا وتجعلها ضد سياسة القيصر فى المسألة الشرقية.

خطة روسيا :

أما موقف روسيا فكان موقفا محاطا بالاحتراس والحكمة فلم تتحرك لمساعدة السلطان فى حربه مع محمد علي لأنه كان المهاجم ، وما كان يتيسر لها الانتفاع بمن السلطان لأن القيصر نيقولا كان قد صرف نفسه عن الأمل فى حل المسألة الشرقية على المنهج الذى يريد ، هذا الى أن روسيا كانت تعلم أن محمد علي قوة لا يستهان بها ، وأنه يمكنه الوقوف أمام روسيا اذا اشتبكت بمفردها فى حرب ضده ، ولا يبعد أن تتحاز انجلترا وفرنسا حينئذ الى جانبه .

(١) حياة بالمرستون : جزء أول من "بالمرستون" الى "بوفيل" ٢٦ يولييه سنة ١٨٣٩

(٢) مذكرات جيزر : الجزء الرابع من "سولت" الى "بوركنى" ٦ أغسطس سنة ١٨٣٩

والحقيقة أن مجد على أخطأ في إرساله الأوامر لابراهيم بالوقوف عقب موقعة "نصيبين" رغبة في ارضاء "المرشال سولت" رئيس حكومة فرنسا ولو أن ابراهيم زحف على القسطنطينية ونزل الأسطول الروسى الى البسفور لما كان هناك شك في النتيجة ، ولكن من حسن حظ أوروبا أنه لم تقع هذه الأزمة وأسرعت روسيا باعلان رغبتها في عدم تطبيق شروط معاهدة "هنگار سكسى" وكان من رأى روسيا حينئذ أنه مادام مجد على لم يهدد وجود تركيا بأوروبا ومادامت المفاوضات بشأن الصلح جارية بين الجانبين يحسن بالدول أن تراقب الحالة من غير تدخل ما لم يرفض مجد على شروط الصلح مع السلطان رفضا نهائيا (١) .

اقتراح فرنسا :

وكانت فرنسا تقرب من بعد مجرى الحوادث فرأى "سولت" أن في تصريح روسيا سببا يتذرع به لعزلتها سياسيا فأرسلت الحكومة الفرنسية البلاغ الآتى للحكومات لتبليغه لتركيا وهو: "أن الدول توافق تمام الموافقة على أفكار الباب العالى السلمية ولكنها تشدد في أن لا يتم صلح مع مجد على ما لم يوافق عليه الحلفاء الذين بتدخلهم يمكنهم أن يحصلوا للسلطان على شروط مضمونة وأكثر موافقة لمصلحته" (٢) .

فقابلت إنجلترا والنمسا هذه الدعوة من فرنسا بالترحاب ورأت هذه الدول أن الوقت قد حان للشروع في عمل ليس لمنع روسيا من التدخل بمفردها فحسب بل لايقاف مطامع مجد على الذى كان يستخدم نفوذه في القصر السلطاني لأجل الحصول على شروط حسنة ، فقد اجتمع كبار رؤساء الحكومة وقرر المجلس ارسال مندوب آخر لمحمد على يؤكد له أن مهمة المندوب الأول كانت لاعلان تولية السلطان الجديد فقط وأن الشروط التى قدمها

(١) أوراق برلمانية : من "نسلورد" في ٣ يونيه سنة ١٨٣٩

(٢) أوراق برلمانية : من "الدوق دلماسيا" الى "بوركنى" في ٢٦ يوليه سنة ١٨٣٩

لم تكن نهائية ، وكان يظن أن الشروط التي يحملها المندوب الثاني أحسن كثيرا من الشروط الأولى اذ كانت تتضمن زيادة على جعل حكومة مصر وراثية جزءا من الشام ان لم تكن سوريا بأكملها (١) .

تقديم المذكرة المشتركة :

فلما علم "مترنج" بذلك رأى أن التصريح الذي أرسلته الحكومة الفرنسية اذا أعلته الدول متحدة للباب العالى فان المفاوضات بين السلطان ومحمد على لابد أن توقف مراعاة لرغبة الدول . وفعلا أسرع فأرسل مذكرة ٢٧ يولييه سنة ١٨٣٩ الشهيرة لسفيره بالقسطنطينية لتسليمها للباب العالى ، وكتب ممثلو الدول الى سفرائهم بالقسطنطينية ليشتركوا مع سفير النمسا في تقديم المذكرة للحكومة العثمانية .

وفي ٢٨ يولييه سنة ١٨٣٩ قبل سفر المندوب العثماني الى الاسكندرية قدم سفراء الدول "المذكرة المشتركة" وفيها يذكر الباب العالى بأن الدول الخمس متفقة فيما يختص بالمسألة الشرقية ويطلبون من حكومة السلطان أن لا يبرم أى اتفاق مع محمد على ما لم توافق عليه الدول (٢) .

فتقبل الباب العالى هذه المذكرة بالشكر، ولكن يظهر من الخطاب الذي أرسله خسرو الى محمد على أن كبار الدولة كانوا يفضلون تسوية المسألة مباشرة مع محمد على ، وأنهم ينظرون الى تدخل الدول في مسألة بين السلطان والوالى من غير ارتياح . الا أنه لم يسمع الحكومة العثمانية أمام مطلب الدول الا موافقتها .

(١) أوراق برلمانية : من "خسرو" الى "محمد على" يولييه سنة ١٨٣٩

(٢) أوراق برلمانية : رسالة حمزة ٢٢٦

أثر تقديم المذكرة :

وأعلن معتمدو الدول المذكرة الى محمد علي في ٦ أغسطس سنة ١٨٣٩ فاشتد غيظه من خسرو وهو المسئول في نظره عن قبول مثل هذه المذكرة التي سلبت السلطان استقلاله ووضعت تحت حماية الدول في أوروبا . وعلى ذلك أرسل لوكيله بالقسطنطينية أن يستمر في مفاوضة الباب العالي كأن لم تقدم هذه المذكرة .

الا أن تقديم المذكرة للباب العالي من الدول الخمس لم تكن لتوقعه فرنسا التي كانت تحسب أن حكومة روسيا لا يمكن أن تستترك مع باقي الدول في اتخاذ هذه الخطوة . وكانت نتيجة اشتراك روسيا احداث تغير عظيم في مجرى الحوادث السياسية الآتية فقد كتب سفير فرنسا بلندن الى حكومته يقول : "ان اتفاق روسيا الفجائي مع باقي الدول لم يكن متظرا قط وأن الوقت قد حان لتغيير سياسة الريب والتهديد إزاء روسيا^(١)" .

(١) أوراق برلمانية : من "بوركني" الى "سولت" ١٨ أغسطس سنة ١٨٣٩

الفصل الثانى عشر

عند مفترق الطرق

ظهور وتفوق بالمرستون :

بتقديم المذكرة المشتركة انتهى الفصل الأول من المسألة الشرقية ولكن انضمام روسيا الفجائى الى جانب الدول كان بمثابة ضربة لفرنسا جعلتها تضطرب وتحارب في سياستها ، وأصبح "بالمرستون" بعدها ذا اليد الطولى في ادارة الأمور بمهارة ومقدرة فائقة . تقلد "بالمرستون" وزارة الخارجية الانجليزية في سنة ١٨٣٢ وسار على منهج أستاذه "كاننج" في اتباع خطة هجومية لا تنقيد بتقاليد حزبية أو بمعاهدات ، بل كان رائده في سياسته المصلحة وبعد الصيت . وكان في ذلك الوقت في السابعة والأربعين من عمره نحيفا وجريئا لا تزعزعه الحوادث ولا يأبه بمن يخالفه في رأيه ، وكان مستقلا في ادارة شؤون وزارة الخارجية لا يتدخل في أعماله لا ملك ولا وزارة . وكان اذا نوقش في "البرلمان" في خطته السياسية تجنب الموضوع الأساسى للمسألة وأفاض في الكلام على نقط الموضوع الفرعية وختم الكلام ختاماً مقبولا من الجميع . وبالفعل كان "بالمرستون" ككل سياسى لا يبالى بما يقوله أو بما يسلكه من السبل ما دام ذلك كله في سبيل تنفيذ أغراضه ، فلا غرابة اذن أن يصبح "بالمرستون" قطب السياسة الأوروبية في زمن كان يعيش فيه "مترنخ" و"لوى فيليب" و"نيقولا" .

وقد قرأى "بالمرستون" في سياسته إزاء مسألة الشرق من أول ما بدأ النزاع بين الباشا والسلطان فقد كتب الى سفيره بباريس "اللورد جرانفيل" يقول : "انه قد استقر رأيه في الموضوع منذ زمن طويل وهو وجوب مساعدة السلطان بكل قوة وإخلاص سواء اشتركت فرنسا أو لم تشترك^(١) .

(١) حياة بالمرستون : جز أول من "بالمرستون" الى "جرانفيل" ٥ يونيه سنة ١٨٣٨

ولما نشبت الحرب بين السلطان ومحمد علي صمم "بالمستون" على شيئين :
 (الأول) عدم مساعدة محمد علي بأى حال من الأحوال ، (الثانى) عدم السماح
 للروسيا بالانفراد فى العمل . ولما كانت ثقته فى روسيا والنمسا قليلة وصل
 أوامر الاتحاد بينه وبين فرنسا خوفا من اتحاد فرنسا مع روسيا . ولكن
 زالت مخاوف "بالمستون" منذ أن وقع "بوتنف" سفير روسيا بالقسطنطينية
 مذكرة "الدول" وعدت "بالمستون" هذا العمل من قبل روسيا نزولا عن
 المركز الاستثنائى التى حصلت عليه بمقتضى معاهدة "هنكار سكسبى" .
 عند ذلك وجه "بالمستون" كل مساعيه ليضعف من النفوذ الفرنسى
 فى الشرق وذلك بقهر محمد علي وتحديد مطالبه . حقا أن "بالمستون" قد
 أرضى محمد علي لما رفض الدخول فى معاهدة هجومية مع السلطان ، وحين
 شدد على الباب العالى أن يتجنب محاربة محمد علي ولكنه فعل كل هذا رغبة
 فى خدمة السلطان لا حبا فى محمد علي . والآن وقد نشبت الحرب وعرفت
 نتيجهما وتدخلت الدول وقدمت المذكرة المشتركة عزم "بالمستون" على
 تسوية المسألة الشرقية تسوية نهائية .

بالمستون ومحمد علي :

لم يكن محمد علي فى نظر "بالمستون" الا عنصرا نائرا فى جسم الدولة لا بد
 من بتره حتى تتمكن الدولة من الحياة والوقوف أمام روسيا ، فلم يكن شأنه
 شأن الدول وخاصة فرنسا التى كانت تعتقد أن "الرجل المريض" صائر الى
 الموت وأنه يحسن بالدول توزيع التركة على وراثيه . بل كان من فكره أن
 الدول التى عاشت طويلا يكون سقوطها بطيئا وأن الدولة العثمانية على أى
 حال ستبقى إذا ما قويتا ببنائها بدلا من هدمه (١) .

وعلى ذلك كان "بالمستون" يعتقد أن الواجب يقضى بطرد حكومة
 محمد علي من سوريا ومن مصر إذا أمكن ، وعزز كلامه فى البرلمان ردا

(١) حياة بالمستون : الجزء الثانى من "بالمستون" الى "بلور" ١٣ ديسمبر سنة ١٨٣٩

على انتقادات المستر "هيوم" نائب "كلبكني" بقوله: "إن مركز محمد علي بمصر يشبه مركز نائب الملك في إيرلندا إذا أراد تكوين حكومة وراثية لأسرته في إيرلنده واسكتلنده. ولست أرى كيف أن حسن إدارة الحكومة في مصر يمكن أن يؤثر في مسألة سياسية عظمى تمس مصالح بريطانيا، وهي مسألة بقاء الدولة العثمانية أو تجزئتها^(١)"، ولما طالبه المستر "هيوم" بتعريف وحدة الدولة العثمانية وتفسير احتلال بريطانيا لعدن واغتصاب روسيا وفرنسا لكثير من أملاكها لم يجر "بالمستون" جوابا وغفل عن الرد وعلى ذلك لم ير بالمستون في سنة ١٨٤٠ مبرا لتعضيد حكومة محمد علي وهو الذي قال عنه في سنة ١٨٣٨ في رسالة للقنصل: "أنه ما رفع اسم محمد علي في نظر حكومات أوروبا إلا جهوده العظيمة التي قام بها في سبيل تأييد السلام في بلاده ومساغيه الناجحة في إقامة دعائم العدل بين رعاياه^(٢)". وغريب أن تعترف حكومة إنجلترا من تلقاء نفسها باستقلال المستعمرات الإسبانية في أمريكا وتؤيد الحركات النيابية في إسبانيا والبرتغال وتسعى جهدها في سبيل استقلال اليونان والبلجيك وتضمن مع ذلك على محمد علي منشي السلام وال عمران في مصر بكلمة واحدة في سبيل تأييده.

ارتباط فرنسا بمحمد علي :

ويظهر أن سبب العداء الذي كان يظهره بالمستون لمحمد علي هو اتحاد مصر الوثيق بفرنسا و نابليون. فقد أصبح محمد علي في نظر الفرنسيين نابليوناً آخر يذر بذور المدنية الفرنسية أينما قامت حكومته. زد على ذلك شكر الفرنسيين لمحمد علي لاستخدامه كثيرا من أنصار الامبراطورية الفرنسية الأولى في حكومته. وكان الفرنسيون ينظرون إلى أعمال محمد علي بعين الإعجاب والفخر لأنه أنشأ حكومة ودولة أقوى كثيرا من الحكومة التي أقامها جيوش أوروبا وعواطف شعوبها على اطلال اليونان القديمة^(٣).

(١) مجموعة هنسارد : ٢٧ مارس سنة ١٨٤٠

(٢) أوراق برلانية : من "بالمستون" الى "كبل" يولييه سنة ١٨٣٨

(٣) راجع مذكرات "السير شارلس مري" عن "محمد علي".

من أجل ذلك أصبح مجد على محل إعجابهم ووجدت الحكومة الفرنسية فيه حليفا تعتمد عليه في نشر نفوذها على سواحل البحر الأبيض المتوسط ضد نفوذ إنجلترا . وفوق ذلك كانت فرنسا ترى في تعاضدها لمحمد على تعاضدا وإنهاضا لتركيا نفسها ومع أنه لم يكن من رأيها استقلال مجد على استقلالاً تاماً عن الترك كانت ترى أن يبقى مجد على وممتلكاته جزءاً من نظام الدولة العلية التي ضمنت الدول استقلالها ووحدتها .

غلطة فرنسا السياسية :

غير أن سياسة فرنسا في الحقيقة لم تكن بمثل هذه الصراحة فلم تعلن فرنسا آراءها للدول على الرغم من ظهورها دائماً بمظهر المعضد لمحمد على وفضلت أن تخفى الحقيقة وتظهر للدول أنها كغيرها صديقة للسلطان . وفوق ذلك كانت تعمل دائماً سرا وعلانية ضد سياسة روسيا . وكانت نتيجة هذه الآراء المتضاربة أن ضلت سياسة فرنسا طريق الصواب وأدى ذلك إلى وضع المذكرة المشتركة وتقديمها إلى الباب العالي . وهنا غلطة فرنسا الكبرى فانه لم يكن من مصلحتها الاشتراك في تقديم مثل هذه المذكرة في حين أنها تعلم أن آراءها في مستقبل مجد على لم تكن لتوافق عليها باقي الدول .

خطة روسيا :

أما روسيا فقد وقعت على المذكرة لعلها بأن اكتساب ثقة الدول وخاصة ثقة إنجلترا أنفع لها كثيراً من مركزها الوهمي على البسفور . وأما النمسا فانها رضيت بفكرة اجتماع مؤتمر الدول للبحث في المسألة الشرقية وماذا كان يهمهم "مترنخ" أو "نيقولا" من جهة مجد على أو بشأن ما يمنحه السلطان من الأقاليم بجانب الأزمة السياسية بأوروبا وما يمكن أن تنتج من المنازعات .

ولما تم تقديم المذكرة المشتركة بدأت فرنسا تصلح خطأها الأول وذلك بإيضاح شروط الصلح مع محمد علي . وقد أرجأت الحكومتان الانجليزية والفرنسية المناقشة في تحديد الأقاليم التي تمنح لمحمد علي لتظهرها بمظهر الاتحاد التام أمام روسيا في أول الأمر .

ظهور الخلاف بين إنجلترا وفرنسا :

وأول ما بدأ الخلاف كان بشأن الأسطول العثماني الذي وضع في أيدي محمد علي ، فقد كان من فكر الحكومة الانجليزية لإخراج الأسطول بالقوة من المياه المصرية ولكن فرنسا اعترضت على استعمال القوة ضد محمد علي . وفي المرة الثانية نشأ خلاف بين الحكومتين بسبب وجود اللورد "بنسني" السفير الانجليزي بالقسطنطينية الذي كان يعمل ضد أغراض الحكومة الفرنسية .

أما الخلاف الحقيقي بين الحكومتين فانه نشأ بسبب مسألة الأقاليم التي تمنح لمحمد علي . فقد كتب "سوات" إلى سفيره بإنجلترا في ٢٦ يولييه يقول : "إن محمد علي لا بد أن يشعر بتحسين مركزه عقب انتصاره على السلطان الذي هاجمه من غير حق وله على ذلك أن يطمع في أكثر مما كان يستحقه ، وإذا أغفلنا ذلك نكون قد أنكرنا الحقائق المؤكدة" (١) .

ثم استطلع "بالمرستون" أغراض حكومة فرنسا فعلم أنها تريد إعطاء محمد علي حق الوراثة في حكم الولايات التي يحكمها ما عدا "اطنة" و"كريد" و"بلاد العرب" (٢) .

غير أن "بالمرستون" كان يظن أنه إذا بقيت سوريا تحت حكم محمد علي فانه لا يمكن أن يتم سلام بينه وبين السلطان ، وفوق ذلك فان استحواذ محمد علي على سوريا يجعله سيد الطريقين إلى "الهند" طريق "السويس"

(١) أوراق بيلانية : من "سولت" إلى "بوركني" ٢٦ يولييه سنة ١٨٣٩

(٢) مذكرات جيزو : جزء رابع ص ٣٤٣

وطريق "الفرات"، وسيادة محمد على تنطوي على امتداد النفوذ الفرنسي في الشرق وهذا ما كان يريد "بالمستون" إيقافه ، وعلى ذلك أعلن "بالمستون" الحكومة الفرنسية باعتقاده أن الصحراء يجب أن تفصل بين ممتلكات محمد على والسلطان وأن الواجب يقضى بأن ينكمش محمد على في مهده الأول "مصر" (١) .

فلما عارضت حكومة فرنسا زاد ارتياب "بالمستون" في نية الحكومة الفرنسية واستبعد اتفاقها معه في سياسته فتحول إلى نقطة أخرى يختبر منها حقيقة شعور الحكومة الفرنسية نحو محمد على فطلب منها إبداء رأيها بشأن الوسائل القهرية التي ترى أنه يجب أن تستخدم ضد محمد على في حالة إصراره على مواصلة الحرب ضد السلطان أو في حالة رفضه للشروط التي ستقدم إليه وامتناعه عن تسليم الأسطول العثماني ، وكانت هذه المسألة من أدق النقاط في نظر الحكومة الفرنسية ولا تستطيع أن توضع رأيها فيها فلم ير "سولت" مندوحة عن أن يقول انه يجب الاتفاق على الشروط قبل كل شيء . غير أن "بالمستون" علم الحقيقة من سفيره "بلور" وهي أن فرنسا لا يمكنها أن توافق أبدا على استخدام وسائل قهرية ضد محمد على (٢) فزالت ثقة "بالمستون" بفرنسا وأخذ يتهمها بأغراض ومطامع شخصية تعمل لها وتخشى التصريح بها وأنها لا تعير مصالح السلطان جانبا من الاهتمام هذا إلى عدم احترام عهودها وتصريحاتها (٣) .

*
* *

الروسيا تنتهز فرصة الخلاف :

أسرع سفير روسيا ببارس وأخبر حكومته برفض فرنسا استخدام الوسائل القهرية ضد محمد على وأشار إلى الخلاف الواقع بين فرنسا وإنجلترا

(١) تاريخ حياة المستون : من "بالمستون" إلى "بلور" أول سبتمبر سنة ١٨٣٩

(٢) من "بلور" إلى "بالمستون" ٢٦ أغسطس سنة ١٨٣٩

(٣) من "بالمستون" إلى "بلور" ٢٤ سبتمبر سنة ١٨٣٩

في هذه المسألة . وكانت خطة روسيا في ذلك الوقت تدعو الى الاعجاب
فقد كتب وزيرالروسيا الكونت "نسلرود" الى الدول ليوجهوا مساعيهم
نحو الاسكندرية بدل توجيهها الى القسطنطينية حيث لايتوقع فيها خطر
مطلقا ، وأن الروسيا وإن أظهرت في هذه المذكرة غيرتها على القسطنطينية
فقد كانت تحبذ مع هذا فكرة المفاوضة مباشرة مع محمد علي . غير أن مترنج
و " بالمرستون " لم يرغبوا في الاعتراف بمركز محمد علي المستقل فيفاوضه مع
أن الدول كانت على علم باتفاق محمد علي مع السلطان عند "كوتاهية" وأن
السلطان قد أرسل مندوبين من قبله للمفاوضة مع محمد علي ، وعلى ذلك
تغافلت الدول عن حقيقة الأحوال وولت وجهها نحو فرنسا تستفسر عن
رغبات محمد علي .

ولما وصلت رسالة السفير الى روسيا تنبه القيصر وأراد أن يلتهمز فرصة
الخلاف بين إنجلترا وفرنسا فيصلح علاقات الروسيا بإنجلترا ، وكان كره
القيصر لاتحاد حكومتى الغرب النيابيتين كرها لايفوقه الا كرهه الشخصى
"لوى فيايب" ملك فرنسا ، ففطن "نسلرود" لرغائب " بالمرستون "
وبادر بارسال مندوب خاص الى حكومة إنجلترا خوفا من أن تتحسن العلاقات
ثانيا بين إنجلترا وفرنسا وكتب سفير إنجلترا في بطرسبورج الى بالمرستون
يقول : "لأنه مادعا القيصر لارسال المندوب الخاص الا علمه بأن حكومة
إنجلترا قد حسنت ظنها بروسيا وأخذت تنظر الى سياسة القيصر ورغائبه
بعين العدل والموافقة" (١) .

رسالة برنوف الى إنجلترا :

وفي ١٥ سبتمبر سنة ١٨٣٩ وصل البارون "برنوف Brunnov" الى لندره
وكان سياسيا قادرا وملما بسياسة الروسيا الخارجية وآراء القيصر فففتح
الحكومة الانجليزية في مهمته وأخبر بالمرستون أن الروسيا ترى أن يمنح
محمد علي حكومة مصر فقط وراثية في أسرته وأن تخلى الأقاليم الأخرى ،

(١) سجلات وزارة الخارجية : من "روسيا" الى "المرستون" في ٢٧ أغسطس سنة ١٨٣٩

وأن روسيا مستعدة للاتفاق مع باقي الدول في استخدام أى وسائل قهرية تراها الدول . وعلى روسيا أن تحمي القسطنطينية وأسيا الصغرى بصفة كونها منتدبة عن الدول لا بحق معاهدة "هنكار سكلسي" وقد أدهش البارون "برنوف" بالمرستون بإعلانه استعداد حكومة روسيا للتزول نهائيا عن هذه المعاهدة وأن يحل محلها معاهدة دولية أخرى تحتم احترام المبدأ القاضي بإغلاق البسفور والدردنيل أمام جميع السفن الحربية. وزاد "برنوف" على ذلك أن أسر القول بالمرستون بأن رفض فرنسا الدخول في المعاهدة مما يزيد القيصر سرورا^(١) بعد ذلك أعلم بالمرستون فرنسا وباقي زملائه فخوى الرسالة الروسية وجاء الرد من سولت ينهى على بالمرستون باللائمة ويقول أن غرض روسيا ظاهر وهو فصل فرنسا من إنجلترا وتدخلها في القسطنطينية بمفردها ، وقال في الختام لسفيره ان فرنسا لا يمكن أن تسمح أبدا بدخول أسطول أجنبي أمام القسطنطينية ما لم يظهر أسطول فرنسا أيضا^(٢) .

فاعتمدت الوزارة الانجليزية على اعتراض حكومة فرنسا واعتذرت عن قبول مقترحات "برنوف" ولكن على الرغم من عدم موافقة الوزارة أبدى بالمرستون ارتياحه الخاص لآراء روسيا ورحب بمقترحات برنوف وأفهمه أنه يريد العمل مع روسيا وترك فرنسا اذا رفضت الاشتراك في المشروع المعروض .

السعى في كسب فرنسا ورفض تيسير للشروط المقدمة :

ولكن انفصال فرنسا عن إنجلترا كان عملا لا ترضاه الوزارة الانجليزية . ولا الملك ولم يكن بالمرستون نفسه يريد الانفصال نهائيا لعله بأن فرنسا وحدها هي التي يمكنها التأثير في محمد علي ، وعلى ذلك اضطر الى ارضاء الوزارة فعدل شروطه الأولى ورضى أن يجسد عن مبدئه تفاديا من

(١) سجلات وزارة الخارجية : من "المرستون" الى "سفير روسيا" ٢٥ أكتوبر

سنة ١٨٣٩

(٢) من "سولت" الى "بوركني" في ٢٨ سبتمبر سنة ١٨٣٩

فرنسا أهم حجة تدافع بها عن خطتها أمام "المرستون". ومع ذلك أبدى المارشال "سولت" ارتياحه العظيم من موافقة روسيا غير المتوقعة ولكنه في الوقت نفسه أبدى ارتياحه بشأن الأسباب التي دعت الحكومة الروسية إلى تغيير أو تخطيط سياستها القديمة^(١) فسمم بالمرستون من هذه الخطة التي اتبعتها فرنسا وصمم على العمل سواء انضمت فرنسا أو لم تنضم.

خطة المسيو تيير :

أما في فرنسا فنار الرأي العام ضد تحالف روسيا وإنجلترا وقام "تيير Thiers" في مجلس النواب ينادى بأن واجب فرنسا يقضى عليها بمساعدة مصر بكل جهدها صونا لمصالحها ولشرفها^(٢) وكانت نتيجة هذه الحركة أن انقلبت الحكومة وأصبح "تيير" رئيسا لها وعين "جيزو Guizot" سفيراً لفرنسا أمام قصر "سنت جيمس" وكان "تيير" من أشد أنصار محمد علي وما كان ينتظر منه أن يوافق على اجتماع مؤتمر دولي يقضى على صاحبه. أما خطته السياسية فهي التمسك طبعاً بمبدأ مذكرة ٢٧ يولييه ولكن كان من رأيه أنه إذا اتفق السلطان ومحمد علي مباشرة فلا ينبغي أن تتدخل الدول وتلغي هذا الاتفاق، ومع أن هذا كان مخالفاً للمذكرة كانت هذه الطريقة في نظره هي التي بها يتمكن الباشا من كسب شروط في مصاحته من غير اشتباك مع الدول. ولأجل أن يساعد في إتمام هذا الحل أرسل "تيير" رسالاً من لدنه إلى القسطنطينية والاسكندرية للتسهيل سبيل الاتفاق بين الطرفين وكتب إلى سفيره في لندره يحذره من الاشتراك في مؤتمرات أو في جلسات قد تعقد في لندره حتى يتسنى لفرنسا الاحتجاج على ما يقرر ولا يكون انفصال فرنسا ظاهراً. وأكد عليه أن يماطل قليلاً ويكسب الوقت^(٣).

(١) أوزاق برلمانية : من "سولت" إلى "سبستيان" في ٩ ديسمبر سنة ١٨٣٩

(٢) تاريخ أوروبا السياسي "ديدور" : جزء أول ص ٣٧٤

(٣) مذكرات جيزو : جزء خامس ص ٢٧

وصول مندوبي الدول :

وبعد ذلك سارت المسألة ببطء اذ طلب الحلفاء مندوبا عن تركيا المشتركة في المؤتمر وكان قد حضر الى لندره أثناء ذلك "نيومن" عن النمسا و"بيلوف" عن بروسيا ووصلتهما الأوامر من حكومتيهما أن يبذلا جهدهما في تفهيم جيزو ضرورة الاتفاق وتحذيره من نتائج الانفصال واستعملت النمسا نفوذها لدى "بالمرستون" ورغبت اليه أن يتساهل مع فرنسا مرة أخرى وكان من رأى مترنج ألا يتم عمل من غير اشتراك فرنسا لأن أسطول إنجلترا وحده لا يمكنه مساعدة الأتراك على طرد محمد علي من الشام ولا بد من استعمال الجيوش البرية ، ولم تكن النمسا مستعدة لارسال جنودها الى الشام لأن الروسيا وإنجلترا كانتا مشتغلتين بحروبهما ، الأولى في القوقاز والأخرى في الافغان والصين وكندا . لذلك اقترح مترنج أن يعطى محمد علي البصف الجنوبي من بلاد الشام زيادة على مصر "ولكن اذا رفض الباشا هذه الشروط فان النمسا لا ترد في اتخاذ الوسائل القهرية ضد محمد علي ووضع أسطولها تحت تصرف بريطانيا والروسيا" (١) .

فلم يمانع "بالمرستون" وأبلغ الخبر الى "جيزو" وهذا أبلغه الى حكومته في ٧ مايو سنة ١٨٤٠ ولكن جواب "تيير" لم يكن أسعد حظا من جوابه السابق . قال تيير : "إنه متأكد أن محمد علي سيرفض الشروط ولا يقبل أبدا تقسيم سوريا ، وماذا تكون النتيجة لو طلب محمد علي "أطنة" وهذا الدول بعبوره جبال طوروس وشبهت نار الحرب ؟" (٢) .

فضاعت بذلك فرصة ثانية لحل المشكل بطريق السلم . ولو كانت هذه الشروط عرضت على محمد علي نفسه مباشرة ومن غير تأثير فرنسا لقبها حتما . وقد نشأ عن هذا الرفض حدوث أزمة سياسية شديدة بين الدول ، وما سبب ذلك إلا الفكرة المعكوسة التي كانت تشغل أفكار الفرنسيين من

(١) مذكرات جيزو : جزء خامس ص ٨٠ — ٨٦ .

(٢) أوراق برلانية : من "تيير" الى "جيزو" في ١١ مايو سنة ١٨٤٠ .

كبيرهم الى صغيرهم من جهة قوة مقاومة محمد على في بلاد الشام ، وكان "تير" يعتقد تماما أن غالبية الوزارة الانجليزية لاتوافق على مشروع بالمرستون، كذلك كان من فكره أن النمسا وبروسيا ستضطران الى التقهقر عاجلا أو آجلا . وعلى العموم كان "تير" يعتقد أن الدول تتكلم ولا يمكنها أن تتفق على العمل سريعا ، وفي أثناء ذلك التردد يكون محمد على قد سوى شروط الصلح بينه وبين السلطان .

وفي غضون ذلك كانت الأحوال تجري في الشرق وفق رغبة "تير" فقد سقطت حكومة خسرو باشا في القسطنطينية ، وأصبح الصلح بين البلانيين قاب قوسين اذ أرسل محمد على في ٢١ يونيو سامي بك مندوبا خاصا لتهنئة السلطان ومعه هدية قدرها ٢٠٠٠ كيس ورسالة الى السلطان يريد بها الاتفاق نهائيا اذ أن العقبة في سبيل الاتفاق قد زالت بسقوط خسرو باشا . وقد ذكر سامي بك أن محمد على مستعد لتقديم الأسطول العثماني ولاخلاء بلاد العرب وكريد اذا رغب السلطان وفي مقابل ذلك يلتزم محمد على منحه حكومتى سوريا ومصر ، وجعلهما وراثيتين في نسله (١) .

وكان "تير" قد أرسل رسلا من قبله لتسهيل طريق الاتفاق بين الطرفين فعلم "بالمرستون" بمساعي "تير" وخشى أنه اذا لم يقيم بعمل حاسم فان المسألة تفلت من يده وتدخل في حيز العمل الواقع .

(١) سجلات وزارة الخارجية (مصر) : من "هودجس" الى "بالمرستون" ١٦ يونيو

الفصل الثالث عشر

الأزمة السياسية ومعاهدة لندره سنة ١٨٤٠

كانت نتيجة موقف الجمود الذى وقفه "تيير" أمام الدول أن دخلت المسألة المصرية فى دورها المملوء بالحوادث العنيفة . ففى هذا الدور وصلت الدول ، بعد بحث وتبادل آراء دام سنة ، الى أنه لأجل استتباب السلم فى أنحاء الدولة العلية يجب الاستعداد لخوض غمار الحرب . وفى هذا الدور انفرط عقد الحلفاء وتهدم ما أبدته الدول مرارا من اتفاقها ، وفيه أيضا ظهرت قوة محمد على بمظهر لا يتفق مع ما عرف عنه فى أوربا . وقد امتلأ هذا الدور بالمتناقضات الغربية من تقرير وتغيير وعزل وإعادة مما زاد فى خيال الدول .

اسراع بالمرستون فى عقد المعاهدة :

ترا كمت الحوادث التى اضطرت "بالمرستون" إلى العمل فقد جاء نورى بك مندوب تركيا وقدم للحلفاء مذكرة فى ١٨ مايو يشكو المحن التى حلت بتركيا من جراء تأخير الصلح فى الشرق ، ثم جاء شكيب المفوض العثمانى أمام مؤتمر الدول وقدم مذكرة للسفراء بلهجة شديدة قال فيها : "لأنه مهما بلغ الايلام من جراء الاتفاق مع محمد على مباشرة فان إيلام تركيا من جراء عدم تنفيذ الأمانى الحسنة المدونة فى المذكرة المشتركة أكثر وأشد" (١) .

كذلك تدمرت حكومة روسيا من تأخير وتردد "بالمرستون" وأرسل سفير سنت بطرسبورغ يذكر بالمرستون بأن روسيا تنتظر بنافذ

(١) أوراق بيلانية : من "شكيب" الى "بالمرستون" فى ٣١ مايو سنة ١٨٤٠

الصبر عزم حكومة جلالة الملك بشأن الخطة التي ستتبعها من غير اشتراك فرنسا (١).

على أن "بالمرستون" لم يكن في حاجة لمثل هذا التذكير فانه لم يتأخر عن العمل الا مراعاة لرأى الوزارة الانجليزية ولخاطر النمسا وبروسيا اللتين لم تريدوا السير بدون فرنسا ، ولقد اجتهد مندوباها في اشتراك فرنسا في الساعة الأخيرة فقدموا مشروعا يعطى به مجد على مصر وراثية والشام طول حياته ، ولكن "تيسير" رفض مرة أخرى وأصر على الوقوف منفردا (٢).

عند ذلك لم يبق أمام "بالمرستون" إلا طريقان : إما أن ترجع الدول عن وعداها الأول لتركيا وتترك المسألة تحل نفسها بنفسها وحينئذ تكون الدول قد أضرت بمصلحتها ولم تبر بوعدها . وإما أن تتقدم الدول لمساعدة السلطان من غير اشتراك فرنسا مؤقتا . واختار بالمرستون ومندوبو الدول الطريقة الأخيرة . ذلك لأن الظروف جاءت وفق أغراضهم فقد أخفق سامى بك مندوب مجد على في مهمته وأصبح رشيد باشا وزيرا . وكان هذا الوزير تركيا صميا تربي تربية غربية صحيحة فكان يعتقد أن الدولة يجب أن تبقى واحدة لا تنجزأ ولا ينبغي أن ينشئ مجد على أسرة مالكة في قلب الدولة ، وأخذ بنسني يعضده ويرشده الى السياسة اللازمة فكتب يطلب من الدول تنفيذ مذكرة يوليه سنة ١٨٣٩ ، ولما مال السلطان الى الاتفاق مع مجد على بمساعي سامى بك هدد رشيد بالاستقالة .

انتهاز فرصة الثورة في الشام :

ولكن أهم من هذا كله أنه حدثت حوادث لم تشجع على قطع تيار المفاوضات مع مجد على فحسب بل شجعت الجميع على ضرب مجد على ضربة مؤلمة ، ذلك هو قيام ثورة في سوريا ضد الحكومة المصرية التي كانت

(١) سجلات وزارة الخارجية : من "روسيا" الى "بالمرستون" ١٤ فبراير سنة ١٨٤٠

(٢) مذكرات جيزو : الجزء الخامس ص ٢٠١

تريد أن تنهض بالبلاد حربيا وزراعيًا وتجاريًا فأدخلت نظام الجندية والاحتكار ، وأدخلت نظام المحاكم الحديثة التي يتساوى أمامها الجميع مهما اختلفت نحلهم ، كل هذا نظر إليه سكان الجبل نظر المستريب . غير أن الثورة لم تقم فعلا إلا بعاملين : (الأول) التشجيع من قبل حكومة تركيا والسفارة الانجليزية بالقسطنطينية ، (الثاني) قيام ابراهيم باشا بنزع السلاح من سكان لبنان ، واستفحل أمر الثورة فشغل ابراهيم باشا بقمعها واهتم محمد علي فأرسل لابنه نجدة قوية على رأسها حفيده عباس باشا فلم يمحض إلا قليل حتى أخذت البلاد الى السكون وكتب المعتمد الانجليزي في دمشق الى حكومته يقول إن الثورة قد انتهت^(١) .

المعارضون بالمرستون :

ولكن قبل وصول الخبر الى أوربا كان "المرستون" قد استخدم حادث الثورة في إقناع زملائه في الوزارة بضرورة العمل ضد محمد علي وكانت الآراء في الوزارة الانجليزية منقسمة انقساما بينا ، فكان رئيس الوزارة اللورد "ملبورن Melbourne" يخشى حدوث أزمة وزارية تنتهي باستقالة الوزارة أو باستقالة بعض أعضائها فكان يعمل على التوفيق بين أعضاء الوزارة ، وكان "المرستون" مصرا على اتخاذ الخطوة النهائية وهي عقد المعاهدة من غير اشتراك فرنسا ، غير أن الشعور العام في قصر الملكة وبين الأحرار المتطرفين كان لا يميل الى التدخل ضد محمد علي خوفا من انفصال فرنسا عن إنجلترا . ولا يزال لآن عدد من الرسائل المقدمة لأعضاء البرلمان بطلب العطف على قضية مصر وعدم إهمال مصالحها وتضحية الأنظمة الراقية التي أدخلها محمد علي فيها لإرضاء لسياسة المحافظة على كيان الدولة^(٢) . وقد ظهر في البرلمان نفسه عدد من الأعضاء يدافعون عن قضية محمد علي.

(١) أوراق برلمانية : من "هدجس" الى "المرستون" ١٦ يولييه سنة ١٨٤٩

(٢) رسالتنا "توماس واجهورن" سنة ١٨٣٧ و ١٨٣٨

تهديد بالمرستون الوزارة بالاستقالة :

ولما رأى بالمرستون أن حزب المعارضين له قد قوى هدد الوزارة بالاستقالة إذا لم يعقد الاتفاق ، فقال في جوابه لرئيس الوزارة : ” أرانى إزاء الاختلاف فى رأى بنى وبين أعضاء الوزارة بشأن موضوع المسألة الشرقية الهام مضطرا لترك منصبى تحت تصرف رئيس الوزارة ، وأن رأى فى هذا الموضوع رأى صريح لا يقبل التحويل وهو أننا اذا تفهقنا وأجمعنا عن عقد الاتفاق مع روسيا والنمسا وبروسيا لأن فرنسا لا تريد الاشتراك معنا فاننا نضع حكومتنا فى مركز مهين غير لائق وتصبح انجلترا كأنها آلة تحركها فرنسا . أما من جهتى فانى ما اقتنعت بشىء فى حياتى اقتناعى بصحة رأى هذا ، وانى إذا كنت غير محق فى هذه المسألة فانى لا أرى لرأى قيمة فى أية مسألة أخرى^(١) .

ثورة الأفكار فى فرنسا :

فكانت النتيجة أن خشيت الوزارة السقوط واضطرت الى موافقة ” بالمرستون “ ، فلم يبق أمامه الا إقناع النمسا وبروسيا بعدم انتظار فرنسا ولم يجد صعوبة ما فى التأثير فيهما لما كان جاريا فى فرنسا من الثورة فى الأفكار والمظاهرات والمقالات الحماسية وذكرى الحروب والانتصارات النابليونية وذلك بسبب انتظار رفات نابليون من جزيرة ” سانت هيلانة “ وعلى ذلك تم عقد الاتفاق فى ١٥ يولييه سنة ١٨٤٠ ، وفى يوم ١٧ يولييه طلب ” جيزو “ الى وزارة الخارجية وهناك قرأ له ” بالمرستون “ مذكرة تلي

(١) تاريخ حياة بالمرستون : الجزء الثانى من ” بالمرستون “ الى ” بلور “ يولييه سنة ١٨٤٠

بعقد اتفاق بين الدول الأربع من جهة وتركيا من جهة أخرى لتهدئة الحالة في الشرق . وأبدى "المرستون" أسفه لانفصال الدول المؤقت عن فرنسا ورجا أن لا يدوم الانفصال طويلا وأن تستعمل فرنسا نفوذها في الاسكندرية لدى الباشا لقبول الاتفاق^(١) ، أما جيزو فأنصت طول الوقت ولم ينبس ببنت شفة ثم غادر مقر الوزارة وبلغ الخبر الى حكومته .

عقد معاهدة لندره يوليه سنة ١٨٤٠ :

تعهدت الدول بمقتضى الاتفاق بمساعدة السلطان فعلا في اخضاع مجد على ، و يدينوا في لائحة خاصة أن يعرض السلطان على مجد على حكومة مصر وراثية وولاية عكا طول حياته ، وأن يكون لمصر حق الاستقلال الداخلي بقيود متينة تربطها بالدولة مثل دفع الجزية وعدم تمثيل مصر في الخارج وتحديد الجيش والأسطول وسلطة منح ألقاب الشرف وضرب النقود الخ ، وأن يمنح مجد على فضلا عن مصر ولاية عكا مدة حياته فاذا لم يقبل هذه الشروط في عشرة أيام تنقص من حقوقه حكومة عكا ، فاذا تأخر عشرة أيام أخرى ولم يقبل فللسلطان الحق في اتخاذ أى طريق تشير به عليه مصالحه الخاصة ونصائح حلفائه ، وفي وثيقة نالسة وافقت الدول على أن الحالة في سوريا والحالة السياسية الخطرة في أوروبا تحتم عليها الاسراع في اتخاذ الوسائل الفعلية بلا تأخير ولا انتظار موافقة الحكومات على المعاهدة .

(١) مذكرة بالمرستون : في ١٧ يوليه سنة ١٨٤٠

— ٢٠٤ —

وهاك نص المعاهدة :

معاهدة لوندريه (١٥ يولييه سنة ١٨٤٠)

لما طلب صاحب العظمة السلطان من أصحاب الجلالة ملكة بريطانيا العظمى وامراطور النمسا وملك بروسيا وقيصرو روسيا تقديم المساعدة له في المحنة التي وقع فيها على أثر سلوكه على العدائى نحوه ، تلك المحنة التي عرضت سلامة الدولة العثمانية وعرش الخلافة للخطر رأى أصحاب الجلالة مراعاة للود الذي يربط بينهم وبين السلطان ورعيته في السلم وفي صيانة الدولة واتباعا لنص المذكرة المشتركة التي قدمت للباب العالي في ٢٧ يولييه سنة ١٨٣٩ ومنعا لاهراق الدماء التي تسيل في سوريا بين موطنى الباشا ورعية السلطان .

اتفق أصحاب الجلالة وعظمة السلطان على عقد المعاهدة الآتية :

١ — أن تعمل الدول المتفقة بالتضامن على إرغام مجد على قبول الشروط التي اتفق عليها .

٢ — إذا رفض مجد على قبول الشروط التي سيعرضها عليه السلطان فعلى الدول بالاتفاق مع السلطان أن تأخذ التدابير الفعالة لتنفيذ شروط الاتفاق بواسطة قطع طريق الاتصال بين مصر وسوريا ومنع ارسال الأدوات والمؤن الحربية من البلدين . وتنفيذا لذلك تصدر ملكة بريطانيا وامراطور النمسا الأوامر اللازمة لأساطيلهما بالبحر الأبيض المتوسط بمساعدة رعايا السلطان الذين يظهرون ولاههم وطاعتهم .

٣ — إذا حاول مجد على بعد اصراره على رفض الشروط المقدمة ارسال قواته البرية أو البحرية نحو القسطنطينية فان الدول بواسطة سفرائها بالقسطنطينية تعمل بناء على طلب السلطان كل ما يصون البوغازات والاستانة وتعود القوات التي تستخدم لهذا الغرض الى بلادها عند ما يأمر السلطان .

٤ — يجب أن لا تعتبر هذه المساعدة المذكورة في المادة السابقة بمثابة خرق للقاعدة القديمة القائلة باغلاق البوغازات أمام جميع السفن الحربية الخاصة بأية دولة وتصرخ الدول والسلطان باحترام القاعدة القديمة .

بالمستون نيومان بولوف برنوف شكيب



لوى فليب
ملك فرنسا سنة ١٨٣٠ — ١٨٤٨



قانون خاص

ملحق بمعاهدة لندره (١٥ مايو سنة ١٨١٥)

يعلن عظمة السلطان عزمه على منح محمد على الشروط الآتية :

- ١ — يعد السلطان بمنح محمد على وذريته من أولاده من بعده حكومة مصر .
وزيادة على ذلك يعد السلطان بمنح محمد على مدة حياته حكومة جنوب الشام حسب الحدود الميمنية بعد مع اعطائه لقب والى عكا وحكومة الحصن . ويشترط السلطان لهذه المنح قبول محمد على لها في مدى عشرة أيام بعد اعلانها اليه بواسطة مندوب عثمانى يرسله السلطان الى الاسكندرية وبشرط اصدار التعليمات اللازمة باخلاء شبه جزيرة العرب وجزيرة كريد واقليم اطه .
- ٢ — اذا رفض محمد على الشروط المقدمة بعد عشرة أيام فيسحب السلطان منحه حكومة عكا لمدة حياته ويوافق على منحه الحق الوراثي في حكومة مصر بشرط قبولها في مدة عشرة أيام أنقر بالشروط المذكورة في المادة السابقة .
- ٣ — تعيين الجزية حسب الشروط التي سينتهي محمد على بقبولها .
- ٤ — وعلى كل حال يجب أن يرد محمد على الأسطول العثماني بكل أدواته ويسلم للندوب العثماني الذي سيعرض عليه الشروط دون أن يكون لمحمد على حق في أى طلب من الباب العالي بخصوص تكاليف الأسطول مدة وجوده بمصر .
- ٥ — جميع القوانين والمعاهدات النافذة في الدولة تطبق على مصر وعكا كغيرها من أجزاء الدولة .
- ٦ — القوات البرية والبحرية التي تكون لباشا مصر وعكا تعتبر جزءا من قوات الدولة .
- ٧ — يعتبر هذا القانون كأنه متم للمعاهدة وداخل فيها حرفا بحرف ما
بالمستون نيومان بولوف برنوف شكيب

قرار خاص تابع للمعاهدة

انجازا للهمة التي أخذ مندوبو الدول على عاتقهم القيام بها ونظرا لبعده المسافات التي تفصل العواصم عن بعضها وما يتطلبه ذلك من مرور الوقت الطويل قبل المصادقة النهائية على الاتفاق يرى المندوبون ضرورة التعجيل بالموافقة نظرا للحالة الواقعة في سوريا وخدمة للإنسانية ومراعاة للازمة الواقعة في السياسة الأوروبية .

ويرون أيضا ضرورة تنفيذ المادة الثانية من المعاهدة دون انتظار للمصادقة النهائية فيقدم الباب العالي نص الشروط لمحمد علي من غير تأخير ويشترك قناصل الدول في مصر مع مندوب السلطان في عرض الشروط واستخدام كل نفوذهم في حرض محمد علي على قبول الشروط ومسترسل العمليات لا ساطيل الواقعة في البحر الأبيض للاتصال مع القناصل ما

بالمستون نيومان بولوف برونوف شكيب

*
* *

نقد المعاهدة :

ويرى الباحث في شروط المعاهدة غمطا ظاهرا لحقوق محمد علي وهو المنتصر في ميدان الحرب الواقعة جنوده في جميع البقاع التي يطلب بقاءها في يده ، وهو وحده الذي كان يمكنه لو شاء إثارة حرب أوروبية عامة بأن يأمر جنوده بالزحف على القسطنطينية . على أن المعاهدة لم تكن مبينة على قاعدة منطقية إذ لا بد أن يكون محمد علي أحد رجلين ، إما رجلا يستحق شيئا أو لا يستحق ، فإذا كانت الحالة الأولى فلا شيء سبب عزلت فرنسا ووضعت شروط صليانية لا يمكن أن ترغب محمد علي أو تؤثر في رجل مثله وسواء أعطى محمد علي مصر وحدها أو هي والشام فإن العيب بكيان الدولة حاصل على كل حال ، وإذا كان محمد علي لا يستحق شيئا فلم تشهر عليه الدول الحرب صراحة وتطرد جيوشه من الشام ومصر أيضا ؟

موقف فرنسا إزاء المعاهدة :

لذلك لم يكن للاتفاق أثر حاسم إلا سوء العلاقات بين إنجلترا وفرنسا التي أصبحت منذ إعلان شروط الاتفاق من ملكها "لوى فيليب" ووزرائها إلى أصغر رجل في حالة هياج شديد ضد اجماع الدول على فرنسا التي ثار ثأرها من أجل تألب دول أوروبا عليها كما فعلت في سنة ١٨١٥ واتفاقها على عزلها خارج هيئة الدول والاتفاق على حل مسألة حيوية أو أوروبية من غير استطلاع رأى فرنسا بل وعلى غير رغبتها . وقد عاد الفرنسيون اتفاق ١٥ يولية سنة ١٨٤٠ إهانة لحقت الشرف الفرنسي وضربة قاضية لا بد من الانتقام بسببها ، فقام "لوى فيليب" وهدد الدول بأنه سيتولى رئاسة الشعب الثائر ويطلق "غول" الثورة من عقاله بعد أن عمل على كبح جماحه عشر سنوات ^(١) وكتب صديق إلى "جيزو" يصف له الحالة في فرنسا فقال : "إن الشعور الحربى بالغ أشده وكل يريد الحرب ، حتى الروس المعتدلة قد سرى فيها التيار وأصبحت تتوق للحرب وما من نائب كلمته إلا وصرح بضرورة اظهار قوة فرنسا" ^(٢) .

بين تيير وجيزو :

أما "تيير" فنزل عليه الخبر كالصاعقة لأنه لم تصله من "جيزو" معلومات محدودة عن توقع عقد الاتفاق ، وكل الذى وصله عبارة عن الخلاف بين أعضاء الوزارة واحتمال استقالة "بالمستون" ، لذلك اتهم جيزو بقلّة النشاط وقصر النظر ، ولكن الحقيقة هى أن جيزو قام بالواجب ولم يقصر فى شيء فكتب إلى رئيسه فى ١١ يولية يقول : "إن "بالمستون" قد أوضح للوزراء آراءه بشدة واصرار وبين خطة العمل لعقد اتفاق مع الدول الأربع" ^(٣) .

(١) تاريخ أوروبا السياسى لديدود : جزء أول ص ٣٨١

(٢) مذكرات جيزو : الجزء الخامس ص ٢٥٠

(٣) مذكرات جيزو : الجزء الخامس ص ٢١٣ و ٢٥٠

أما الخلاف بين أعضاء الوزارة فقد صدق فيه حدس جيزو وانفرد لورد "هولند" ولورد "كلارندون" وهما عضوان من الوزارة وقدا اعترضا للملكة ونصه : "تنصح الوزارة لجلالتك بالدخول في اتفاق الغرض منه اخراج محمد علي من سوريا ، ويرى اللورد هولند واللورد كلارندون أن مثل هذا التدخل ليس من حسن السياسة ولا هو ضروري لصيانة شرف تاج جلالتك ولا مفيد لمصالح رعايا جلالتك" (١) .

فإذا كان قد قصر "جيزو" في اذار حكومته باحتمال ابرام الاتفاق فانما السبب في ذلك يرجع الى حذر بالمرستون وكتانه كل شيء حتى يتم الاتفاق ولا يخشى من اذاعة الخبر ، فالغلطة نهائيا هي غلطة تيير وغلطة فرنسا التي رفضت مرارا كل المفاوضات التي عرضت على أعضاء الحكومة ولم يفكروا يوما فيما عسى أن يكون مركز فرنسا لو اتفقت الدول ضدها ، لذلك لما فوجئت الحكومة الفرنسية بالاتفاق خفى عليهم طريق العمل وتخطوا في سياستهم وخاصة أن فرنسا كانت مضطرة الى التمسك بمذكرة ١٨٣٩ التي وقعت عليها ، فما كان يمكنها الوقوف في جانب محمد علي ومساعدته ضد الدول ، إذ لا بد أن يجر ذلك الى حرب أوروبية عامة لم تكن الحكومة في حالة تمكنها من الدخول فيها إلا بعد سنة على الأقل .

نخطة الحكومة الفرنسية بعد المعاهدة :

من أجل ذلك دعا الملك "لوى فيليب" أكبر رجال حكومته الى قصره للبحث في الحالة وقررأيهم على ارسال رسل الى محمد علي ليشجعوه ويتعهدوا حصونه واستعداده الحربى وليخففوا من حدته ، وفي أثناء ذلك يجب أن تستعد فرنسا للحرب ، وكتب "تيير" الى سفراء حكومته يشير إليهم بملازمة التحفظ وابداء التأثير في معاملاتهم مع سفراء الدول . أما رد "تيير" على "المرستون" فكان ردا قويا الحججة ، فقد كتب يقول : "إن فرنسا ترى أنه

(١) تاريخ حياة كلارندون لمكسويل : الجزء الثانى ص ١٩٦

ليس من مصلحة السلطان في شيء أن تترك له أقاليم يعجز عن صيانتها وحكمها كذلك لا ترى أى فائدة للسلطان من إضعاف الباشا الذى قد يكون قوة منيعة للدولة ، وأن فرنسا تعتقد أنه ليس من الحكمة ولا من الاحتراس في شيء أن تقر الدول على وسائل تعجز عن تنفيذها ، أو اذا نفذتها فبطرق ناقصة عظيمة الضرر^(١)، وكتب الى جيزو يأمره بمعاملة "المرستون" كما عامله فيتلو عليه المذكرة ويوجه اليه الأسئلة بشجاعة مستفهما منه عما اذا كان لديه وسائل لمساعدة الثوار في سوريا ؟ وماذا يكون شأن الدول لو رفض محمد على الشروط التى يقدمها له السلطان رفضا باتا ؟^(٢) .

وكان "تير" مصمما في الحقيقة على الدخول في حرب أوربية اذا لم تحل العصاة الأوربية ، ولم يكن غرضه تعضيد محمد على فقط بل تمزيق معاهدات سنة ١٨١٥ ، وأعد اعتمادا ماليا عظيما للاستعداد للغروب ، وزيد الجيش والأسطول وأخذ في تحصين القلاع وانبعثت الحماسة في داخل فرنسا وأخذ الناس يترنمون بالأناشيد الوطنية في مجتمعاتهم .

وثوق بالمرستون بالنجاح :

غير أن هذه المظاهر لم تؤثر في "المرستون" الذى كان واثقا أن الملك لوى فيليب لا يمكنه الدخول في حرب تجر معها ثورة قد تودى بعرشه فكتب الى "هودجس" المعتمد البريطانى بمصر يقول له إن فرنسا لا يمكنها أن تدخل في حرب ضد باقى دول أوربا من أجل محمد على ، وليس لدى فرنسا من القوة ما يمكنها من ذلك^(٣) .

وكانت فكرة بالمرستون تقضى باخضاع محمد على عاجلا حتى اذا هزم رأى الفرنسيون أن لا ضرورة لدخول الحرب فتنتهى الأزمة بسلام . لذلك رأى ضرورة السرعة والانجاز في العمل فبينما كانت المفاوضات دائرة بين معتمدى الدول ومحمد على أرسل للأسطول البريطانى في مياه البحر الأبيض

(١) أوراق برلمانية : مذكرة "جيزو" الى "الحكومة الانجليزية" في ٢٤ يولييه سنة ١٨٤٠

(٢) مذكرات جيزو : جزء خامس ص ٣٣٠ — ٣٣٥

(٣) أوراق برلمانية : "بالمرستون" الى "هودجس" في ١٨ يولييه سنة ١٨٤٠

المتوسط أن يقطع المواصلات بين سوريا ومصر وكلف ممثلو الدول في سوريا إذاعة نصوص الاتفاق للعموم، وأخذ "بنسني" ينظم حركة الثورة في سوريا وشرع أعوانه يرسلون السلاح والذخيرة خفية الى الثورة (١).

قيام الثورة في سوريا :

نعم إن الثورة كانت قد نضجت في يوليه ولكن كان هناك وميض تدمر لو تعهده خدام السوء بالمسال والسلاح لشبت نار الثورة وشغلت ابراهيم عن الزحف على القسطنطينية وعرقلت مساعيه الحربية والحلفاء يحاصرونه من البحر، فكان مما لا بد منه لنجاح خطة الحلفاء لإضرام نار الثورة في الداخل. وفعلاً نجح الحلفاء في ذلك فكانت ثورة سوريا سبب اخفاق ابراهيم ومجد على أمام الحلفاء. إلا أنه لم يكن من الشهامة في شيء أن تتولى سفارة بريطانيا في القسطنطينية تحريض قوم عرفوا بتمردهم ضد أى حكومة نظامية وخاصة بعد اعتراف ممثلي إنجلترا نفسها بكفاءة ومقدرة الحكومة المصرية (٢). ولقد كان حقاً على "تير" أن يستفهم من الحكومة الانجليزية: "هل كان التحريض على الثورة من الأعمال التي تفيد الدولة العلية التي هي في حاجة إلى الراحة والطمأنينة؟ وهل الثورة في الشام تولد حب الطاعة والنظام في قلوب رعايا السلطان؟ وهل ينجح السلطان في حكم هؤلاء القوم بعد أن أثارهم الباب العالي في وجه الباشا؟" (٣).

*
* *

(١) من "المستون" الى بنسني في ١٧ يوليه سنة ١٨٤٠

(٢) وما يؤيد اشتراك سفارة القسطنطينية في إثارة الشعوب ضد مجد على رساله "المستون" الى "بنسني" عقب انتهاء الحوادث وهذا نصها: "انى أتهنئ هذه الفرصة لأذكرك أنك لما كان أهالي سوريا لم يشعروا السلاح في وجه مجد على إلا بخرىض الموظفين الانجليز أصبح من واجب الحكومة أن لا تدخر وسعاً في نصيح السلطان بعمل كل ما يضمن تخليص السوريين من الظلم (١٢ ديسمبر سنة ١٨٤٠) .

وقد بلغت نفقات الذخائر الحربية الموزعة في بلاد الشام بواسطة السفارة البريطانية ٤١٩٢٨ جنياً و ١٣ شلناً وقد طلبت الحكومة الانجليزية سديدها من الحكومة العثمانية (فبراير سنة ١٨٤٠) .

(٣) أوراق برلمانية : مذكرة جيزو في ٢٤ يوليه سنة ١٨٤٠

استعداد محمد على لاستقبال المعاهدة :

حين وصلت إلى مسامع محمد على أخبار اتفاق ١٥ يولييه أخذ يستعد في مصر لدفاع عظيم خليق بهمته المعهودة فكوّن فرقا من الحرس الوطني من جميع الصنائع والفعلة وأخذ يدرّبهم على الحركات العسكرية ، وأقام القلاع على الشاطئ من رشيد إلى الاسكندرية وأمر بعودة جيش بلاد العرب ووحد الاسطولين العثماني والمصري تحت أمره ضابط مصري ، وأرسل إلى سوريا لتقوية حصن عكا ثم أرسل ينذر الباب العالي بعاقبة تدخل الدول قائلا إنها لا تكلف نفسها مؤنة حرب لا تنجى من وراءها مصلحة ذاتية وأخذ محمد على يعامل معتمدى الدول بجفاء و صلف .

ولقد شكّا الكولونيل "هدجس" المعتمد الانجليزي الحديد مما كان يلقاه من المعاملة الجافة. وكانت مهمة هدجس محفوفة بالشكوك إذ أرسله بالمرستون ليحل محل الكولونيل "كامبل" نصير محمد على ، وليلد الحكومة الانجليزية على بعض الارشادات الحربية فيما إذا اقتضت الحال إرسال حملة ضد محمد على (١) .

رد محمد على :

وفي ١١ أغسطس حضر المندوب العثماني رفعت بك حاملا شروط الاتفاق لعرضها رسميا على محمد على فلما قدمت له بحضور معتمدى الدول قابلها بثبات تام وخاطبهم قائلا : "إن هذه الشروط لا يمكن قبولها وأتم أعلم بأخلاق محمد على فهو لا يقضى على نفسه بالموت وهو على قيد الحياة وإنى لا أستطيع قبول شروط مذلة لى" (٢) .

(١) كتب هودجس الى حكومته يقول : "ما كنت أظن أرض هذه البلاد حتى حوطني الباشا بالجواسيس ليراقبوا حركاتى ولذلك أصبح من الواجب استعمال الاحتراس الشديد لتجنب كل ما من شأنه إثارة شكوك الباشا وكل ما يشير الى الغرض الحقيقي الذى أرمى اليه" . سجلات وزارة الخارجية : من "هودجس" الى "المرستون" ١٦ يناير سنة ١٨٤٠

(٢) سجلات وزارة الخارجية : من "هودجس" الى "المرستون" ١٩ أغسطس سنة ١٨٤٠

فكتب اليه المعتمدون يذكرونه بما للعاهدات الدولية من القداسة وأنها لا تقبل التغيير والتبديل ، فلم يؤثر هذا في عزيمة محمد على واعتمد على تعضيد حكومة فرنسا وما كان عليه الشعور العام فيها إذ أكد له المسيو "كوشايه" معتمد فرنسا في مصر إن الحرب الأوروبية لا محالة واقعة ، وقامت الجاليات الأجنبية واحتجت لدى حكوماتها على اتفاق الدول ضد محمد على . "وكانت الجالية الانجليزية أشد الجاليات احتجاجا وأكثرها سخطا على سياسة حكومتها وممثلها (١) .

فقوى هذا الشعور عزيمة محمد على ، وفي ٢٥ أغسطس حضر اليه المعتمدون والمندوب العثماني فلم يزد عما قاله في الجلسة السابقة وأخبرهم بأن لا فائدة من الحضور ثانية بعد عشرة أيام لأنه ليس لديه إلا جواب واحد ثم صارحهم القول فأخبرهم بأن يعدوا العدة للسفر لأنه إذا نشبت الحرب لا يمكن أن يثق فيهم ، "فالرحيل خير وأشرف لكم وأمن لي" (٢) .

غير أن رفعت بك والمعتمدين مثلوا أمام الباشا في ٥ سبتمبر على حسب التعليمات الرسمية لسمعوا كلمته الأخيرة على القول أو الرفض فقابلهم محمد على بمفاجأة غريبة ذلك أنه قبل الشرط الثاني من شروط الاتفاق وهو حكومة مصر الوراثية ، وأما عن سوريا فقال انه مستعد أن يطلبها "احسانا" من السلطان ، وكان هذا الرأي نتيجة ما وصل اليه مجلس الحكومة الأعلى الذي اجتمع لهذا الغرض . فلم يكن من المعتمدين إلا أن وضعوا العقبات وظنوا أن هذه حيلة يكسب بها محمد على الوقت فرفضوا الطلب وأعلموه باتخاذ الوسائل القهرية من غير إبطاء ، فأجابهم محمد على بقوله : "ليكن ذلك ولكن أرسلوا طلباتي إلي لندره أو الى القسطنطينية" فطلب المعتمدون ضمانا لحسن نيته رد الأسطول العثماني فانهاه عليهم الباشا ابصر اخه وغضبه وانفض المجلس (٣) ولم يغادر المعتمدون الاسكندرية إلا في ١٣ أكتوبر .

(١) سجلات وزارة الخارجية (مصر) : من "هودجس" الى "بارستون" ٢٣ أغسطس سنة ١٨٤٠

(٢) سجلات وزارة الخارجية (مصر) : من مقابلة "محمد على" ٢٥ أغسطس سنة ١٨٤٠

(٣) سجلات وزارة الخارجية (مصر) : مقابلة "محمد على" في ٥ سبتمبر سنة ١٨٤٠

قيام الحرب بين محمد علي والدول :

والحقيقة أنه لا بفل محمد علي إلا الحديد فقامت الحرب وتحملت إنجلترا الجزء الأعظم منها ، إذ اقتضت النمسا على إرسال قطعتين حربيتين من أسطولها . ثم ما لبثت الثورة أن قامت مرة ثانية في سوريا بفضل مساعي "وود Wood" الموظف البريطاني الذي كتب إلى بنسني يقول : "انه لم يدخرو سعا في تنظيم حركة الثورة ، وأنه تكبد مشاق عظيمة ، وعرض نفسه لأخطار جسيمة من أجل قيامه بالواجب" (١) ثم فكر بنسني في مشروع يسهل على "وود" نشر الثورة فنصح للباب العالي تحت مسؤوليته بإصدار الأمر بعزل محمد علي قائلا انه من العبث أن يترك محمد علي ممتعا بنفوذ السلطان مع أنه يستخدم نفس هذا النفوذ ضد وجود السلطان (٢) .

عند ذلك كانت الحرب قد دارت رحاها بين ابراهيم باشا في سوريا والحلفاء الذين وقفوا بأسطولهم أمام السواحل بقيادة أمير البحر "استبفورد Stopford" ثم نزل الضابط البحري "نابيير Napier" وأصدر منشوره للأهالي يحرضهم فيه على القيام في وجه الحكومة ، واشتبك الطرفان في منتصف شهر سبتمبر ولم يمض قليل حتى كان النصر في جانب الحلفاء بمساعدة أساطيلهم فاحتل الحلفاء بيروت ثم نزلت قوة إلى البر مؤلفة من ٣,٥٠٠ تركي و ١,٥٠٠ بحار انجليزى و ١٠٠ نمسوى فسقطت حيفا وصيدا وفي ١٣ نوفمبر سقط حصن عكا المنيع عقب انفجار هائل من الداخل لم يعرف سببه . ولولا هذا الانفجار ماسقط الحصن في ذلك الوقت ولداست المقاومة طويلا (٣) .

(١) سجلات وزارة الخارجية (مصر) : من "وود" الى "بنسني" ٣ أغسطس سنة ١٨٤٠

(٢) كان ذلك في ١٥ سبتمبر سنة ١٨٤٠

(٣) الحرب في الشام : الجزء الأول ص ١٩٦ — ٢٢٥

تقدم الحلفاء على السواحل :

وبسقوط عكا انحطت قوى محمد على المعنوية ، غير أن جيوشه التي تبلغ ٦٠٠٠٠ بقيادة ابراهيم باشا كانت لا تزال متفوقة في داخلية البلاد وكانت دمشق وحلب والقدس وغزه لا تزال في أيديهم فلم يكن في إمكان الحلفاء محاربة ابراهيم في الداخل واقتصروا على مناوشة الجلبين لجيوشه ، واكتفوا هم بتضييق الحصر البحري على الموانئ المصرية وقطع الصلات بين سوريا ومصر. ولم يدم تعضيد الجلبين لهم طويلا بدليل ما كتبه "نابير" إلى بنسني يقول: "إنه إذا استمرت الحرب مدة فلا بد من أن يقوى حزب ابراهيم في سوريا" (١) .

الآزمة السياسية في أوروبا :

وفي هذه الأثناء كانت الحوادث في أوروبا تلقي بوقوع أزمة سياسية قد تؤدي إلى حرب عامة في أي وقت ، فقد توترت العلاقات بين فرنسا والباب العالي وبلغ ذلك درجة أزججت الدول ، وكانت الحكومتان الانجليزية والفرنسية تبدلان جهدهما لمنع ما يمكن أن يزيد الحالة تعقيدا بينهما والفضل في ذلك لوساطة الملك "ليوبولد" ملك بلجيكا وصهر لوى فيليب وخال الملكة فيكتوريا . ثم بدأ النزاع في الوزارة الانجليزية من جديد وكاد الأمر يفضى الى الاستقالة لولا تدخل الملكة فيكتوريا نفسها ونصيحتها للوزارة بضرورة الظهور أمام العالم مظهرها يوافق سمعة انجلترا ومركزها لتندراً بذلك ما يمكن أن ينجم من النتائج السيئة .

تعضيد فرنسا لمحمد على :

ثم جاء خبر عزل السلطان لمحمد على فقامت فرنسا قومة واحدة ، وفطن بالمستون لما يمكن أن يؤدي إليه مثل هذا الحادث فبادر باطلاع الحكومة

الفرنسية أن هذا العزل عمل مؤقت لحأ إليه الباب العالي ليرغم محمد على على قبول الاتفاق (١) .

ولكن الشعب الفرنسى لم يسكت وأراد انتهاز الفرصة فيتقدم لمساعدة حليفه محمد على ، وبلغت الحماسة حدا جعل "اللورد جرانفيل" سفير إنجلترا فى باريس يكتب الى حكومته يقول : "إن حالة البلاد بالغة الغاية فى الارتباك بسبب ثورة الأفكار التى يخشى أن تهدد السلام فى أوربا وليس هناك حكومة يمكنها أن تمتنع عن مقاومة من يحاول قهر محمد على أو طرده من مصر" (٢) . وكتب تيمير الى جيزوينجره : "بأن حكومة فرنسا تعد وجود محمد على كقوة سياسية فى العالم أمرا ضروريا ولا بد منه حتى يكمل التوازن بين حكومات العالم وذلك بسبب سعة الأقاليم التى يحكمها والبحار التى يمتد عليها سلطانه" (٣) .

ولم يكن فى رسالة تيمير شئ يشير الى العنف أو استعمال القوة فاطمأنت الوزارة البريطانية وهدأ روعها وكتب بالمرستون الى سفيره بالقسطنطينية ينبهه الى : "أنه بمقتضى شروط الاتفاق يجب أن يعمل الباب العالي كل ما يوافق مصالحه بشرط أن لا يحدد عن نصيح حلفائه له . فالدول توصى السلطان باعادة محمد على رسميا الى حكومة مصر وجعلها وراثية اذا ما أعاد الأسطول وأخلى جميع الأقاليم عدا مصر وملحقاتها فى أفريقيا" (٤) . ولكن مترنخ اقترح أن يطلب محمد على العفو أولا من السلطان ، وهنا ترك بنسنبي يضع العراقيل فى سبيل الصلح مع محمد على على الرغم من أمر حكومته الصريح ليسهل عقد الصلح ما استطاع ولنعد الى فرنسا حيث الأنظار متجهة من كل أنحاء أوربا لمشاهدة ما تقوم به الحكومة من المفاجآت الغريبة .

(١) سجلات وزارة الخارجية (فرنسا) : من "المرستون" الى "جرانفل" ٢ أكتوبر سنة ١٨٤٠

(٢) سجلات وزارة الخارجية (فرنسا) : من "جرانفل" الى "المرستون" فى ٥ و ٨ أكتوبر سنة ١٨٤٠

(٣) سجلات الخارجية (فرنسا) : من "تيمير" فى ٨ أكتوبر سنة ١٨٤٠

(٤) سجلات وزارة الخارجية (تركيا) : من "المرستون" الى "بنسنبي" ١٥ أكتوبر سنة ١٨٤٠

فشل الحركة في فرنسا :

فانه ما كاد العالم يستفيق من هول النظر الى حركات الجيوش والأساطيل حتى فتح عينيه فاذا هو يرى منظرا مضحكا مبكيا وهو سقوط وزارة "تيير" التي كانت تريد الحرب وقيام وزارة معتدلة برياسة "جيزو" ذلك لأن الملك لوى فيليب لم يفكر في الحرب بطريقة جدية بل كان يريد السلم بأى الوسائل ، نعم سبق أن تكلم عن الحرب ، ولكن كما أوضح لسفير إنجلترا "الكلام عن الحرب شيء والدخول فيها شيء آخر" (١) ومما أضعف لوى فيليب خوفه من قيام الثورة ، فقد تعدى عليه فوضوى يريد قتله في ١٥ أكتوبر سنة ١٨٤٠ ، وفي نفس هذا الشهر أيضا حاول "لوى نابليون" الهرب من معتقله وتحريك الثورة ، زد على ذلك ما ظهر من ضعف محمد على في سوريا وما كان يرسله بالمرستون من الكلمات المزرية ، فمن ذلك ما كتبه لسفيره : "قل للملك ان فرنسا اذا تحدتنا فان إنجلترا لا تتردد في منازلها وانها اذا بدأت الحرب فانه من المؤكد أن تفقد أسطولها ومستعمراتها وتجارتها وأما محمد على فانا لا نفعل معه أكثر من قذفه في النيل" (٢) .

كل هذا أثر في نفس لوى فيليب الذى فضل أن يعارض "تيير" على أن يعارض أوربا ، وأخيرا جاء وقت افتتاح مجلس النواب فوضع تيير على لسان الملك خطبة عدائية حربية لم يقبلها الملك فسقطت الوزارة ، وتولاها من بعده المارشال سولت وجيزو في ٢١ أكتوبر سنة ١٨٤٠

نيات تيير :

ولقد أوضح تيير خطته في مجلس النواب عقب انتهاء الأزمة فصرح بأنه : "كان يرمى الى زيادة جيش فرنسا الى ٦٣٩,٠٠٠ وتكوين حرس وطني يتألف من ٣٠٠,٠٠٠ ، ومتى تم له ذلك ، يوقف كل المفاوضات مع

(١) تاريخ حياة بالمرستون : الجزء الثانى ص ٣٥٢

(٢) تاريخ حياة بالمرستون : من "بالمرستون" في ٢٢ سبتمبر سنة ١٨٤٠

الدول المتحالفة بشأن المسألة الشرقية حتى يستعد وينصح محمد على أن يتجنب كل ما من شأنه أن يسبب تدخل فرنسا قبل الأوان ، وبعد أن تم المعدات تلح حكومة فرنسا في طلب إلغاء معاهدة ١٥ يوليه وتطلب أيضا إعادة النظر في معاهدات سنة ١٨١٥ فتعدل بطريقة توافق مصالح فرنسا ومكائنها^(١) .

مهمة شارلس نابيير :

وكان سقوط وزارة تيير بمثابة عهد للناس بأن فرنسا لا تتحرك في حرب من أجل محمد على ، وعلى ذلك قسا الباب العالي واللورد بنسني في معاملتهما لمحمد على ، لولا ما بعثته العناية الإلهية في قلب رجل حريشجاع هو "شارلس نابيير" من أكبر ضباط الأسطول الانجليزي . رأى هذا الضابط بعين بصيرته أنه من الصعب إخضاع محمد على بقوة الأسطول منفردة ، ورأى قوة ابراهيم في الداخل ، وفساد الحكم التركي الجديد الذي يريد الحلفاء تثنيته بدلا من حكومة مصر ، رأى حقائق الحال وكان مرابطا أمام الاسكندرية ومعه خمس قطع حربية ففتح باب المفاوضات مع حكومة الباشا مباشرة .

اتفاقه مع محمد على :

وكان "نابيير" من حزب الأحرار المتطرفين وكانت تصله الأخبار من أصدقائه بلندره ، فعرف فحوى الخطاب الذي أرسله بالمرستون لبنسني في أكتوبر ، وبني من تلقاء نفسه على ما جاء فيه أساس اتفاق عقد بينه وبين بوغوص باشا وزير محمد على المفوض بمقتضاء وعد محمد على بتسليم الأسطول العثماني و باخلاء ابراهيم لسوريا ، وفي مقابل ذلك تعهد "نابيير" بأن تضمن الدول لمحمد على حكومة مصر وراثية ، وبأن لا تمس سواحل مصر بسوء ، وأن تعود العلاقات بين مصر وسوريا ، فرحب محمد على

(١) جريدة المونيتير الفرنسية : في ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٤٠

بالاتفاق على الرغم من نصيحة فرنسا له بضد ذلك لأنه كان قد سم من جمود فرنسا نحوه ، ووقع على الاتفاق في ٢٨ نوفمبر سنة ١٨٤٠ ، وكتب " نابيير " الى حكومته يقول : " انه أخذ على عاتقه هذا العمل متحملا وحده تبعته ، وأنه عمل مارآه صوابا راجيا موافقة الحكومة . نعم إن التبعة خطيرة ولكن يجب أن لا يحجم الضابط عن العمل من غير أمر متى كان العمل في صالح الوطن ^(١) .

موافقة بالمرستون على مشروع الاتفاق :

غير أنه من دواعي الأسف أن السلطان لم يعترف بنص هذا الاتفاق إذ أنكره أمير البحر " استيفورد " واللورد بنسبني والحكومة العثمانية ماعدا بالمرستون فإنه وافق عليه . وأرسل " استيفورد " يكلفه بعمل ما قام به نابيير ، ويكون بذلك قد اضطر بالمرستون في نهاية الأمر الى مفاوضة محمد علي رأسا ، ولو فعل ذلك من أول الأمر لكانت المشكلة قد انتهت من زمن من غير اراقة دماء . وهناك أسباب دعت بالمرستون لأن يخفف من غلوائه ضد محمد علي . فقد كتبت اليه الملكة مرة بتاريخ ١٧ أكتوبر وأخرى في ١١ نوفمبر تطلب اليه بشدة أن يخفف من حدته ^(٢) ومن هذه الأسباب أيضا وجود وزارة معتدلة في فرنسا فقد اضطرت الحكومة بحجارة للرأى العام أن تستمر في معدات الحرب ولكن أصبح من الواجب على الحلفاء مساعدة " جيزو " ومصالحة فرنسا التي بدأت تهدأ نائرتها عقب سقوط " عكا " وتدهور قوات محمد علي .

(١) الحرب في الشام : الجزء الأول من " نابيير " الى " بالمرستون " في ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٤٠

(٢) مذكرات جفرل : الجزء الرابع ص ٣٥٠ - وخطابات الملكة فكتوريا :

جزء أول ص ١٤٨

الفصل الرابع عشر

خاتمة المرحلة الأولى

مفاوضة الدول رأساً مع محمد علي :

في صباح ٨ ديسمبر سنة ١٨٤٠ نزل الى الاسكندرية الضابط "فالنسو" مندوباً من أمير البحر "استيفورد" قائد قوات الحلفاء ليبلغ محمد علي رغبات الدول ، فقبل محمد علي كل ما أشار به الضابط وكتب خطاباً يستعطف به السلطان وأرسله الى الصدر الأعظم ، ولكن لعبت الأيدي المستترة في القسطنطينية فشك الباب العالي في اخلاص محمد علي وأرسل بنسني الى قواده في سوريا بأن يؤذوا جيش ابراهيم أثناء اخلائه سوريا بناء على أمر الباشا . وعلى العموم لم يدخر بنسني وسعاً في الاضرار بمحمد علي حتى أن "نايير" كتب يقول : "لو كان لبنسني القوة لما تردد في توضيحية الأسطول البريطاني حبا في اهلاك محمد علي" (١).

معاكسة بنسني لمحمد علي :

وآخر ضربة من بنسني أنه أغرى الباب العالي بأن يمنح محمد علي حكومة مصر ويهمل ذكر حق الوراثة ، وكان الباب العالي قد تشجع بانكسار محمد علي وأخذ يتبعج بطلباته اذ كتب رشيد باشا الى المندوب العثماني بلنדרه يقول : "كيف توفق الدول الأربع بين مبدأ المحافظة على كيان الدولة ومنح محمد علي حكومة وراثية" (٢).

(١) الحرب في الشام لنايير : الجزء الثاني ص ١٩٥

(٢) أوراق برلانية : من "رشيد باشا" الى "شكيب باشا" في ٨ ديسمبر سنة ١٨٤٠

ارسال الفرمان :

ولكن لم تكن هذه الألاعيب السياسية نتيجة سوى لإغفار صدر النمسا وبروسيا وروسيا فاحتج السفراء لدى الباب العالي وكانت النتيجة أن أرسل السلطان فرمان ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ ، ولكن هذا الفرمان اشتمل على كثير من الشروط غير المعقولة كحق السلطان في اختيار والى مصر من أسرة محمد على واستيلاء السلطان على ربع دخل مصر وتضييقات أخرى تتعلق بمنح الألقاب العسكرية وغيرها مما أثار غضب محمد على فرفض قبول الفرمان ما لم تعدل على حسب طلباته وكتب بهذه الطلبات مذكرة وأرسل للسلطان يقول: "إن الله سبحانه وتعالى لم يثقل كاهل العبد بشروط ليست في وسعه فكيف يطلب السلطان خليفة الله في أرضه أن يضيف إلى منته شروطاً لا يمكن تنفيذها" (١) .

محمد على يطلب تعديله والدول تؤيده :

وكتبت حكومة النمسا للسلطان وإلى الحكومة الإنجليزية تهديد بالانسحاب من المحالفة إذا لم يعدل الفرمان على حسب طلبات محمد على وفعلاً أمرت قائدها بأن لا يعمل ضد إبراهيم أو ضد مصر (٢) وأرسلت حكومتا بروسيا والروسيا كتابة بهذا المعنى ، فلم يكن من بالمرستون إلا أن أرسل خطاً إلى سفيره بالقسطنطينية يلح عليه إلحاحاً شديداً أن يبذل كل جهده لدى الديوان لإرسال الفرمان بالتعديل المطلوب في أقرب فرصة ، فتم الفرمان الجديد ، وكان الوزير رشيد باشا قد استقال وخلفه في وزارة الخارجية "رفعت بك" فعُدل الفرمان في أهم شروطه . وهى :

أولاً— أن تكون الوراثة لأكبر أفراد الأسرة على حسب القانون العثمانى .

ثانياً— أن تحدد الجزية بمقدار ٨٠٠٠٠ كيس (٤٠٠٠٠٠٠ جنيه)

(١) أوراق برلانية : من "محمد على" إلى "الصدر الأعظم" في مارس سنة ١٨٤١

(٢) أوراق برلانية : من "بوفيل" إلى "بالمرستون" في ٩ أبريل سنة ١٨٤١

ثالثاً — أن يكون للبasha حق منح الرتب العسكرية لغاية رتبة "فائقمقام"،
وفي ٢٢ مايو وافق السفراء على نص فرمان الحديد ، وفي ١٠ يونيه قرئ
الفرمان بالحديد رسمياً في قصر محمد على باحتفال لائق^(١) ، وعلى ذلك يكون
محمد على قد نجح في تثبيت عرشه على أرض مصر بحسب الشروط التي أملاها.
بعد ذلك اهتمت الدول بمصالحة فرنسا فقبل جيزو ذلك بشرط أن
تحل المحالفة وذلك بكتابة كلمة تلبي بانهاء الأزمة الشرقية ، فتم ذلك ووقع
الدول الأربع على قرار الانتهاء . واشتركت الدول الخمس في التوقيع على
"معاهدة المضايق" وهي اعلان من الدول بقبول المبدأ القديم القاضي
باقفال البوغازات أمام جميع السفن الحربية وفتحها للسفن التجارية .
وهاك نص فرمان يونيه سنة ١٨٤١ إلى محمد على :

فرمان حق الوراثة لمحمد على في حكومة مصر (يونيه سنة ١٨٤١)

رأينا بسرور ما عرضتموه من البراهين على خضوعكم وتأكيدها ما أنتم وصدق عبوديتكم لذاتنا
الشاهانية ولمصلحة بابنا العالي . فطول اختباركم وما لكم من الدراية بأحوال البلاد المسلمة ادارتها
لكم من مدة مديدة لا يتركان لنا ريباً بأنكم قادرون بما تبدونه من الغيرة والحكمة في ادارة شؤون
ولايتكم على الحصول من لدا الشاهاني على حقوق جديدة من تعطفاتنا الملوكية وثقتنا بكم . فنقدرون
في الوقت نفسه احساناتنا اليكم قدرها وتجتهدون في بث هذه المزايا التي امتزمت بها في أولادكم
ولذلك صممنا على تثبيتكم في الحكومة المصرية المبنية حدودها في الخريطة المرسومة لكم من لدن
صدرنا الأعظم ومنحناكم فضلاً عن ذلك ولاية مصر بطريق التوارث بالشروط الآتي بيانها :

(١) وهذا نص اعتماد سفراء الدول في القسطنطينية على فرمان التناهي : "نحن الموقعين
أدناه ممثلي الدول الأربع العظمى حلفاء الباب العالي نعان حسب طلب الباب العالي بأنه قد وصلنا
الفرمان بالحديد المراد ارساله الى محمد على باشا حاكم مصر ولم نر فيه شيئاً أياً كان يدعو الى
معارضتنا . وعلى ذلك لم يبق علينا الا أن نطلب من الباب العالي ارسال فرمان الى صاحبه
بأسرع ما يمكن" ٤

٢٢ مايو سنة ١٨٤١ استور (النمسا) كونيغ مارك (روسيا)
نسني (انجلترا) بوتف (روسيا)

” متى خلا منصب الولاية المصرية تنتقل الولاية بالارث منكم الى أولادكم فأولاد أولادكم من الذكور من ذريتهم ثم يصدر الأمر بالتعيين من لدنا . واداً انقرض نسل الذكور من أولادكم فيعين الباب العالي شخصاً آخر في الحكم ولا يكون لأولاد النساء من ذريتهم حقاً أيأ كان في الوراثة .

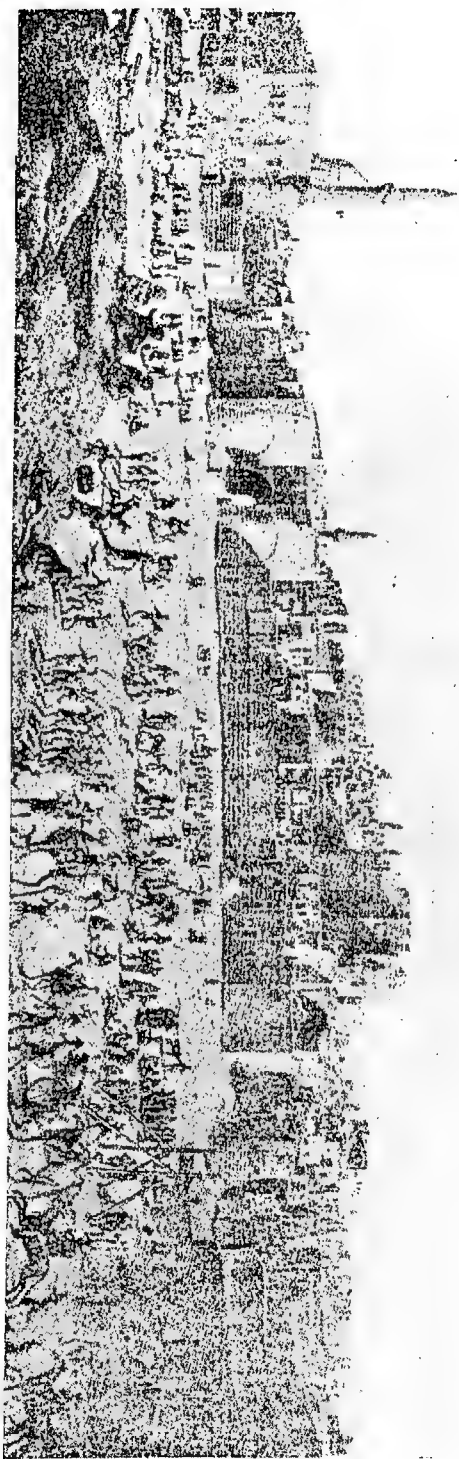
على أن حق التوارث المنوخ لوالى مصر لا يمنحه رتبة ولا لقباً أعلى من رتبة سائر الوزراء ولقبهم ولا حقاً في التقدم عليهم بل يعامل بذات معاملة زملائه وجميع أحكام شغلنا الشريف الهايوى الصادر فى كلحانة وجميع العهود المعقودة أوالتى ستعقد فى مستقبل الأيام بين الباب العالي والدول المتحابه يتبع الاجراء على مقتضاها جميعا فى ولاية مصر أيضاً وكلها هو مفروض على المصريين من الأموال والضرائب يجرى تحصيله باسمنا المملوكى ولكن لا يكون أهالى مصر وهم من رعيا بابنا العالي معرضين للضار والأموال والضرائب غير القانونية يجب أن تنظم تلك الأموال والضرائب المذكورة حسب ترتيبها فى سائر الممالك العثمانية ويرسل الى خزائنا السلطانية المبلغ الذى سيقدر فى فرمان خاص مع بيان كيفية تحصيله بما يناسب ايرادات البلاد (١) هذا فضلا عن ارسال الغلال والخضر المعتاد ارسالها الى المدن المقدسة .

ولما كان من المقرر أن يعين بابنا العالي ترتيباً لسك النقود لما فى ذلك من الأهمية بحيث لا يعود يحدث فيها خلاف لا من جهة العيار ولا من جهة القيمة اقتضت ارادتنا السنية أن أصرح بسك النقود فى مصر ولكن النقود الذهبية والفضية الجائز لحكومة مصر ضررها باسمنا الشاهانى يجب أن تكون معادلة للنقود المضروبة فى الاستانة سواء كان من قبيل عيارها أو من قبيل هيئتها وطرزها .

ويكفى أن يكون لمصر ثمانية عشر ألف نفر من الجنود للحفاظة فى داخلية مصر ولا يجوز أن تتعدوا هذا العدد لأى سبب ما . ولكن حيث ان قوات مصر البرية والبحرية معدة لخدمة الباب العالي كسائر قوات المملكة العثمانية ، فيسوغ أن يزداد هذا العدد فى زمن الحرب بما يرى موافقا فى ذلك الحين . على أنه بحسب القاعدة الجديدة المتبعة فى كافة ممالكنا بشأن الخدمة العسكرية بعد أن يتخدم الجنود مدة خمس سنوات يستبدلون بسواهم من العساكر الجديدة . فهذه القاعدة يجب اتباعها أيضاً فى مصر بشرط أن تستعمل فى ذلك جميع الجنود ما تقتضيه واجبات الانسانية والنزاهة والسرعة اللازمة ويرسل الى الاستانة سنوياً أربعائة جندى . ويجب أن لا تختلف هيئة الملابس والعلامات ورايات الجنود المصرية عن مثلها من ملابس ورايات باقى

(١) تقرر أن يكون هذا المبلغ ٨٠٠٠٠ كيس (٢٠٠٠٠٠ جنيه مجيدى) .

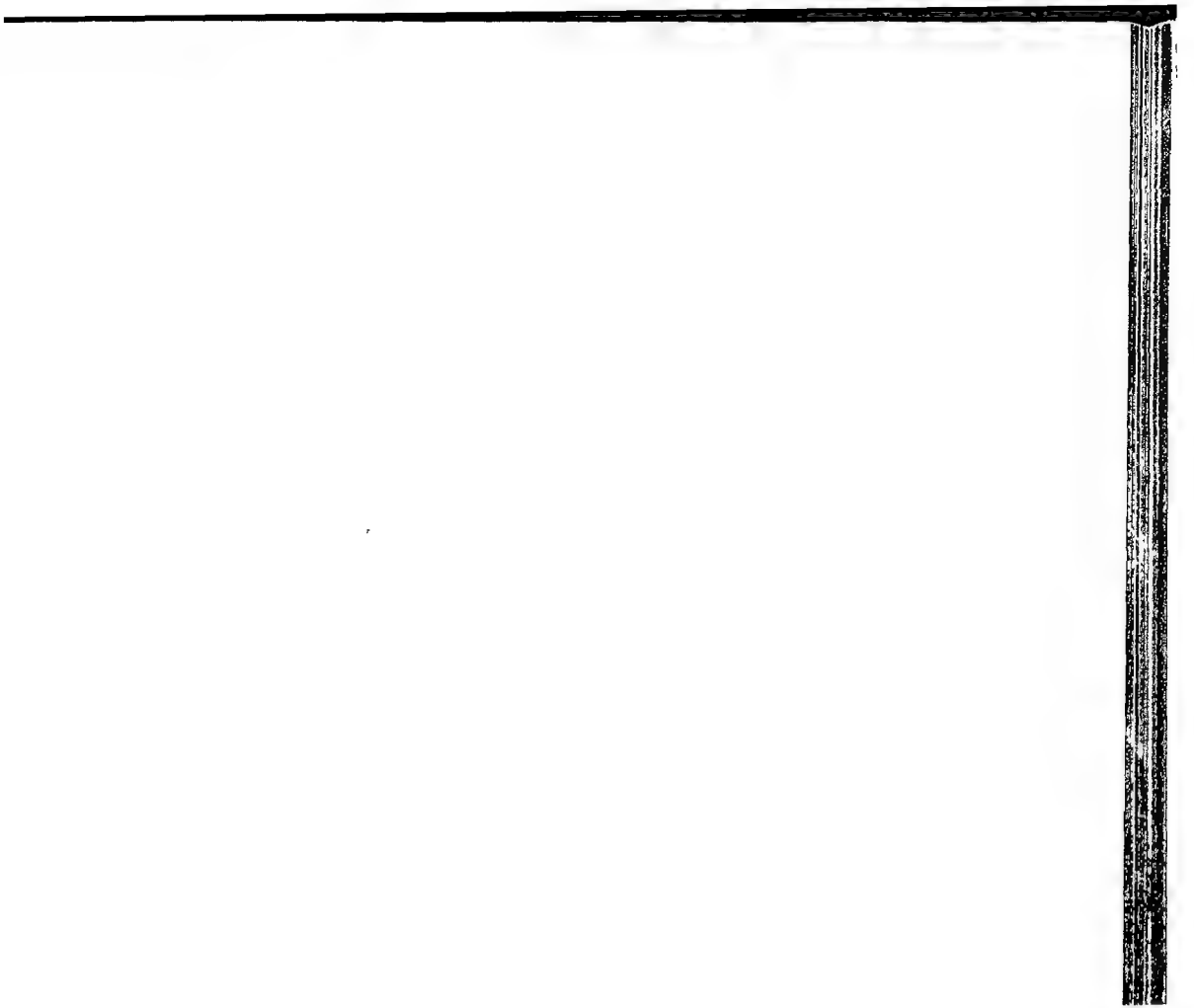
القائمة عند دخول الحملة الفرنسية





القائمة من ناحية المقطم





الجنود العثمانية . وكذا ملابس الضباط وعلامات امتيازهم وملابس الملاحين وضباط البحرية المصرية ورايات سفنها يجب أن تكون مماثلة لملابس ورايات وعلامات رجالنا وسفننا . وللحكومة المصرية أن تعين وترقى الضباط البرين والبحريين حتى رتبة قائمقام أما ما كان أعلى من هذه الرتبة فالتعيين إليها راجع لأرادتنا الشاهانية . ولا يسوغ لوالى مصر أن ينشئ من الآن فصاعدا سفنا حربية الا باذننا الخصوصى . وحيث ان الامتياز المعطى بوراثه مصر خاص للشرط الموضحة أعلاه ففى عدم تنفيذ أحد هذه الشروط موجب لابطال هذا الامتياز والغائه . وبناء على ذلك قد أصدرنا خطنا هذا الشريف الملوكى كى تصدروا أنتم وأولادكم وذريتكم قدر منحتنا الشاهانية فتعتنوا كل الاعتناء بآتمام الشروط المقررة فيه وتحملوا أهالى مصر من كل ظلم وتكفلوا أمتهم وسعادتهم مع اخبارنا بنا العالى عن كل المسائل المهمة المتعلقة بالبلاد المعهودة ولايتها اليكم“ ١٥٠

فرمان ولايته على السودان

سم صدر فرمان آخر ثبت ولايته على النوبة ودارفور وكردوفان وسنار هذا نصه :

” ان سدتنا الملوكية كما توضح فى فرماننا السلطانى السابق قد ثبتكم على ولاية مصر بطريق التوارث بشروط وحدود معينة . وقد قدتمكم فضلا عن ولاية مصر ولاية مقاطعات النوبة والدارفور وكردوفان وجميع توابعها وملحقاتها الخارجة عن حدود مصر .

فبقوة الاختيار والحكمة التى امتزمت بها تقومون بإدارة هاته المقاطعات وترتيب شؤونها بما يوافق عدالتنا وتوفير الأسباب الآيلة لسعادة الأهلى وترسلون فى كل سنة قائمة الى بابنا العالى حاوية بيانات الايرادات السنوية جميعها الخ“ .

*

* *

تلخيص نهائى

وعلى ذلك انتهى المشكل الدولى الذى شغل بال الحكومات مدة سنتين أصبحت الحرب الأوربية فى أثنائها قاب قوسين : ولو تركت الدول المسألة من غير تدخل ما بلغت الأزمة أشدها ولاتفق السلطان ومحمد على حل كما اتفقا فى سنة ١٨٣٣ بم رأى من الدول ، ولكن خشيت الدول

تدخل روسيا بمفردها وهذا الخوف جرهم الى التدخل في شؤون الحكومة العثمانية تدخلا لم يسبق له نظير . ولما زالت الهواجس من جهة روسيا بتوقيعها على المذكرة الدولية في سنة ١٨٣٩ سحقت الفرصة لالمرستون ليعمل على حل المشكل حسب مصالح السلطان التي كانت تتفق وقتئذ مع مصالح إنجلترا .

ولأجل تنفيذ هذه الخطة وجد بالمرستون أن لا بد من الانفصال عن محالفة فرنسا التي كانت مصالحها تتفق مع مصالح محمد علي ، فزاد الخلاف بين الحكومتين وأصبح الانشقاق مؤكدا ، فاجتهد بالمرستون في كسب الدول الأوروبية الى جانبه ، وتم له ذلك لخوف هذه الدول وغيرها من فرنسا . بعد ذلك ظهر لالمرستون أن محمد علي قد يعارض الدول ويقاومها بالقوة واذا أريد قهره فلا بد من الحرب ، ولم يكن بالمرستون ولا حلفاؤه على استعداد تام للحرب وحيث أن يكسب اتفاق فرنسا بنزوله لها عن بعض شروط لمحمد علي ، ولكن فرنسا عاندت ورفضت مرارا واستعملت دعاوى عريضة أوغرت صدر بالمرستون .

وحدا بفرنسا على سلوك هذه السياسة اتكأها على استحالة اتفاق الدول من غير اشتراكها . واعتمداها على قوة محمد علي العظيمة . ولكن خاب ظنهما من الوجهتين فإن مصالح إنجلترا في المسألة كانت حيوية ولذا قر بالمرستون على عقد الاتفاق وضرب فرنسا ضربة أدبية أعادت اليها رشدها . نعم كان من المظنون أن تدخل فرنسا الحرب من أجل هذه الإهانة لولا مساعي ملكها لوى فيليب الذي كان يفهمه بالمرستون حق الفهم .

ثم ما لبثت قوى محمد علي في سوريا أن تداعت تداعيا سريعا ونجحت بذلك سياسة بالمرستون نجاحا كاملا . وأراد الباب العالي أن ينتفع بالفرصة فقص من جناحي محمد علي ، ولكن بالمرستون وحلفاؤه فطنوا الى سوء هذه السياسة فأوقفوا الباب العالي عند حده وفتحوا باب المفاوضات مع محمد علي مباشرة وانهى المشكل بانضمام فرنسا الى الدول .

ونخرج محمد على من الأزمة مغلوبا في الحرب لأنه اعتمد على تعضيد فرنسا له ، وحكومة فرنسا لم تزوده الا بالأقوال والدعاوى حتى اذا جاءت الساعة العصبية أجمعت . لأن الملك رأى غير ما كان يراه الشعب . غير أن محمد على نال أقصى أمانيه ومطامعه اذ ثبت عرش أسرته في أرض مصر بموافقة الدول وسوى العلاقات بين حكومته وبين الباب العالي بحسب الشروط التي اختارها لنفسه .

~*~

خاتمة محمد على :

وبوصول فرمان يونيه سنة ١٨٤١ انتهت حياة محمد على السياسية فانصرف الى تحسين داخلية البلاد بقدر ما سمحت به شيخوخته، وصارت علاقاته مع دول أوربا على أحسن ما تكون فلما سافر ابنه ابراهيم في عام ١٨٤٥ الى أوربا للاستشفاء استقبلته فرنسا وانجلترا استقبالا نفخا دل على عظم منزلة ابراهيم الحربية ومكانة والده في نظر أوربا . ولكي يبرهن محمد على أمام الدول على حسن نياته نحو الباب العالي سافر في يولييه سنة ١٨٤٦ الى الاسكندنة وقدم فرض الاخلاص للسلطان الذي رحب به أيما ترحيب ثم عرج على بلدته "قوله" وترك فيها عدة أعمال خيرية ثم عاد الى الاسكندرية وكانت صحته قد تضععت كثيرا فترك مقاليد الأمور لحفيده عباس بن طوسون ، اذ استمر ابراهيم يشكو من مرضه فسافر الى أوربا ثانية سنة ١٨٤٧ وفي أثناء هذه الزيارة قام محمد على برحلة بحرية الى نابلى وهناك سمع بثورة سنة ١٨٤٨ وخلع لوتى فليب فتأثر محمد على كثيرا للصداقة الى

كانت بينهما فعاد الى مصر وحالته العقلية والجنائية قد ضعفت ضعفا ظاهرا ، وعاد ابراهيم فتقلد الولاية بدلا من والده في يولييه سنة ١٨٤٨ ولكن المنية عاجلته في نوفمبر ١٨٤٨ بجاء عباس باشا من مكة واستلم زمام الأحكام ، وكان محمد على اذ ذاك في الاسكندرية في قصره المحبوب برأس التين ومن حوله الأطباء والممرضون وهو يعاني أشد الآلام لاسيما بعد وفاة ابنه الأكبر ، وأخيرا في ٣ أغسطس سنة ١٨٤٩ مات الرجل العظيم فنقلت جثته الى القاهرة ودفن بمسجده الذي شيده ليشراف على القاهرة من أعلى المقطم .

ملحق (١)

منشور بونا بريت الى المصريين

الذى طبعه في الاسكندرية ووزعه في جميع أنحاء البلاد عقب نزول الفرنسيين
في الاسكندرية في ٢ يولية سنة ١٧٩٨ الموافق ١٨ محرم سنة ١٢١٣

”بسم الله الرحمن الرحيم ، لا إله إلا الله ، لا ولد له ، ولا شريك له في ملكه : من طرف
الجمهور الفرنسي المبنى على أساس الحرية والتسوية السريعة الكبر بونا بريت أمير الجيوش
الفرنساوية يعرف أهل مصر جميعهم أنه من زمن مديد الساجق الذين يتولون مصر يعاملون
الملة الفرنسية بالاحتقار والاعتداء وقد حضرت الآن ساعة عقوبتهم وأخيرا من مدة طويلة
هؤلاء الممالك المجلوبون من بلاد الأباة والحركس يفسدون في الأقليم الحسن الأحسن الذي
لا يوجد في كرة الأرض كلها ، ولكن رب العالمين القادر على كل شيء . فانه قد حكم باقصاء دولتهم
فيا أيها المصريون قد قيل لكم اني ما نزلت هذه الجهة الا بقصد إزالة دينكم فذلك كذب صريح
لا تصدقوه وقولوا للفتن اني ما قدمت اليكم الا لأخلص حقكم من يد الظالمين وانني أكثر من
الممالك أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه والقرآن العظيم . وقولوا لهم أيضا ان جميع الناس
متساوون عند الله وان الذي يميز بعضهم عن بعض هو العقل والفضائل والمعلوم . وأي شيء في
الممالك يميزهم عن غيرهم ويستوجب أن يملكوا مصر وحدهم فحيثما تكون أرض مخصصة فهي
للكملك ومثل ذلك أحسن الجوارى وأكرم الخليل وأجمل المساكن . فان كانت الأرض المصرية
التراما للممالك فليظفروا لنا الخجة التي كتبها الله لهم . ولكن رب العالمين رؤوف وعادل وحكيم
ولكن بعونه تعالى من الآن فصاعدا لا يئأس أحد من أهالي مصر عن الدخول في المصائب
السامية وعن اكتساب المراتب العالية فالعلاء والفضلاء والعلماء منهم سيدبرون الأمور وبذلك
تصلح حال الأمة كلها وسابقا كان في الأراضى المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة
والمتاجر المتكاثرة وما أزال ذلك كله الا طمع الممالك وظلمهم . فيا أيها القضاة والمشايخ والأئمة
ويا أيها الشريفة وأعيان البلاد قولوا لأمتكم ان الفرنسيين هم أيضا مسلمون مخلصون .
واثبات ذلك أنهم نزلوا في رومية الكبرى وأخربوا فيها كرسى البابا الذي كان دائما يبحث النصارى
على محاربة المسلمين ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكفألية الذين كانوا يزعمون أن الله
تعالى يطلب منهم محاربة المسلمين . ومع ذلك فان الفرنسيين في كل وقت صاروا يحمين مخلصين
لخضرة سلطان العثمانيين وأعداء أعدائه أيد الله ملكه مع ذلك أن الممالك امتنعوا عن طاعة
السلطان غير ممثلين لأوامره فما أطاعوا أصلا الا لطمع أنفسهم فطوبى ثم طوبى لأهالي مصر
الذين يتفقدون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وترفع مراتبهم وطوبى للذين يقعدون في أماكنهم غير

ماثلين لأحد من الفريقين المتحاربين فإذا عرفوا بالأكثر تسارعوا اليها بكل قلب لكن الويل
ثم الويل للذين يتحدون مع المماليك ويساعدونهم في الحرب علينا فلا يجدون بعد ذلك طريقا
للخلاص ولا يبقى لهم أثر :

المادة الأولى — جميع القرى الواقعة في دائرة قريبة على مسافة ثلاث ساعات من المواضع
التي يمر بها عسكر الفرنساوية يجب أن ترسل للسرعسكر وكلاء من عندها كيما يعرف المشار اليه أنهم
أطاعوا وأنهم نصبوا العلم الفرنساوي الذي هو أبيض وكلى وأحمر .

المادة الثانية — كل قرية تقوم على العساكر الفرنسوية تحرق بالنار .

المادة الثالثة — كل قرية تطيع العساكر الفرنسوية يجب أن تنصب أيضا سناجق السلطان
العثماني محبنا دام بقاءه .

المادة الرابعة — المشايخ في كل بلد يختمون حالا بجميع الأرزاق والبيوت والأملاك التي
تتبع المماليك وعليهم الاجتهاد ان لا يضيع أدنى شيء منها .

المادة الخامسة — يجب على المشايخ والعلماء والقضاة والأئمة أن يلازموا وظائفهم وعلى
كل واحد من أهل البلد أن يبقى في مسكنه مطمئنا كذلك تكون الصلاة في الجوامع على العادة
وعلى المصريين جميعا أن يشكروا فضل الله سبحانه وتعالى لانقضاء دولة المماليك فائين بصوت
عال . (لعن الله المماليك) . وأصلح حال الأمة المصرية “ .

بحريرا في معسكر الاسكندرية في ٢ يولييه سنة ١٧٩٨ الموافق ١٨ محرم سنة ١٢١٣

ملحق (ب)

محمد علي والخلافة^(١)

اتخذ سلاطين بنى عثمان لقب الخلافة في القرن السادس عشر بعد الميلاد وأقربهم أكثرية العالم الاسلامي على ذلك بسبب ما أحرزه الأتراك من الانتصارات الباهرة في ميادين القتال شرقا وغربا وما فتحوه من الأقاليم الغنية الواسعة بما في ذلك الأراضي المقدسة ، وما أحيوه من روح اسلامية حربية كانت قد ضعفت منذ انتهاء الحروب الصليبية . ولكن ما جاء النصف الأخير من القرن الثامن عشر حتى بدأت الدولة تندهور لاضطراب داخلية من جهة ، وظهور جارات لها طامعات في ملكها من جهة أخرى . فالتفت الدولة الحربية أن انهزمت في ميادين القتال أمام أعدائها فضعف نفوذها الأدبي ولم تقو على كبح جماح الثائرين من رعاياها . وما جاء عام ١٨٣٢ حتى فقدت معظم بلاد البلقان وكريد والجزائر ومصر وسوريا وبلاد العرب . فلا غرابة إذن أن يحفظ التاريخ في سجلات سنة ١٨٣٢ مشروعات عربية تلي "بقرب زوال الخلافة العثمانية وانتقال أمرها الى يد من هو أقوى سلطانا وأشد بطشا ، وهو "محمد علي" .

والحقيقة أنه لو أراد محمد علي قلب حكومة الخلافة اذ ذاك لما تعذر عليه ذلك . ألم يكن له من سعة السلطان والقوة ما يرشحه لمنصب الخلافة فضلا عن مواهبه ومحبة الشعب له ؟ ألم يكن هو الذي خلص المدن المقدسة من أيدي الوهابيين وفتح طريق الحج الى بيت الله حتى هبجت بذكره ألسنة المؤمنين في أنحاء العالم الاسلامي ؟ ألم يكن هو الحاكم المتصرف في دولة عربية واسعة النطاق تمتد من كريد الى الخليج الفارسي ومن جبال الطوروس الى أعالي النيل الأبيض ؟ ألم يكن صاحب الجيوش والأساطيل المنظمة الظاهرة ؟ ألم تقمع جيوشه ثورة الاغريق ثم استولت على سوريا وهزمت جيوش السلطان في أكثر من موقعة ؟ ثم زحفت كتائبه داخل الأناضول حتى وقفت عند "كوتهية" ومنها هددت القسطنطينية مقر الخلافة نفسها .

(١) هذه المقالة نشرها المؤلف في مجلة "المقتطف" عدد نوفمبر سنة ١٩٢٣

ولكننا على الرغم من كل هذا نخطئ كثيرا ونركب متن الشطط في تصوير سياسة محمد على اذا عزونا اليه ارادة اتزاع الخلافة من العثمانيين . فمثل هذا الأمل لم يدخل في حدود منهجه السياسى العمل . لقد كان لمحمد على من النظر السياسى الصائب ما جعله يحافظ على علاقاته الرسمية بالدولة العثمانية ضمانا لصيانة أملاكه الواسعة التي فتحها والتي لم تكن في الحقيقة الاجزاء من الدولة العثمانية التي ما فتئت الدول تعلن لزوم حفظ كيائها واستقلالها . لقد انتفع محمد على أيضا انتفاع من مركزه داخل الدولة اذ أخذ يواصل سياسة الفتح والاستعمار لمصلحته الخاصة تحت ستار من الاخلاص والولاء للسلطان .

ان محمد على لم ينس قط منشأه وما هو مدين به للسلطان الذي منه استمد حقوقه وقوته . ولم يجهل قط مبلغ تملك الأتراك بأسرة آل عثمان على عرش الخلافة اذ مهما يكن من شأن الأتراك في منازعاتهم وخلع سلاطينهم وتصيبهم فن المحقق أنهم لم يحاولوا يوما تغيير الأسرة الحاكمة .

كل هذه الاعتبارات جعلت محمد على يضع حدا لمقاصده وتصميماته فلم يقذف بنفسه في مشروع عالمي كخلافة تحكمه التقاليد التاريخية قبل كل شيء . ولم يكن نصيبه من الارث التاريخي حينذاك شيئا مذكورا . واننا اذا تتبعنا خطواته واسترشدنا بخطئه التي سار على منهاجها تبين لنا أن الغرض الذي كان يعمل له هو تثبيت أقدامه وأسرته من بعده في حكم مصر وما يتبعها من الأراضي على أساس معاهدة دولية صريحة . وأنه كان كبير الأمل متى بلغ هذه الأمنية أن يبعد الدولة العثمانية من قوته ونفوذه واستنارته خير نصير لها وللأمم الشرقية الاسلامية بصفة عامة .

ان البحث الدقيق فيما كتب عن محمد على من مصادر أصلية لم يداننا على أنه طمح يوما الى انشاء خلافة جديدة . ولقد أرادت الحكومة الانجليزية أن تستوثق من نياته نحو الخلافة فطلبت الى معتمدها في مصر الكولونيل كامبل سنة ١٨٣٢ — ١٨٣٩ أن ينقب في سجلات القنصلية رجاء العثور على ما يثبت إدانة محمد على فيبحث ولكن على غير جدوى وكتب ينفي الخبر نفيا باتا .

(سجلات وزارة الخارجية الانجليزية من "كامبل" الى "المارستون"
أكتوبر سنة ١٨٣٨ "سرى")

وكل ما في الأمر أنه في أثناء أزمة سنة ١٨٣٢ — ١٨٣٣ لما نشبت الحرب الشامية الأولى بين محمد على والسلطان محمود الثاني تبادل الطرفان قرارات تدل على شدة التحامل والتسرع ولا يمكن أن يؤبه لها لأنها صدرت في أحوال استثنائية مؤقتة . من ذلك أن السلطان أصدر قرارا بعزل محمد على وابنه ابراهيم وطردهما خارج القانون وهدر دمهما فأجاب محمد على على ذلك بأن أمر شريف مكة بإصدار فتوى دينية ضد الخليفة الأعظم على نسق ما كان يجري في أوروبا في العصور الوسطى بين الملوك والبابوات . واتخذ بدا لمحمد على حينذاك أن يظهر في مصر بمظهر المستقل وبلغ به السخط على الباب العالي أن صرح لبعض ممثلي الدول أنه يود خلع السلطان واجلاس ابنه الصغير (ابن السلطان) على عرش الخلافة فيكون هو صاحب الوصاية والقوة المحركة للحليفة

القاصر . وهذا منتهى ما وصل اليه تطرف مجد على الفكرى أثناء الأزمة العصبية التى هزت عرش الخلافة هذا .

ولو كان مجد على يطمع حقا فى الخلافة لانتهاز فرصة انتصاراته الحاسمة ولأمر جيوشه بالزحف على القسطنطينية من غير تردد ، وما كان أصلحها فرصة له فان إنجلترا وفرنسا كانتا تساعدانه بلا شك ضد أية حركة عداوية من جانب روسيا أو النمسا أوهما معا .

ولكن مجد على لم يتحرك ضد القسطنطينية بل أرسل أوامره الى ابنه ابراهيم بالوقوف عند "كوتاهية" حتى تجاب مطالبه التى قصرها على حكم سوريا واطنه عدا الأقاليم التى كانت فى يده قبل الحرب . وان كل ما بدا من مجد على أثناء هذه الأزمة من الحذر وضبط النفس والاعتدال لبرهانا قويا على سلامة نياته نحو الخلافة العثمانية .

*
* *

وهناك عامل آخر لابد من حسابه عند البحث فى هذا الموضوع وهو رأى دول أوروبا فيما لو تمكن مجد على من انتزاع الخلافة من يد العثمانيين . وليس هذا من العروض التاريخية التى لا يجوز البحث فيها ، فليس ثمة شك أن هذه المسألة طرحت فعلا على بساط البحث والمناقشة بين الدول عقب أزمة سنة ١٨٣٣ ، وكان الرأى الذى اتفقت عليه الدول اذ ذاك أنه يجب المحافظة على كيان الدولة العثمانية وخاصة فى أوروبا ضمانا للسلام والصفاء بين الدول .

غير أنه كان لكل دولة تبع أهوائها ومراميا تفسير خاص لهذا المبدأ . فالروسيا مثلا كانت تريد أن تبقى الدولة كما كانت ضعيفة تحت رحمة القيصر ورهن ارادته . وما كانت الروسية لتعصد عنصرا نهضيا كحميد على الا اذا كانت مجهوداته مسلطة ضد الدولة خارج بحر مرمره . فقد كتب الكونت "نسلرود" رئيس حكومة روسيا فى ذلك الوقت الى المنسوب الرومى فى القسطنطينية يقول : "يجب أن لا يصل مجد على الى القسطنطينية ويقلب نظام الحكم فيها . فثل هذا العمل لا يتفق مع مصالح حكومة القيصر وأغراضها . فان مجد على اذا وطد ملكه فى الاستانة كان منه حصن منيع وقوة لا يستهان بها أمام روسيا بدلا من حار ضعيف منهزم" . (البسفور والدرديل : ليريا نوف ص ٢٩)

أما فرنسا فكانت سياستها ذات وجهين فيينا نراها منجذبة نحو مجد على عاملة على رفع شأنه اذ هى من جهة أخرى تؤكد الباب العالى صدق ولائها القديم وتصميمها على الوقوف فى وجه روسيا ومنعها من تنفيذ أغراضها فى الدولة .

أما إنجلترا فانها لم تكن تود أن ترى مجد على عقبه فى طريقها الى الهند أعنى طريق السويس وطريق القرات . ولكنها اذا خيرت بينه وبين روسيا فضلت مجد على فبعض الشراؤون من بعض . ولهذا السبب تضافت مع فرنسا فى حل السلطان على اجابة مطالب مجد على سنة ١٨٣٣

ولهذا السبب أيضا أدلى بالمرستون وزير خارجية إنجلترا لسفيره في القسطنطينية بتصريح مهم قال فيه : ” إذا اضطررنا يوما أن نختار أحد أمرين : إما استيلاء محمد على على القسطنطينية أو جعلها تحت نفوذ روسيا فلا يكون في وسعنا إلا أن نختار الأمر الأول .

(سجلات وزارة الخارجية : من بالمرستون)
الى ” بنسبي ” ٦ ديسمبر سنة ١٨٣٣) .

- هذا تصريح نزل نزول الصاعقة على روسيا والنمسا تصريح لم يفسه الوزير الإنجليزي بمثله في جانب محمد على . وبلغ من خوف مترنخ الوزير النمساوي أنه كتب على أثر ذلك يرجو بالمرستون أن يحفظ تصريحه في طي الكتمان خوفاً أن يصل الى علم الباشا فيشجعه على تجديد العداء للسلطان . وأراد الوزير الإنجليزي أن يوضح الأمر جليا لروسيا فكثف الى سفيره بيطرسبورج يقول : ” ولو أنه لا يوافق الحكومة الروسية أن ترى محمد على على رأس الدولة العلية لأنها تخشى هيمته ونشاطه فإن إنجلترا ترى أنه خير لأوروبا ومصالحها أن يحكم الدولة حاكم قوى مستقل من أن يكون السلطان آلة في يد روسيا تحركها كيف شاءت “ .
- (من بالمرستون ٢٨ فبراير سنة ١٨٣٤)

ولما نشبت الحرب الشامية الثانية بين محمد على والسلطان سنة ١٨٣٩ صرح بالمرستون لسفير فرنسا في إنجلترا : ” بأنه كان يروم من صميم فؤاده أن يرى محمد على حتى في منصب الخلافة لو أن له من الخصال وحوله من التقاليد ما يضمن بقاء الدولة وتماسكها في المستقبل “ .

(مذكرات جيزوالجزء الرابع) ٥

أما النمسا فانها ارتبطت في سياستها مع روسيا واتفقتا على العمل معا ضد امتداد سلطان محمد على في أوروبا .

هذه خلاصة آراء الدولة العظمى بشأن محمد على والخلافة ، وكلها تؤيد ما ذهبنا اليه وهو في حين أنه كان من المستطاع أن يقلب محمد على حكومة الخلافة العثمانية ويلقي في سبيل ذلك تعضيد بعض الدول فانه كأمير مسلم عثماني صميم طاماً رأسه أمام سرير الخلافة العظمى فلم يمسها بسوء وظل الى النهاية يقدس مقام الخلافة ويعمل فقط على تثبيت حكمه وأسرته في مصر وما يتبعها من الأقاليم حتى يتحقق جل أمانيه بمعاودة لندره سنة ١٨٤٠ وهي أساس استقلالنا اليوم أمام الدول .

ملحق (ج)

مشروع الجمعية الأمم في سنة ١٨٤٠^(١)

كانت دول أوروبا العظمى قد قررت سنة ١٨١٥ في مدينة فيينا أن يجتمع مندوبون من قبلها في مؤتمر غايته الاتفاق على الطرق التي تكفل بقاء السلم العام في أوروبا ، وقد عقد المؤتمر ولكنه لم يأت بالغرض المرجو منه لأن الدول اقتصر على تطبيق المبدأ من جهة واحدة ، ذلك أنها اهتمت في المؤتمر الأوروبي الأول الذي عقدته بشؤون غيرها من الأمم وعملت عن نفسها وأغلاطها وتركها من غير قيد ولا شرط زاعمة أن الثورات الداخلية وحدها هي التي يخشى منها على بقاء السلم ونسيت أو تناسلت أن المطامع الفردية إذا تسلطت على إحدى الدول العظمى كانت مدعاة إلى نشوب الحرب لا محالة .

وهناك أمران ساعدا على فشل المؤتمر الأوروبي : (الأول) قيام إنجلترا ضد دول أوروبا المستبدة ناصرة للممالك الصغيرة وقائلة بعدم التصدي لها في شؤونها الداخلية ، (الثاني) سعى كل من الدول العظمى في أغراضها الخاصة بها من غير اكتراث لقانون الحقوق الشرعية ولا مراعاة لتخوم الممالك التي قررها مؤتمر فيينا سنة ١٨١٥ فقد حدث أن تعرضت روسيا لشؤون الدولة العثمانية بين سنة ١٨٢٨ — ١٨٣٣ وكادت تقضى على استقلال تركيا في أوروبا ، وتعرضت النمسا لشؤون إيطاليا وتعرضت فرنسا وإنجلترا لشؤون هولندا حتى باتت الحرب في كل حادثة من الحوادث المذكورة على قاب قوسين وباتت فكرة السلام العام أملا مضيقا ونسبا منسيا .

كان من جراء هذه الحوادث وأمثالها أن علم سواس أوروبا الذين كانوا يتوقون إلى السلم أن الضمان الحقيقي للسلام العام إنما هو وضع حد لمطامع أية دولة من الدول العظمى نفسها تظهر ميلا إلى التعدي وذلك باتفاق باقي زملائها عليها لافي مراقبة الدول الصغيرة وحراسها ، ولو وجد مؤتمر على هذه القاعدة لعمر طويلا في أوروبا .

وليس في التاريخ ذكر لجمعية الأمم هذه وإنما توجد مستندات تاريخية تؤيد محاولة بعض الساسة تأليف جمعية للأمم في أوروبا سنة ١٨٤٠ فقد تولدت هذه الفكرة في فيينا والفضل في ارازها يرجع إلى رجلين : (الأول) "اللورد بوفيل" (السير فردريك لام) سفير بريطانيا العظمى في فيينا ، (الثاني) البرنس مترنخ رئيس حكومة النمسا وصاحب المبادئ الرجعية المعروفة . وكان ذلك في أغسطس سنة ١٨٤٠ أيام أن عكرت المسألة المصرية صفو أوروبا وكادت فرنسا تشعل الحرب من أجل محمد علي .

ويغلب على الظن أن الأوراق التاريخية التي نحن بصدددها لم يسبق نشرها فإن المستر "ألين فيلبس" لم يشر في كتابه الشهير "اتحاد أوروبا" بكلمة ما إلى هذه الخطوة الهامة

(١) نشرها المؤلف في مجلة "المقتطف" في عدد أبريل سنة ١٩١٩

في سبيل تكوين جمعية الأمم والأوراق المشار إليها تبنى عن مشروع تكوين عصبة أوربية دفاعية من الأربع أو الخمس الدول العظمى التي أخذت على عاتقها اصلاح ذات البين بين الدول والوقوف أمام أية دولة سواء أكانت من أعضاء الجمعية أم خارجة عنها تهدد السلم العام إما بالمظاهرات أو بالحرب الفعلية . ومقاومة الجمعية لهذه الدولة المعتدية إما أن تكون بواسطة الاحتجاج أو باستعمال القوة لو قضت الضرورة بذلك .

وتمتاز هذه الجمعية عن الجمعيات التي ألفت قبلها لتأييد السلم العام بثلاث نقط : (أولها) وأهمها أن المشروع يقضى صراحة بوجوب العمل ضد أية دولة من الدول العظمى تسعى في تهديد السلم العام ، (ثانيا) أن المشروع لا يقضى بتكوين جمعية دائمة لمندوبى الدول ، إنما يجتمع النواب بناء على دعوة ترسلها إحدى الدول أو في حالة ما إذا أصبح السلم في أوروبا مهدداً في نظر الجميع . (ثالث) أن الدول في هذه المرة كانت مدفوعة بعمل الاخلاص لأجل المحافظة على السلم العام لاسمياً وراء مصلحة الملوك بل وراء مصلحة الشعوب أيضاً ودوام سعادتها .

ويلاحظ أن عدد الممالك التي تتألف منها الجمعية لم يحدد في المشروع وذلك لعدم وثوق الدول بإمكان انضمام فرنسا اليهن . على أن المادة السادسة من المشروع تقضى بقبول أية دولة أوربية في الجمعية بشرط أن تحفظ الدول العظمى لنفسها حق دعوة من تريد أن تشاركها من الحكومات في جلساتها . كذلك يلاحظ مطابقة روح المشروع لأفكار أكبر القائلين بتأييد السلام العام . فقد قال المسيو "نوبل" صاحب الجائزة المعروفة : "إذا عاهدت الدول نفسها بأن تتخذ ضد أول معتد من الأمم استحال وقوع الحرب وتعذر على أشد الحكومات عنادا سلوك أى طريق سوى السكون أو التحكيم" . وذكر السير فردريك بلك : "أن المنازعات على التفوق في العالم لا يفصل فيها بالبراهين والحجج المنطقية ، وليس هناك الا علاج واحد مقيد وهو وجود عصبة تعمل على تنفيذ مبدأ السلام العام" .

وهالك نص المشروع الذى وضعه سفير بريطانيا في فيينا بالاتفاق مع البرنس مترنخ وهو (١) :

المادة الأولى

تتعهد الدول الأربع . . . كل على حدة وبالتضامن بأن لا تعتمد الى استعمال القوة ضد أى حكومة أوربية من غير أخذ رأى الدول الأخرى الموقعة على هذه المعاهدة أو لا حتى يمكن أن تنظر الدول في رفع غلاقتها وانصافها بالطرق السلمية .

ملاحظة — وافق البرنس مترنخ على هذه المادة معتبرا أنها أساس المشروع كله .

(١) من سجلات وزارة الخارجية (النسا) ، شؤون خارجية : من اللورد "بوفيل" الى اللورد "المارستون" وزير خارجية إنجلترا في ٢٩ أغسطس سنة ١٨٣٠ "سرى" .

المادة الثانية

إذا قدم طلب مثل هذا تتعهد الدول بالاجتماع في المدينة التي تعينها الدولة التي طلبت الاجتماع للاتفاق معا على الطرق التي تكفل منع الحروب ومتى درست الدول حقائق الموضوع تسرع الى ازالة بواعث الحرب باستخدام نفوذها الأدبي لحماية الدول المهددة أو لتعيين التعويضات اللازمة حسب ظروف القضية .

ملاحظة — هنا اقترح البرنس مترنخ أن تعين المدينة التي يجتمع فيها ، فكان جواب اللورد بوفيل أنه قد تمضى سنة في مفاوضات عديمة الجدوى بشأن ذلك وأن اللازم أن تعين المكان الدولة الطالبة للاجتماع فهي أعرف بالمكان الذي يوافقها ، وأخيرا اقترح البرنس مترنخ أن يكون الاجتماع في عاصمة الحكومة التي طابته . ومع ذلك فيترك للتوثير حرية الانتقال الى المكان الذي يعتبره أكثر موافقة .

المادة الثالثة

إذا أصرت دولة مهاجمة على العدوان بالرغم من مساعي الدول الأخرى وفضلت استعمال القوة فللدول حينئذ في هذه الحالة فقط دون غيرها أن تأخذ التدابير اللازمة للدفاع المشترك وفي هذه الحالة يعتبر الهجوم ضد أى دولة كأنه هجوم ضد الجميع .

ملاحظة — وافق البرنس مترنخ على هذه المادة .

المادة الرابعة

لكي لا يكون هناك أدنى ريب في نيات الدول الحقيقية ازاء مشروع السلام العام تعلن الدول أنه إذا هددت السلام لإحدى الدول الموقعة على هذا فان الدول الأخرى تقوم بما فرض عليها كما هو مبين في المواد السابقة وتعمل كما لو كانت هذه الدولة لاعلاقة لها بالدول الأخرى ولا بهذه المعاهدة .

ملاحظة — وافق البرنس مترنخ على هذه المادة .

المادة الخامسة

إذا لم يقدم للدول أى طلب ولكن اشتهر لدى الجميع أن السلام العام في خطر فالدول الموقعة على هذا تحفظ لنفسها حق الاجتماع في عاصمة أى حكومة من بينها لاتخاذ التدابير والطرق اللازمة للحفاظ على السلام العام .

ملاحظة — وافق البرنس مترنخ على هذه المادة .

المادة السادسة

لما كانت رغبة الدول العظمى الأربع . . . أن تتمتع أوروبا بمثل هذه الضمانات التي أخذتها الدول على نفسها فقد اتفقت الدول على إرسال هذه المعاهدة الى الحكومات الأخرى داعية اياها الى الانضمام اليها بشرط أن يبقى حق المذاكرة والفصل حسب نص هذه المعاهدة في أيدي الدول الواضعة للمعاهدة .

ملاحظة — صادق البرنس على هذه المادة ولكنه ذكر أنه يفضل الإشارة الى معاهدة "اكس لا شابل" التي تقضي بأن يشترك في المذاكرة الحكومات صاحبات المصالح في المسألة المعروضة ، ولكن من رأى اللورد بوفيل أن الأوفق عدم السماح بذلك لأنه لا بد أن يكون هناك دولة من الدول العظمى لها مصالح في كل مسألة معروضة فهل يسمح لها بأن تكون حكا في قضية تخصها ، هذه مسألة معضلة ، وهناك معضلة أخرى وهي كيف يوفق بين فكرة دعوة حكومات أوروبا للانضمام الى هذه المعاهدة وفي الوقت نفسه لا يسمح لها بالاشتراك فيما يقرره المؤتمر بشأن مصالحها الخاصة ، ومع ذلك فالمشروع يكون عديم الفائدة من غير اعطاء هذا الحق للحكومات .

* *

لم يقبل اللورد بالمستون وزير خارجية إنجلترا وقتئذ المداولة بشأن هذا المشروع لأن الأزمة السياسية التي هددت السلم العام في أوروبا كانت قد زالت بسقوط حكومة تيير في فرنسا في أكتوبر سنة ١٨٤٠

ملحق (د)

أهم مصادر الكتاب

مصادر أصلية

- ١ — سجلات وزارة الخارجية بلندن .
- ٢ — مكتبة المتحف البريطاني (المخطوطات) .
- ٣ — الأوراق البرلمانية .
- ٤ — بحائب الآثار : في أربعة أجزاء تأليف الشيخ عبد الرحمن الجبري .
- ٥ — سوريا ومصر : تأليف حنا باركر معتمد إنجلترا في مصر سنة ١٨٢٦ — ١٨٣٢ (انجليزية) .
- ٦ — نظرة عامة في أحوال مصر : في جزئين لكلوت بك (فرنسي) .
- ٧ — تاريخ محمد علي : تأليف مورييه في أربعة أجزاء (فرنسي) .
- ٨ — مصر ومحمد علي : تأليف "سنت جون" في جزئين (انجليزية) .
- ٩ — مذكرات نابليون : تأليف "الكونت لاكاس" (فرنسي) .
- ١٠ — مصر في سنة ١٨٣٧ و ١٨٣٨ : تأليف "توماس واجهورن" (انجليزية) .
- ١١ — مذكرات جيزو : تأليف "جيزو" وزير فرنسا (فرنسي) .
- ١٢ — تاريخ حياة مترنج : بنفسه (انجليزية) .
- ١٣ — الحرب في الشام : تأليف "شارلس نابيير" في جزئين (انجليزية) .
- ١٤ — تاريخ حياة بالمرستون : تأليف "هنري بلور" في ثلاثة أجزاء (انجليزية) .
- ١٥ — مجموعة هانسارد : للخطابات البرلمانية (انجليزية) .
- ١٦ — مذكرات جوفل : تأليف "هنري جوفل" (انجليزية) .
- ١٧ — خطابات الملكة فكتوريا : سنة ١٨٣٧ — ١٨٦١ (انجليزية) .
- ١٨ — الثورة الفرنسية : تأليف "تيير" (فرنسي) .
- ١٩ — نابليون بونابرت في مصر : تأليف "لاكروا" (فرنسي) .

مصادر ثانوية

- ٢٠ — تاريخ أوروبا السياسي : تأليف "ديدور" جزئين (فرنسي) .
- ٢١ — المسألة الشرقية : تأليف "دريولت" (فرنسي) .
- ٢٢ — مسألة مصر : تأليف "ده فرنسيه" (فرنسي) .

- ٢٣ — البسفور والدرديل : تأليف "غريمانوف" (فرنسي) .
 - ٢٤ — حقائق الأخبار عن دول البحار : تأليف "اسماعيل باشا سرهنك" .
 - ٢٥ — الكافي : تأليف "شاربم بك" .
 - ٢٦ — تاريخ مصر الحديث : تأليف "جورجي زيدان" .
 - ٢٧ — الممالك : تأليف "السيروليم ميور" .
 - ٢٨ — تاريخ أوروبا منذ سنة ١٨١٥ : تأليف "هازل" (انجليزي) .
 - ٢٩ — إنجلترا وأسرة الأورليان : تأليف "هول" (انجلترا) .
 - ٣٠ — التاريخ العام : تأليف "لافيس" (فرنسي) .
 - ٣١ — جورج كاتنج : تأليف "تاميرلي" (انجليزي) .
 - ٣٢ — مذكرات عن محمد علي : تأليف "السير شاولس مري" (انجليزي) .
 - ٣٣ — مجموعه القوانين : تأليف "جلاد" (فرنسي) .
 - ٣٤ — تاريخ حياة اللورد كلارندون : تأليف "السير هربارت مكسويل" (انجليزي) .
 - ٣٥ — أوروبا في القرن التاسع عشر : تأليف "أليسن فيلبس" .
 - ٣٦ — تقدم دول أوروبا : تأليف "أليس فيلبس" .
 - ٣٧ — تاريخ مصر في حكم محمد علي : تأليف "مجن" (فرنسي) .
 - ٣٨ — مصر من سنة ١٧٩٨ — ١٩٠٠ : تأليف "لويس برهيه" (فرنسي) .
 - ٣٩ — إنجلترا والحملة الفرنسية على مصر : في مجلدين تأليف "شارل رو" .
- ملاحظة — هذه أهم ما ذكره من مراجع الكتاب الأصلية وقد ظهر أخيراً كتب قيمة
باللغات العربية والانجليزية والفرنسية في هذا الموضوع .

ملحق (هـ)

أسماء أهم الأعلام الأوربية الواردة في الكتاب

الفرنسيون

- بليار Belliard بليار أحد قواد الحملة الفرنسية بمصر .
- بوالكت Bois-le-Comte مندوب فرنسي بالقاهرة سنة ١٨٣٢
- بروى Brueys قائد أسطول الحملة الفرنسية .
- كلوت بك Clot Bey دكتور في خدمة محمد علي ومنشئ مدرسة الطب .
- كشليه Cochlet معتمد فرنسا بالقاهرة .
- سريزي Cerisy من منشئ الأسطول المصري في عهد محمد علي .
- ديزيه Désaix أحد قواد الحملة .
- جيزو Guizot سفير فرنسا بلندره مارس سنة ١٨٤٠ ثم وزير خارجية فرنسا أكتوبر سنة ١٨٤٠
- كليز Kléber القائد العام للحملة بعد عودة نابليون .
- لالند Lalande قائد أسطول البحر الأبيض المتوسط سنة ١٨٣٩
- لينتز Leibnitz فيلسوف ألماني .
- لوى فيليب Louis Philippe ملك فرنسا سنة ١٨٣٠ — ١٨٤٨
- مجالون Magallon ممثل الحكومة الفرنسية باسكندرية قبل الحملة .
- ميزون Maison قائد الحملة الفرنسية بالامورة سنة ١٨٢٧
- مينو Menou القائد العام للحملة بعد قتل كليز .
- منح Monge رئيس البعثة الفرنسية العلمية .
- ري Rigny أمير البحر في واقعة نوارين .
- روسين Roussin سفير فرنسا بالقسطنطينية .
- سبستاني Sebastiani سفير فرنسا بلندره لغاية فبراير سنة ١٨٤٠

- سيڤ (سليمان باشا) Sèves... .. منشى* الجيش المصرى فى عهد محمد على .
- سولت Soult رئيس وزراء فرنسا لعاية فبراير سنة ١٨٤٠
- تاليرند Talleyrand أحد أعضاء حكومة الادارة بهرنا .
- تيير Thiers رئيس الوزارة من فبراير سنة ١٨٤٠ الى أكتوبر سنة ١٨٤٠
- فان Varennes معتمد بالقسطنطينية

البريطانيون

- بوفيل Beauvale سمير يقيينا .
- بورنج Bowring عضو فى البرلمان ومندوب لمصر سنة ١٧٣٧
- بلور Bulwer سكرتير السفارة بالقسطنطينية ثم فى باريس .
- كاننج Canning وزير الخارجية ورئيس الوزارة سنة ١٨٢٧
- كامبل Campbell معتمد بالقاهرة .
- كدرنجتون Codrington أمير البحر فى موقعة نوارين .
- فانشو Fanshaw مندوب لىفاوض محمد على سنة ١٨٤٠
- فريزر Fraser قائد الحملة الانجليزية على مصر سنة ١٨٠٧
- جرانفيل Granville سفير بباريس .
- هولند Holland أحد أعضاء الوزارة .
- هدجس Hodges معتمد إنجلترا بالقاهرة بعد كامبل .
- كيث Keith قائد أسطول البحر الأبيض المتوسط سنة ١٨٠١
- مندفيل Mandeville... .. معتمد بالقسطنطينية .
- ملبورن Melbourne رئيس الوزارة .
- ناپير Napier ضابط فى الأسطول .
- بالمرستون Palmerston وزير الخارجية .
- بونسنبي Ponsonby سفير بالقسطنطينية من سنة ١٨٣٣

- استيفورد Stopford القائد العام لحملة الخلفاء سنة ١٨٤٠
 سدني سميث Sidney Smith قائد بحري أمام عكا سنة ١٨٩٩
 واجهورن Waghorn مندوب شركة الهند الشرقية الانجليزية .
 واكر Walker ضابط بالأسطول العثماني .
 وود Wood موظف بريطاني .

الروسيون .

- بوتنفي Boutenieff سفير بالقسطنطينية .
 برنوف Brunnow مفوض بلندره سنة ١٨٤٠
 ديبيتش Diebitch... ... القائد في الحرب الروسية التركية سنة ١٨٢٩
 هيدن Heyden أمير البحر في واقعة نوارين .
 مدم Medem ممثل الحكومة بالقاهرة .
 مورافيف Muravieff مندوب خاص لتركيا ومصر سنة ١٨٣٢
 نسلرود Nesselrode رئيس الحكومة .
 اولوف Orloff مفوض بالقسطنطينية سنة ١٩٣٣

النمسيويون

- لورين Laurin ممثل الحكومة النمساوية بمصر .
 نيومن Nieumann مفوض بلندره سنة ١٨٤٠
 مترفنخ Metternich رئيس الحكومة .
 بروكش Prokesch مندوب بمصر سنة ١٨٣٣
 استورمر Stürmer... ... سفير بالقسطنطينية .

البروسيون

- بيلوف Bülow مفوض بلندره سنة ١٨٤٠
 كونيجزمرك Koenigsmark سفير بالقسطنطينية .
 ملتكه Moltke قائد بالجيش العثماني .

اليونانيون

كابودسترياس Capo distrias وزير خارجية فيصر روسيا ورئيس حكومة
اليونان سنة ١٨٣٠

هتريا فليكي Hetairia Philike جمعية الاخوان الاغريقية .

ابسلنتى	Ipsilanti... ..	} زعماء الثورة .
مافروكرداتوس	Maurocordatos	
كالكوترونس	Colcotronis ...	} قواد في البحر .
كناريس	Canaris	
ميوليس	Miaoulis	} عصابت الجبلين .
الكلفت	Klephtes... ..	

تم طبع هذا الكتاب بالمطبعة الأميرية ببولاق
في يوم ١٥ من رجب سنة ١٣٥٣
(٢٤ من أكتوبر سنة ١٩٣٤) م
مدير المطبعة الأميرية
محمد أمين بي هجعت

